محاوراتي مع السادات

أحمد بهاء الدين



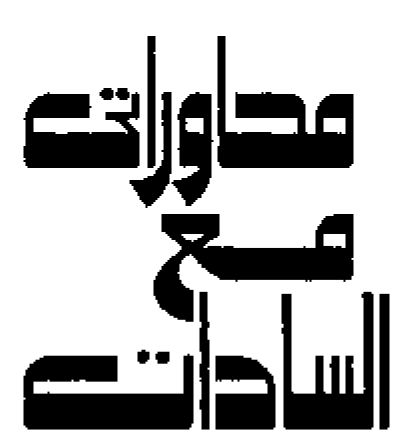
دار الهلال

اهداءات ٢٠٠١

ا.د. محمـــــد ديـــــاب

جراح بالمستشفى الملكي المصري

أحمد بهاء الدين



دار الهلال

مقدمة

●● عندما بدأ نشر هذا الكتاب مسلسلا في عدد من الصحف والمجلات العربية ، قدمت لهذه السلسلة بالكلمة التالية :

« هذه الأحاديث ليست مذكرات ، فالمذكرات تقتضي تغطية مرحلة من المراحل التي عايشها الكاتب بكافة جوانبها وبكل أحداثها وأبطالها . وهي أيضا ليست كتابا عن أنور السادات . فهذا عمل يقتضي دراسة الشخص التاريخي بكل مراحل حياته وبكل جوانب شخصيته وسياساته . وهذا أيضا ليس هدف الكتاب » .

ولكن هذه السطور اختارت لنفسها مساحة محددة للحديث ، وهي « محاورات مباشرة » دارت بين الكاتب ورئيس الدولة في مراحل مختلفة وموضوعات متعددة .

ولم يكن مقصودا تسجيل كل ما دار من حوارات مما يتعلق بمئات الأحداث ومئات الأشخاص ، ولكنني عمدت الى الانتقاء الشديد لما تصورت أنه يلقي ضوءا مباشرا على تفكير الرجل ودوافعه وطريقة نظرته للأشياء والأشخاص من الزاوية التي أتيح لي أن أراها بشكل مباشر .

وليس لدى على هذه المحاورات شهود ، الا في القليل النادر ، وليس لدى وثائق الا أقل وأندر ، فأنا أسجل هذه الأحاديث معتمدا على الذاكرة تماما تاركا الحكم عليها للقارىء ورأيه في أمانة الكاتب ومسئوليته .

وليس لدي ، وأنا أقدم هذه المحاورات في صورة كتاب ، الكثير مما يمكن أن يضاف الى هذا التقديم البسيط ..

فقط أحب أن أسجل ، أن ما تلقيته من الذين عاشوا بعض هذه

الاحداث ، نفيا أو تأكيدا ، قد زاد كلاهما من تمسكي بدقة كل سطر كتبته في هذا الكتاب ، دون أي تعديل ..

الأمر الثاني هو : أنه من الممكن بالطبع أن اكتب ، في مجال هذه الحوارات ، عشرة أمثال ما كتبت . فالأحداث غزيرة والكلام كثير . ولكنني أؤكد للقارىء ، الذي تفضل وعبر عن ثقته في كرم ، انني راعيت كل الحرمات واحترمت كل الخصوصيات ، ولم اتطرق لآراء شتى للسادات في شخصيات ، محترما قاعدة أن « المجالس أمانات » ، ومكتفيا في أضيق الحدود بما رأيت أن له صفة الموضوع العام ، والشخص العام . واذا كنت قد تطرقت الى رواية بعض الأحداث الجانبية ، والشخصيات ، فقد كان ذلك فقط في اطار شرح السياق الذي لابد من شرحه لاعطاء جو « الحوار » مناسبته وظروفه . « والحوارات » ذاتها هي موضوع الكتاب ، وجوهره .

و « الحقيقة » عن أي شخص أو موضوع متعددة الجوانب ، ولا يكتمل للقارىء أو الباحث القدر الكافي من « الحقيقة » الا بقراءة الشهادات المتعددة ، من وجهات نظر متعددة ، في رواية ما حدث ، وذكرى ما جرى ، وقد التزمت ـ كما قلت سابقا ـ بأن لا أعرض « معلوماتي » ، وهي كثيرة بالطبع ، ولكنني ذكرت ما رأيته بعيني ، وما سمعته بأذني ، وما كان احتكاكي به شخصيا مباشرا . وهو اختيار صعب في الكتابة . أرجو أن لايجده القارىء صعبا في القراءة .

وفقنا الله جميعا للوفاء « للحقيقة » قدر ما نستطيع . أما التحليل والآراء ، فمجالها واسع ، وممتد على الدوام ●●

أحمد بهاء الدين

الانطباعات الأولى ..
وبداية المعرفـــة

عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو ، وفى الأيام الأولى بين فجر ٢٣ يوليو وغروب شمس ٢٦ يوليو بإبحار السفينة (المحروسة) حاملة الملك فاروق واسرته وحاشيته لم نعرف من الذين قاموا بالثورة إلا اسمين فقط ظهرا على مسرح تلك الأحداث وهما : اللواء محمد نجيب والبكباشي أنور السادات .

كان التدرج الذى اتبعه رجال الثورة فى تلك الأيام الأربعة يدل على ذكاء غير طبيعى فى الحركة : بدءوا بالقول بأنها حركة فى الجيش ومطالبها هى تطهير الجيش وعلى هذا الأساس استدرجوا سياسيا مخضرما وماكرا هو على ماهر رئيس الوزراء ورئيس الديوان الملكى عدة مرات إلى قبول رئاسة الوزراء وكانوا قد اختاروا شهر يوليو الذى تنتقل الدولة كلها فيه إلى الاسكندرية . وفى القاهرة لم يحتاجوا إلى أكثر من احتلال مبنى قيادة الجيش والقبض على كبار ضباطه والسيطرة على الموقع مع إرسال قوة إلى مبنى الاذاعة وقوة أخرى إلى محطة أبوزعبل .

وذهب على ماهر إلى الاسكندرية وفوجىء بأن قوات الجيش سبقته إلى هناك وأنها حاصرت قصر رأس التين الذى لجأ إليه الملك . ثم فاجئوا على ماهر بأن الثورة تستهدف عزل الملك عن العرش . تدرج فى الحركة محسوب حيث يخدر أعصاب الدولة التى تتهاوى .. وتحركات قليلة ولكنها « السهل الممتنع » .

وقد اختلف الناس وقتها فى التخمينات من قائل بأنها انقلاب عسكرى لمصلحة أمريكا ولضرب الحركة الوطنية المصرية التى فشل النظامان الملكى والحزبى فى احتوائها ، ومن قائل بأنهم شبان وطنيون وللضباط الشبان فى الجيش المصرى سوابق فى التحرك فى اللحظات الحاسمة ، ومن قائل أنهم مجرد عسكريين استطاعوا أن يصلوا إلى الحكم وسوف يحكمون ولا شىء أكثر من ذلك .

وبالنسبة لى ، كنت شديد الحماس لأحداث هذه الأيام الأربعة . فمهما كان الأمر فإن أسوار القصر العالية التى أقامـها الانجليز منذ دخولهم

مصر حول الخديو توفيق تتهدم والذين يهدمونها مهما كان لونهم فقد حققوا عملا عجزت الحركة الوطنية المصرية بكل احزابها عن تحقيقه لا في أربعة أيام ولكن فيما يقرب من ثلاثين سنة أي منذ آخر ثورة وهي ثورة ١٩١٩ .

ولكن ظهور اسم أنور السادات على النحو الذي ظهر به في هذه الأيام الأربعة كان يزعجني ويثير مخاوفي ويجعلني اطرح اسئلة كثيرة .

فاسم أنور السادات معروف للناس قبل ذلك بعشر سنوات تقريبا . وكان اسمه يظهر في ملابسات تثير الشك والارتياب ، فأول مرة سمعنا اسمه كان في حادث عوامة الراقصة حكمت فهمي حيث ضبط يساعد ضباطا ألمانا نازيين تسللوا إلى القاهرة وجيوش رومل تقتحم الحدود المصرية ، وكان مألوفا في تلك الأيام أن نرى شبابا وطنيا يهتف ترحيبا بالألمان كراهية في الانجليز .

وقد كنت في تلك الفترة ضد هذا الاندفاع لأنهم لا يدركون معنى انتصار النظم النازية والفاشستية وأنها أعنف وأسوأ نظم الحكم وأكثرها قسوة على مستعمراتها ..

وظهور ضابط مصري وليس تلميذا في المدارس والجامعات في موقع الاتصال بجيوش الألمان معناه في أحسن الاحوال أنه مؤمن بالمبادىء النازية ، وانه فاشستي التكوين وبالتالي فهناك احتمال كبير أن يكون الضباط الآخرون الذين لانعرفهم بعد من نفس نمط تفكيره .

وظهر اسم أنور السادات بعد ذلك مرة ثانية باشتراكه في محاولة اغتيال أمين عثمان باشا وزير مالية الوفد ورجل الانجليز الأول والذي أصبح همزة الوصل بين قيادة الوفد وبين الانجليز ، واغتيال مجموعة من الشباب ـ حسين توفيق وزملائه ومنهم من كان عمره نحو خمس عشرة سنة فقط كوزير الخارجية اللاحق محمد إبراهيم كامل ـ لعميل الاستعمار امر وارد وغير مستغرب منهم كما يحدث في أي مكان في العالم .

ولكن وجود أنور السادات بينهم ضابطا في الجيش واكبر منهم سنا وليس من (شلتهم) كان مدعاة للاستغراب . وحين تطورت القضية وأصبح معروفا أن الملك فاروق يحاول أن يساعد هؤلاء ، نكاية في حزب الوفد الذي جاء إلى الحكم في الحرب رغم أنفه ، وقعت على هذا العمل شبهات كثيرة خصوصا ما حدث بسهولة شديدة من تمكن حسين توفيق الذي قتل امين عثمان بيده والمتهم الأول من الهرب من محكمة باب الخلق . ثم سرقة أوراق القضية كلها في أثناء المحاكمة في وسط الشارع ووضح النهار ثم تهريب حسين توفيق وزميل له من مصر إلى سوريا بنفس السهولة ، كان ينم عن وجود يد القصر في هذه الأحداث .

محاولة اغتيال النحاس : وبعد ذلك تردد اسم أنور السادات ـ همسا وليس رسميا كالمرات السابقة في حادث اغتيال مصطفى النحاس باشا في شارع قصر العيني بالمدافع والرشاشات ، ثم محاولة اغتياله مرة أخرى بنسف بيته في جاردن سيتي بواسطة سيارة لوري محملة بكميات كبيرة من المتفجرات (ثبت بعد ذلك بسنوات وبعد قيام الثورة أن السادات اشترك فعلا في الحادثين) .

وشاعت حكاية أن الملك فاروق قد كون « حرسا حديديا » يقوده الضابط وطبيبه الخاص يوسف رشاد لاغتيال أعداء الملك واصبحت على كل لسان وكان يذكر دائما اسم أنور السادات واسم مصطفى كمال صدقي كعضوين بارزين في الحرس الحديدي (وقد ثبت أيضا ان أنور السادات كان فعلا في الحرس الحديدي مع الضابط مصطفى كمال صدقي وحسن فهمي عبد المجيد الذي اصبح سفيرا لمصر في المغرب وكذا وخالد فوزي الذي أصبح سفيرا لمصر في البرازيل وغيرهم) .

هذه الملابسات كلها التي ظهر فيها اسم أنور السادات ، والذي ذهب فجر ٢٣ يوليو إلى مبنى الإذاعة ليلقي البيان الأول للثورة كان مثيرا للقلق وعلامات الاستفهام .. هل هو وزملاؤه من أصحاب الآراء الفاشستية ؟ أم من الذين تراوحت علاقاتهم بالملك بين الولاء والعداء ؟ أم ضباط يناصبون الحزب الشعبي في مصر ـ وهو حزب الوفد ـ العداء ؟

كل هذه الملابسات كانت بالنسبة لي أكبر علامة استفهام في تلك الأيام الأولى من الثورة .

وعندما عُرف بعد ذلك أسماء أعضاء مجلس قيادة الثورة وعُرف أن مدير الثورة وقائدها اسمه جمال عبد الناصر ، وقبل أن نعرف عنهم أي شيء .

حدثني احسان عبد القدوس عن أنور السادات ، وعلاقته به قبل الثورة ، وانهما صديقان ، وبدأ أنور السادات يأتي أحيانا إلى مجلة روز اليوسف في مبناها القديم ليجلس ساعات مع احسان ، وكان بشوشا يقهقه بضحكة عالية ويقدمه احسان لمن يتصادف أن يكون موجودا ولكن كنت أتصرف بنفور من التعرف عليه مفضلا أن أبقى بعيدا عن زعماء المؤسسة العسكرية الذين لم تتضح لنا أهدافهم بعد ، خصوصا بالنسبة لواحد منهم اقترن في ذهني بالاتصال بالألمان النازيين والاشتراك في محاولة اغتيال مصطفى النحاس زعيم الحركة الوطنية الشعبية في ذلك الوقت . كان هذا في أوائل الخمسينيات ..

وفي سنة ١٩٥٧ كانت هناك امور كثيرة قد اتضحت من فكر وأهداف مجلس قيادة الثورة سواء الغاء الالقاب او التحول الى النظام الجمهوري أو اعادة توزيع الارض الزراعية أو حضور جمال عبد الناصر مؤتمر باندونج بوصفه احد زعماء

ومؤسسي حركة عدم الانحياز . وكان الحدث الاكبر طبعا هو تاميم قناة السويس وما ادت اليه من حرب ١٩٥٦ وصمود جمال عبد الناصر وزملائه وانتصار مصر وانسحاب الانجليز نهائيا بعد اكثر من سبعين سنة من الاحتلال . وفى سنة ١٩٥٧ على ما أرجح دق جرس تليفونى بالمنزل وكان المتحدث أنور السادات وقال لى أن جمال عبد الناصر قرر تكوين لجنة مصرية للتضامن الأسيوى الافريقى تساهم باسم مصر فى هذه الحركة الشعبية الواسعة فى أسيا وافريقيا ، وانه تقرر أن يكون أنور السادات رئيسا للجنة ويوسف السباعى سكرتيرا لها وسرد علىّ نحو ١٢ اسماهم اعضاء اللجنة وأنا منهم وأخطرني بموعد ومكان الاجتماع الاول . وبعد ان شكرته وقبل ان يضع السماعة قال لى على فكرة أحب أن أقول لك أن الرئيس جمال عبد الناصر هو الذى وضع اسمك شخصيا بين أعضاء اللجنة كما وضع اسم نجيب محفوظ . قالها بلهجة توحي بأنه يظن أننى اعرف جمال عبد الناصر شخصيا وهو امر غير صحيح .

وبدأت اللجنة المصرية للتضامن الأسيوى الافريقى تجتمع وتبحث كل أمور تكوين اللجنة ونشاطاتها فى المقر الذى اختير لها وكان فيلا على شاطيء النيل فى منطقة المنيل وهو المكان الذى مازالت تشغله حتى الآن ..

كان أنور السادات يدير جلساتنا ومناقشاتنا بلباقة وصبر ، ولم يكن يحاول أن يفرض أى رأى أو أن يوحى أنه موجود كممثل للسلطة وقد شعرت مع تعاقب الجلسات أنه يميزنى بمعاملة خاصة ، فيقترح ان اكلف بكتابة الوثائق أو أن أقوم بهذا العمل أو ذاك .

وفى سنة ١٩٥٩ استقلت أول دولة فى افريقيا السوداء وهى غانا تحت زعامة الرئيس كوامى نكروما ..

وصدر قرار من عبد الناصر بتكوين لجنة لكى تذهب الى أكرا لنقل تهنئة مصر إلى نكروما وحضور أول مؤتمر أفريقى يعقد فى قلب افريقيا ويحضره كل زعماء حركات التحرر فيها ..

وقد شكل الوفد من أنور السادات رئيسا ومن الوزير المرحوم محمد فؤاد جلال ووزير الصحة الدكتور عبده سلام ومنى .

وفى المطار عرفنى أنور السادات الى مدير مكتبه ومرافقه المسافر معنا فوزى عبد الحافظ وهو الذى ظل مديرا لمكتبه حتى يوم اغتياله بعد ذلك بـ ٢٤ عاما ، وكان فوزى عبد الحافظ هو الوحيد ممن كانوا فى المنصة والتى

بنفسه فوق أنور السادات في محاولة لحمايته واخترقت جسده نحو ثماني عشرة رصاصة ولكن كتب له برغم ذلك العلاج والشفاء ..

والسفر يرفع الكثير من التكليف بين رفاق الرحلة وكان الطريق الى غانا طويلا والطائرات النفاثة لم تعرف بعد وكان لابد أن تذهب من القاهرة الى باريس ومن باريس الى داكار ثم الى اكرا بعد نحو ست عشرة ساعة من الطيران والانتظار في المطارات ..

وبعد سنة من هذه الرحلة تقريبا استقلت أول دولة من أفريقيا الفرنسية وهي غينيا وارسلنا ـ نفس الاسماء السابقة ـ لتهنئة سيكوتوري وحضور مؤتمر حزبه في كوناكري .

وقد أضيف الينا الاستاذ راتب الحسامي وكيل مجلس الشعب المصري السوري والأستاذ سامي الدروبي المؤلف والمترجم المعروف وأحد أقطاب حزب البعث وكان ذلك بعد قيام الوحدة بين مصر وسوريا .

كانت الرحلتان متشابهتين بوجه عام ولكن السادات ـ وهو موضوع هذا الحديث ـ كان حريصا على دعوتي الى ابداء رأيي في كل موقف ونحن نواجه عالم أفريقي جديد ونتعرف على (توم بويا) الذي كان ينوب عن جومو كينياتا المسجون في قيادة حركة الماو ماو في كينيا ، وكازا فوبو لومومبا من الكنغو وجوشوا نكومو من روديسيا (زيمبابوي حاليا) كان معظمهم مطاردين بلا مال أو سلاح ومنهم من جاء سائرا على اقدامه وقد أصبح معظمهم بعد ذلك رؤساء دول في افريقيا وكانت مصر هي أول وأهم من مدهم بالمساعدات في المال والسلاح والتأييد السياسي .

وفي رحلات الطائرة الطويلة كان أنور السادات يدعوني دائما تقريبا إلى الجلوس في المقعد المجاور له ، نتحدث في كل الشئون السياسية والعامة وما يتصل بالثورة المصرية ومشاكل مصر ولا أستطيع أن أتذكر من هذه الأحاديث الطويلة الا جملتين اثنتين علقتا بذهني :

الاولى : ونحن عائدون الى باريس ثم يتفرق كل منا الى مكان وسألته اين ستذهب بعد باريس الى القاهرة رأسا ؟ فرد عليّ قائلا : كلا أريد أن أذهب الى مكان لا اسمع كلمات الاستعمار والامبريالية وما إلى ذلك أنا ذاهب الى النمسا فهي أجمل مكان في العالم وأحب مكان الى قلبي .

وبعد أن صار أنور السادات رئيسا وصارت فيينا محطة له في كل رحلة تقريبا للقاء برونو كرايسكي . كنت أسأل نفسي هل ، برونو كرايسكي هو الذي خلق لنفسه هذا الدور أم أن حب أنور السادات للنمسا هو الذي وضع برونو كرايسكي على خريطة سياسة الشرق الاوسط ؟ ه

والجملة الثانية : التي أذكرها من أحاديث الطائرات في تلك الفترة ، أنه كان يروى لي ذكريات ووقائع عن أحداث ثورة ٢٣ يوليو في بدايتها . وحدثني عن اجتماعات مجلس قيادة الثورة حين تولى الحكم والتي كانت تمتد من العصر الى الصباح الباكر في مناقشات ومنازعات على كل شيء وأخذ الرأى على كل قرار بالتصويت والأغلبية والأقلية

ثم قال لى « أنا شخصيا لم أحتمل هذه الاجتماعات طويلا وكتبت ورقة أعطى بها صوتى لجمال عبد الناصر فى أى موضوع يطرح ، وقلت لهم أننى لن أحضر بعد ذلك » ثم أستطرد قائلا « جمال عبد الناصر هو قائد الثورة ومديرها وعقلها بلا منازع فقيما هذا الجدل العقيم بالعشر ساعات احيانا ؟ هل حدث في التاريخ أن قامت ثورة بأخذ أصوات الأغلبية والأقلية ؟ الثورة دائما مهما تعدد اقطابها لها زعيم واحد والتحديات والقرارات الحاسمة التى تواجه الثورة تحتاج الى رد فعل سريع من رجل واحد وليس بقضاء الأسابيع والشهور فى مناقشات وأخذ الأصوات بالأقلية والأغلبية » .

وكان يهاجم أعضاء مجلس الثورة ويتهمهم بالتطلعات الشخصية .. كانت أحاديثه معى على أية حال فى تلك الفترة حافلة بالثناء على شخص جمال عبد الناصر والاستشهاد بأقواله ومواقفه ، والهجوم على أعضاء مجلس الثورة الاخرين الذين اختلفوا مع جمال عبد الناصر .

كان يقول من حين لآخر خلال هذه الرحلات الأربع ذهابا وايابا .. كل واحد يريد أن يحكم وكلها أطماع شخصية .. أنا لم أختلف مع جمال عبد الناصر أبدا لأننى الوحيد الذى لا يريد شيئا . لقد اشتغلت بالسياسة قبل الثورة بعكسهم جميعا وعرفت الأحزاب ومارست العمل السرى والعلنى ، وحوكمت وسجنت وطردت من الجيش ، أما الآن فقد حققت الثورة ما كنا نكافح من أجله فأننى لا أريد اكثر من أن أكون مستريحا والا أقوم الا بما يطلب منى فقط .

وقد تلت ذلك مرحلة أخرى كان أنور السادات فيها رئيسا لمجلس الشعب ويسكن فى فيلا فى شارع الهرم ، غير بعيدة عن منزلى فى الدقى وكان كثيرا ما يطلب منى الحضور اليه ، فأذهب واجده جالسا تحت نفس الشجرة فى الحديقة ونظل نتكلم ونتناقش ساعات طويلة ، وهى الفيلا التى انتقل اليها بعد الثورة من شقته السابقة فى المنيل ، وكانت لها حديقة كبيرة وفيها جاموسة يشرب من لبنها وكان يقول دائما أنه يحب أن يشعر حتى وهو فى القاهرة بأنه فى قريته فى الريف ..

كانت الوحدة بين مصر وسوريا قد أعلنت ، وكنا جميعا في نشوة الفرح بالحلم الذي تحقق ، وكان فندق شبرد يموج بزعماء سوريا ووزرائها وبشتى الزعامات العربية التي جاءت الى عاصمة دولة الوحدة من مختلف انحاء البلاد العربية ، يشاركون في جو الابتهاج ، ويتناقشون في قاعة شبرد الواسعة أو في حجراتهم حتى الصباح في آمال مابعد الوحدة بالنسبة لمصر وسوريا وسائر البلاد العربية .

وكنت من أكبر المتحمسين لقضايا الوحدة والعروبة . وكنت أسافر إلى دمشق كثيرا في السنتين اللتين سبقتا الوحدة أراقب البذرة تنمو بسرعة ، وعرفت معظم الزعماء السوريين معرفة حميمة خصوصا الرجال الثلاثة مؤسسي حزب البعث وهم : المرحوم صلاح الدين البيطار الذي كان وزير خارجية سوريا الذي قام بالدور الأكبر في الاتصالات التي سبقت الوحدة وكان له دور كبير في اقناع عبدالناصر بقبولها ، وقد قتل بعد ذلك بأكثر من ثلاثين سنة وهو في باريس محكوم عليه بالاعدام في بلده ويصدر جريدة وحدوية صغيرة ، وأكرم الحوراني آخر رئيس لمجلس الشعب السوري الذي أقر الوحدة ، وأهم وأخطر زعماء سوريا ماقبل الوحدة ، والأستاذ ميشيل عفلق الذي كان فيلسوف الحزب ومفكره ، وكان أنور السادات يعرف بالطبع من لقاءاتنا في حديقة بيته معرفتي الخاصة بسوريا وبغيرها من البلاد العربية ورجالها وتياراتها الظاهرة والخفية .

وكنت ذات ليلة موجودا في فندق شبرد بالشكل الذي وصفته عندما نودي عليّ في الميكروفون لكي أذهب لتلقي مكالمة تليفونية كان الذي يطلبني هو أنور السادات الذي اقترح عليّ - إن لم أكن مشغولا - الذهاب إليه في منزله .

في ذلك الوقت كانت الثورة تحاول عبثا إقامة تنظيم شعبي جماهيري لها فأسست هيئة التحرير ثم حلتها وأسست الاتحاد القومي في محاولات غير ناجحة لملء الشارع السياسي . فالعسكريون بطبيعتهم أبعد مايكونون بحكم التربية العسكرية عن التنظيمات الجماهيرية . وكان جمال عبدالناصر قد جعل كمال الدين حسين رئيسا للاتحاد القومي ثم اختار له حسين الشافعي مؤقتا ثم اختار له أنور السادات بصفة مؤقتة ايضا ، إذ كان منصبه كما ذكرت رئيس مجلس الأمة .

ودخلت إلى حديقة بيت أنور السادات وهو جالس على مقعده المفضل وجلست على مقعدي المألوف وسألني السادات بطريقة عفوية وكأنه لايهتم كثيرا بما يسأل عنه - وقد كان يتقن هذا الأسلوب كثيرا ، حتى لاينتبه محدثه في غمرة التفاصيل إلى مايهمه من الحديث - عن الأخبار والاشاعات التي تخرج من فندق شبرد وتملأ القاهرة . وأخذت أسرد له مافي ذاكرتي من أحاديث ومقابلات وشخصيات ونوادر ، وفجأة - وكان حديثي

قد ابتعد عما يهمه ـ سألني : وإشاعة أن صلاح البيطار سوف يكون أمينا عاما للاتحاد القومي في مصر وسوريا ؟ الم تسمعها ؟

قلت له

لا لم أسمع هذا الخبر أو الاشاعة ، ولكنها فى رأيى فكرة عظيمة ، الغريب أنها لم تخطر على بالي قط ؟ فسألنى : وماوجه العظمة فيها ؟ فقلت له : القيادة في مصر صارت لها خبرة في إدارة الدولة والسياسة الخارجية وتطوير المجتمع من خلال القنوات الحكومية ، ولكننا نشكو دائما من عدم خبرتنا في تكوين تنظيم شعبى ناجح رغم شعبية الثورة . ورجل مثل صلاح البيطار بنزاهته وتجرده ودوره الخاص فى الوحدة يتميز بخبرته الطويلة فى العمل الحزبى والتنظيمات الشعبية .

وعدت أكرر له : والله إنها فكرة عظيمة .

ولأول مرة أرى أنور السادات لايكتم غضبه وثورته ، مع أنه فى العادة قادر تماما على ذلك وقال لى :

تقول لى أنك لم تسمع الخبر أو الاشاعة وانت تترافع عنه على هذا النحو ؟ ماذا يظن هؤلاء السوريون وخصوصا البعثيين منهم ؟ أنهم يتصورون أنهم سيحكمون مصر ويعلموننا السياسة ؟ ألم تسمعهم يرشحون « صلاح البيطار » نفسه وزيرا لخارجية دولة الوحدة بدلا من محمود فوزى ؟ ألم تسمع أنهم يريدون تشكيل مجلس ثورة مشترك مصرى سورى مننا ومنهم ؟ ألم يكفهم أن أكرم الحورانى أصبح نائبا لرئيس جمهورية الوحدة ؟ إننى أرى أن عواطفك وعلاقاتك العربية قد طغت على عقلك ؟ أننى أقول دائما إنك أكثر من رأيت قدرة على تحكيم العقل المجرد ، وانا بصراحة لا أصدق أنك لم تسمع هذا الخبر أو هذه الاشاعة كما تقول .

ووجدت أن ثورة أنور السادات أكبر من الموضوع الذى كنا نتحدث فيه ، وانتبهت فجأة الى انه كان يرأس الاتحاد القومي مؤقتا وبالتالى لابد أنه كان يطمح إلى أن يكون رئيس الاتحاد القومى المصرى السورى حيث أنه سيكون رئيس مجلس الأمة المصرى والسورى . وانتبهت لأول مرة إلى أن هذا الرجل القادر على الهدوء والصمت ، وابداء عدم الاهتمام والرغبة عن أى منصب ، له وجه آخر فى باطنه ... أنه مثل الجميع له طموحات سياسية ولكنه يحاول تحقيقها بصبر وهدوء وباظهار الزهد فيها .

وقد تركت أنور السادات ليلتها متوقعا ألا يعود إلى الاتصال بى لكننى تبينت بعد فترة قليلة أنه تصرف معى كما كان دائما وكأن هذا الحوار لم يقع على الاطلاق .

ومضت السنوات وعلاقاتى مع السادات رتيبة . أراه كلما طلبنى فى أوقات غير متقاربة . نتحدث ـ أو بالأحرى أتحدث أنا ـ بصراحة كاملة عن كافة الأمور العامة مهما كانت دقتها . ذلك أن السادات كان من عادته فى ذلك الوقت ان يستمع أكثر مما يتحدث . وهو بالتأكيد ممن يحسنون

الاستماع وعدم اظهار مشاعرهم او النطق الا بمايريد ان يقوله فقط ، ولذلك عندما صار رئيسا للجمهورية ، وكان بعض أهل السلطة يبدون دهشتهم وأحيانا استنكارهم من مصارحتي الكاملة للسادات ، كنت أقول لهم ، إن السادات يعرف آرائي بالتفصيل في كل الأمور والسياسات والاتجاهات جيدا . ولو قلت له أي شيء يخالف معتقداتي المدونة لديه ، لنزلت من عينيه ، ولم يصدقني ! فالأحسن أن يكرهني إذا شاء ويعتبرني صادقا !

كذلك توثقت علاقات بين حرمه السيدة جيهان السادات وزوجتي وعدة زوجات لبعض السفراء العرب في مصر ، يتقابلن ويخرجن ويذهبن لسماع حفلات أم كلثوم بانتظام معا .

شيء واحد ، توقعت انه قد ترك في نفس السادات أثرا سلبيا نحوي .

فبعد هزيمة ١٩٦٧ ، وكنت نقيبا للصحفيين ، ارتفعت أصوات النقد في الصحف المصرية ، الأمر الذي انتهى بصدور قرار من جمال عبدالناصر بفرض الرقابة على الصحف . وكان ممن تعرضوا للهجوم في الصحف محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام ، وانفرد الأهرام بنشر عدد من أهم الأخبار . واتصل بي بعض الزملاء من أعضاء مجلس النقابة من العاملين في الصحف الأخرى ـ خصوصا الزميل سعيد سنبل رئيس تحرير الأخبار حاليا ـ ناقلا تذمر الصحف الأخرى من هذا التمييز ..

وقلت للزملاء : إذا كنتم تريدون أن نجتمع في مجلس النقابة ونهاجم هيكل فأنا غير مستعد لذلك . فلو أن واحدا منا في مكان هيكل وحصل على مايحصل عليه من أخبار ، لما وزعها على سائر الصحف . أما اذا كنتم مستعدين لان نتجه بالاحتجاج إلى الرئيس جمال عبدالناصر الذي يخص بهذه الأخبار الكبرى صحيفة دون أخرى ، فأنا مستعد .

هكذا ، جمعت مجلس نقابة الصحفيين مرتين :

مرة : عرضنا فيها احتجاجا مكتوبا إلى الرئيس جمال عبدالناصر على فرض الرقابة على الصحف . واستشهدنا بأن مصر خاضت حرب ١٩٥٦ دون رقابة مفروضة على الصحف .. إلى آخره .

ومرة أخرى : كتبنا فيها مذكرة أخرى مرفوعة إلى الرئيس عبدالناصر ، نسجل فيها رأى النقابة في أن هناك نوعا من الأخبار يجوز فيه السبق الصحفي وانفراد صحيفة دون غيرها . ولكن هناك نوعا آخر من الأخبار ، يتعلق بالمصالح القومية العليا في هذه الظروف الحساسة . وأذكر أني كتبت في المذكرة أيضا (وهي محفوظة في سجلات نقابة الصحفيين) أن رئيس الدولة إذ يخص بهذه الأخبار جريدة دون أخرى فكأنما هو يميز بين المواطنين الذين يقرءون هذه الجريدة أو غيرها .

وتسلم مني المذكرتين ـ كل واحدة في مناسبتها ـ السيد عبدالمحسن أبوالنور الذي كان قائما بعمل أمين عام الاتحاد الاشتراكي . وكان يتصل

بى بعد كل مرة ويقول إن الرئيس عبد الناصر قرأ المذكرة . وهو يوافق على مافيها ولكنها ظروف طارئة يرجو أن تتغير بسرعة .

وتصاعدت حملة الصحف على هيكل والامتيازات التي تنفرد بها الأهرام فى مجالات اخرى كاستخدام لمواردها من العملات الصعبة وسهولة استيرادها المعدات ، إلى آخره . وقرر عبدالناصر : أن يعتبر على صبرى مشرفا على جريدة الجمهورية ، والسادات مشرفا على مؤسسة أخبار اليوم ومؤسسة دار الهلال ، بمعنى أن توجه كل مؤسسة اليهما كل مشاكلها بسرعة لتحل بسرعة بدون تعقيدات الروتين وإزالة الشكوى من الأهرام .

واتصل بى يوما السادات ، وأبلغنى بذلك ، وانه منذ الآن قد خصصت له دار أخبار اليوم مكتبا سوف يتردد عليه .وقال لى انه يرجو أن أدبر له مكتبا فى دار الهلال التى أرأسها لكى يتردد عليه ونعرض عليه مشاكلنا .

ووجدت فى ذلك تفسيرا لقرار عبدالناصر غير ما فهمته ، فمعنى تجهيز مكتب هو الاشراف على المؤسسة . ووجود أنور السادات فى المؤسسة سيلغى وجودى اتوماتيكيا ، وتستغل العناصر اياها وجود سلطتين .

واجبت أنور السادات بسرعة : مكتبى تحت أمرك ! وهو الوحيد اللائق بك فى دار الهلال !

وقال لى السادات : مش معقول يا أحمد ! أنت بذلك لا تريدنى فى دار الهلال .

قلت له : سيادتك تعلم اننى كثيرا ما وسطتك لدى الرئيس عبدالناصر لكى يعفينى رئاسة مجلس إدارة دار الهلال وأن يجعلنى مشرفا على تحرير مجلاتها فقط . وتذكر انه عندما رفض ذلك اكثر من مرة بحثت عن وظيفة فى اليونسكو ووجدتها وكنت على وشك الحصول على أجازة سنتين أعيشهما فى باريس ، فرارا من مشاكل الادارة . [وكان أيضا بسبب تعثر الأوضاع الداخلية سنة ١٩٦٥ ومابعدها] ، فلما وقعت الحرب عدلت عن المشروع .

كان هذا كله صحيحا وكان السادات يعرفه . ولكنه لم يدعمنى واسترسلت فى الأمر فقاطعنى قائلا :

- طيب ، أجل حكاية المكتب دى ، لحد مانتقابل .

ولم يعد إلى هذا الحديث معى بعد ذلك قط ، لم يدخل دار الهلال أبدا ، واكتفى بالمكتب الذى أعدته له اخبار اليوم وكان يذهب إليه كل جمعة . .

وتصورت بعدها حين رأيت اهتمامه بالذهاب إلى مكتب أخبار اليوم واتخاذ قرارات فيها ، ان مابدر منى لاشك قد ترك فى نفسه اثرا سلبيا .

القاهرة في ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٦٧ .

السيد الأمين العام المساعد للاتحاد الاشتراكي العربي .

بعد التحية ـ تلقى مجلس نقابة الصحفيين مذكرة من الاستاذ سعيد سنبل عضو المجلس ومدير تحرير جريدة اخبار اليوم وبرقية من الجماعة القيادية لمؤسسة دار التحرير ، تعرضان على المجلس موضوع (انفراد جريدة الأهرام دون سائر الصحف بنشر الاخبار ذات الطابع القومي) وما يترتب على ذلك من آثار بالنسبة للرأي العام وبالنسبة للمؤسسات الصحفية الاخرى .

. وقد ناقش المجلس هذا الموضوع ، وفوضني أعضاء مجلس النقابة في ان انقل الى سيادتكم الملاحظات التالية بعد ان تداولوا فيها .

١ ـ ان الاخبار ذات الطابع القومي الهام ، كخبر محاولة بعض القادة السابقين استعادة مراكزهم في القوات المسلحة عن طريق القوة ، يفترض فيها ان تكون حقا للرأي العام كله وبالتالي لكل قراء الصحف فلا ينفرد بها قراء صحيفة دون اخرى .

٢ ـ ان تكرار تخصيص صحيفة واحدة بهذه الانباء الخطيرة دون سائر الصحف ينعكس على اوضاع المؤسسات الصحفية من عدة نواح . فهو من جهة يسيء الى الحالة النفسية لمحرري سائر الصحف اذ يرون انفسهم محرومين من المشاركة في النشاط الصحفي على نفس المستوى ، ويسيء ثانيا الى حالة سائر الصحف من حيث انه يهبط بتوزيعها ويصرف القراء عنها ، ومن حيث انه يهبط بموارد اعلاناتها بناء على احساس المعلن بهبوط توزيع هذه الصحف وبعدم أهميتها ، ومن حيث انه لا يضع سائر محرري الصحف في شتى المستويات على قدم المساواة اذ يجعل شتى مصادر الاخبار تتجه الى ان تخص جريدة دون غيرها .

٣ ـ ان هذا الاثر قد تعدى المحررين الى سائر العاملين في شتى المؤسسات الصحفية الاخرى من عمال وموظفين ، ازاء تأثر ميزانيات صحفهم المستمر وعجزها عن تحقيق الارباح التى تسمح لها بالتوسع والمنافسة ومكافأة العاملين .

ومجلس النقابة يعرض على سيادتكم هذا الموضوع لابداء الرأي فيه ورفعه الى الجهات المسئولة .

السيد الأمين العام المساعد للاتحاد الاشتراكي العربي

بعد التحية ـ ناقش مجلس نقابة الصحفيين في اجتماعه الاخير بناء على طلب عدد من الزملاء موضوع الرقابة التي فرضت اخيرا على الصحف .

وقد رأى المجلس ان يرفع الى الاتحاد الاشتراكي ملاحظاته حول هذا الموضوع ويمكن اجمالها في الآتي :

١ ـ ان الصحافة قد عاشت سنوات طويلة منذ نقل ملكيتها الى الاتحاد الاشتراكي حرة من الرقابة ، ولم يؤخذ عليها اي انحراف اساسي ، فيما عدا اخطاء متناثرة تقع في وجود الرقابة وفي غير وجودها .

٢ ـ ان المسئولين عن المؤسسات الصحفية مسئولون سياسيون قبل كل شيء . وقد اختارهم الاتحاد الاشتراكي بوصفه ممثل السلطة الشعبية وهو يملك محاسبتهم وتغييرهم ، وهم بالتالي اقدر على حمل مسئولية الخط السياسي الوطني والاشتراكي في اي مرحلة .

٣ ـ أن وجود رقيب غير مدرب ولا صلة له مسبقا بالعمل الصحفي ، اذ ينتدب عادة من بين موظفي الحكومة ، يعرقل العمل ، وهو نوع من العلاقة السلبية بين القيادة السياسية وبين الصحف . في حين انه خير من ذلك ان تقوم علاقة ايجابية عن طريق اتصال مستمر بين المسئولين وبين رؤساء تحرير الصحف .

والمجلس يرجو ان يتبنى الاتحاد الاشتراكي هذه القضية ، للنظر في رفع الرقابة على الصحف في أقرب فرصة ممكنة .

وتفضلوا سيادتكم بقبول خالص التحية

نقيب الصحفيين

احمد بهاء الدين

اخراجى من دار الهلال

تولى انور السادات منصب رئاسة الجمهورية بعد وفاة جمال عبد الناصر فى الظروف التى نعرفها جميعا .. وكنت وقتها رئيسا لمجلس ادارة دار الهلال . واكتفيت بأن ارسل له برقية تهنئة وتأييد بمناسبة انتخابه رئيسا للجمهورية . وكنت وقتها منتخباً رئيسا لاتحاد الصحفيين العرب ، وجاء الى القاهرة وفد من الصحفيين العرب من شتى الاقطار للتعزية فى وفاة الرئيس جمال عبد الناصر وتهنئة الرئيس السادات . وكان الرئيس السادات فى تلك الفترة الأولى يقيم فى قصر الطاهرة . وصحبت وفد الصحفيين العرب الى بيت جمال عبد الناصر حيث قمنا بتعزية السيدة قرينته . ثم ذهبنا الى قصر الطاهرة حيث قابلنا الرئيس السادات وقدمت له الصحفيين العرب وقدمنا له التهنئة والتأييد .

وذات يوم فى الاسابيع الأولى لرئاسته جاءنى زميلى فى دار الهلال الاستاذ رجاء النقاش الذى كان يرأس تحرير مجلة الهلال وكتاب الهلال وقال لى إن دار الهلال قد سبق ان طبعت فى سلسلة كتاب الهلال اربعة كتب بقلم انور السادات منها كتاب بعنوان « ياولدى هذا عمك جمال » وكتاب « قصة الثورة كاملة » وكتابان اخران يضمان مقالات انور السادات التى سبق أن كتبها فى جريدة الجمهورية ، واقترح رجاء النقاش أن نعيد طبع هذه الكتب فورا بمناسبة انتخاب انور السادات رئيسا ، لان هذه الكتب فى تلك الفترة لابد أن تلقى رواجا كبيرا .

وطلبت إلى رجاء النقاش ان يترك لى الكتب الاربعة لألقى عليها نظرة جديدة ، وبالفعل راجعت الكتب الاربعة التى سبق لى ــ طبعا ــ ان قرأتها من قبل فوجدت فيها مقالات كثيرة كتبها انور السادات فى ظروف مختلفة خصوصا خلال العدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦ عقب تأميم القناة ، وكانت مقالات تسب انجلترا وفرنسا سبا شديدا مقذعا ، واشياء اخرى من هذا النوع رأيت أنه من غير المناسب اعادة طبعها كما هى بعد خمسة عشر عاما ، وقد اصبح كاتبها رئيسا للدولة وفيها ما فيها من هجوم عنيف على انجلترا وفرنسا وامريكا .. الخ .

وبعد ايام قليلة دق جرس التليفون في منزلي ذات ليلة وكان المتكلم هو الرئيس الجديد انور السادات . وبعد تحية قصيرة عاتبني على انني لا أراه وقلت له : سيادتك تعرف شعوري ، وأنا اجد حرجا في الاتصال بك وأنت في دوامة عنيفة من المسئوليات والزوار من انحاء العالم واعتقد أن سيادتك سوف تطلبني اذا أردت مني اى شيء .

وقال السادات انه سمع اننا في دار الهلال سنعيد طباعة كتبه المذكورة وانني متردد . وهو لا يرى مانعا في اعادة نشر هذه الكتب . وقلت له : انني قرأت الكتب من جديد ، وأعطيته فكرة عن بعض ما فيها مما لايجوز إعادة نشره وقد اصبح رئيسا للدولة . ونحن في ظرف نحسن فيه علاقاتنا بالدول الاخرى.. ولذلك اتجه تفكيري الى ان نصدر كتابا واحدا ، يضم اهم مافي الكتب الاربعة وتستبعد منه ما لايجوز أعادة نشره ، ويكون كتابا كبيرا بعنوان « من كتابات انور السادات » .

وشكرني الرئيس السادات بحرارة على انني نبهته الى ذلك ووافق على الاقتراح الجديد . بل إنه أصبح بعدما قلته له اكثر حرصا مني ، وقال لي : عظيم ! وارى بعد ذلك ان تنتقي من الكتب ما تراه صالحا للنشر وان نراجعه معا ذات ليلة ، وسوف اتصل بك لهذا الغرض عندما اجد الوقت .

لم يكن فى هذا الحديث ما يلفت النظر ولكنني بعد أن وضعت سماعة التليفون تنبهت الى انه لم يمض على اقتراح طبع الكتب الا ايام قليلة وتعجبت كيف ياترى وصل الخبر بهذه السرعة من دار الهلال الى رئيس الجمهورية .

كنت اعرف أن السادات له أصدقاء في كثير من الصحف ، خصوصا في دار الهلال حيث عمل محررا لبضعة شهور حين كان ضابطا مطرودا من الجيش . ثم تذكرت فجأة ان له اختا هي السيدة سكينة السادات تعمل معنا فى دار الهلال ، إذن لابد ان يكون هذا هو مصدر معرفته السريعة بحكاية بسيطة .

وتذكرت ان السيدة سكينة السادات التى كانت على علاقة طيبة بي خلال عملي رئيسا لدار الهلال قد جاءتني في اليوم التالي مباشرة لاعلان انتخاب انور السادات رئيسا للجمهورية وقدمت لي طلبا أن أعينها مديرة لتحرير مجلة المصور وقلت لها وقتها بروح طيبة انني اعلم انه ، وقد اصبح اخوك رئيسا للجمهورية ، فمن طبائع الأمور أن ينعكس هذا على وضعك بصورة أو باخرى .. اقترح ان تتركي هذا لي في الوقت المناسب ولكن من المستحيل أن اعينك مديرة لتحرير مجلة المصور واتخطى الزملاء الاقدم منك والذين يرأسونك في العمل وانت بدون شهادة جامعية ، وأن يتم هذا في اليوم التالي لانتخاب أخيك رئيسا للجمهورية ودهشت حين وجدتها لاتقبل هذا المنطق البسيط وانما تجادلني طويلا في إلحاح على طلبها ، ووصلت الى حد البكاء متهمة اياي بأنني لم أنصفها ابدا . وطيبت خاطرها

وقلت لها تأكدي انني اعرف مصلحتك اكثر منك . وما تطالبين به يسيء الى انور السادات .

وجاءتني السيدة امينة السعيد يوما وهي ترتجف من الغضب وقالت لي إن تصرفات سكينة السادات صارت لاتطاق وإنها تجلس في اجتماعات التحرير بين اعضاء اسرة مجلة حواء وتقاطع المناقشة العادية اكثر من مرة وتقول : أبيه انور رأيه كذا وكيت .

واستدعيت السيدة سكينة السادات ورويت لها ما يتحدث به زملاؤها . وقلت لها : ابيه انور اسمه في دار الهلال الرئيس انور السادات ، والرئيس انور السادات لايرسل بتعليماته عن طريقك ، ولكنه اذا كان لديه تعليمات فانه سيبلغها للدار عن طريقي كرئيس لمجلس الادارة ، وانت تعرفين علاقتي بالرئيس واذا تكرر هذا منك فانني لن افعل الا أن اشكوك الى الرئيس شخصيا . وتوتر الموقف بيننا ذلك اليوم الى الدرجة التي جعلتني اقول لها : ارجو الا أراك في مكتبي هذا بعد الان ولا تضطريني الى ان اعطي تعليمات للسكرتارية بمنعك من الدخول فتخرج هذه الحكايات الى المؤسسة كلها .

وبعد بضعة اسابيع اتصل بي السيد ضياء الدين داود الذي كان في ذلك الوقت عضوا في اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي وطلب إلي ان امر عليه في مكتبه لامر هام .. وكانت هذه اول مرة اتعرف فيها شخصيا على السيد ضياء الدين داود ، وقدم لي خطابا مكتوبا على الآلة الكاتبة وعليه توقيع انور السادات بخط يده .. الخطاب الموجه للسيد ضياء الدين داود يقول ان الرئيس علم انني منحت اخته السيدة سكينة السادات علاوة قدرها أربعون جنيها في الشهر بدون مبرر ، وانه سمع انني فعلت هذا لأسيء الى الرئيس وأؤلب عليه العاملين في دار الهلال ثم يطلب الخطاب إلى السيد ضياء الدين داود ان يسألني في هذا الموضوع .

كان هذا الخطاب مفاجأة تامة بالنسبة لي لعدة اسباب :

فقد كنت متصورا ان العلاقة التي بين انور السادات وبيني تسمح بان يرفع التليفون ويسألني مباشرة أو يلومني على اى تصرف يصل الى سمعه دون حاجة إلى هذا الخطاب الرسمي الذى يكاد يكون طلبا للتحقيق معي . ثم ان الموضوع خاص بالسيدة اخته ، وبالتالي فمن السهل عليه ايضا ان يعرف الحقيقة من اخته بدلا من ان يكتب فيه خطابا رسميا الى عضو اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي ، ذلك ان ما جاء في خطاب السادات لم يكن له اى اساس من الصحة !

قلت ذلك للسيد ضياء الدين داود . وقلت له إنه في آخر حركة علاوات في دار الهلال نالت السيدة سكينة السادات الحد الأدنى من العلاوة وهو خمسة جنيهات . ولم تكن دهشته اقل من دهشتي . وكتب السيد ضياء الدين داود ذلك بخط يده على نفس الخطاب .

وعدت الى مكتبي وقد بدأت تتضح لي أمور كنت اتجاوزها بسرعة معتقدا ان علاقتي الشخصية السابقة بالرئيس السادات تحميني عنده من الوشايات الصغيرة والدسائس التي تملأ الحياة في الصحافة لأن تلك العلاقة تجعل الامر الطبيعي هو أن يتصل بي مباشرة في أي موضوع .

حزب في دار الهلال وكان قد تكوّن في دار الهلال « حزب صغير » رأى في تغيير رئاسة الدولة فرصة للوصول . وكان قادة هذا الحزب هم : الشاعر والاديب المرحوم صالح جودت والصحفي المرحوم ابراهيم البعثي والزميل الذي هاجر بعد ذلك الى كندا الاستاذ شريف فام والسيدة سكينة السادات .

شعرت على الفور انه قد اصبح بيني وبين السادات بحر واسع .. هل هذا ما تفعله السلطة وجماعات المنافقين بالعلاقات الوطيدة بهذه السرعة ؟

وبدأت انتبه وانا امارس عملي العادي في رئاسة تحرير المصور في مراجعة المقالات بعد ان تصبح « بروفات » الى اشياء اراها عادية واقوم بحذفها اذا كان فيها تجاوز ما .

وكان المرحوم صالح جودت يصف في مقالاته كل الكتاب الذين لا يحبهم بأنهم شيوعيون حمر ، بمن فيهم زملاء يكتبون معه في نفس مجلة المصور . واستدعيته يوما وقلت له : إنني إذا سمحت لك بأن تكتب على صفحات المجلة تتهم زملاءك بالشيوعية فلابد ان اسمح لهم بأن يردوا عليك ويقولوا لك : ياعميل ويسترجعوا اشعارك واغانيك في مدح فاروق وبالتالي فانا لن اسمح لا بهذا ولا بذاك ، وحرية الكتابة الموضوعية مطلقة .

حدث هذا من مدة طويلة واستقرت الامور على ذلك . ولكن بعد انتخاب انور السادات للرئاسة ، وبعد تلك القصص مع السيدة سكينة السادات لاحظت ان الاستاذ صالح جودت قد عاد الى مهاجمة الاتحاد السوفييتي بألفاظ وعبارات جارحة دون مناسبة ، في وقت كان انور السادات والحكم في مصر يسعى فيه الى عقد معاهدة مع الاتحاد السوفييتي ضمانا لاستمراره في امدادنا بالسلاح والمساعدات بعد هزيمة ١٩٦٧ . او يهاجم زميلا له كالدكتور علي الراعي ويتهمه بالشيوعية ، من خلال قصة لااساس لها من الصحة عن وقوفه مصفقا ومهللا للاتحاد السوفييتي في اجتماعات للادباء والكتاب حضرتها بنفسي ولم يحدث فيها شيء من ذلك .

تنبهت إلى أن هذه أمور جديدة والمقصود بها استفزازي او امتحان شجاعتي ، فبدأت احذف من « البروفات » هذا الكلام وعلى غير العادة لا اكتفي بالحذف ولكن اكتب على هامش « البروفة » حيثيات واسباب الحذف واوقع عليها بامضائي قبل أن اعيدها الى مدير التحرير المرحوم الاستاذ مرسي الشافعي ..

وقد ابدى لى دهشته مرة وسألنى لماذا اتجشم هذا العناء فى كتابة الحيثيات وقلت له : عندى شعور خفى بان هذه البروفات تذهب بعد ذلك الى بعض اجهزة الدولة وانا اريد ان يفهم الذين يفعلون ذلك عن رغبة فى الايقاع اننى مستعد لان اتحمل مسئولية تقديرى للامور .

مع هذا الجو فى دار الهلال كانت ازمة ١٥ مايو تتفاعل . والصراع بين انور السادات وخصومه فى اللجنة التنفيذية العليا يشتد ، والغريب اننى لم اكن اتابع باهتمام قصة هذا الخلاف متصورا اننى انأى بنفسى عن اى صراع على السلطة لا اعرف تماما مبرراته . حتى اتخذ هذا الموقف اى ذاك خصوصا واننى اختلفت اختلافا حادا مع الاتحاد الاشتراكى عندما كنت نقيبا للصحفيين ووقعت مظاهرات ١٩٦٨ ، قررت بعدها الابتعاد تماما عن كل الاجهزة السياسية فى مصر ، وتلك قصة طويلة اخرى . ووقع انقلاب ١٥ مايو ونجح انور السادات فى الايقاع بخصومه فى الوزارة واللجنة التنفيذية العليا ووضعهم فى السجن .

ومرة اخرى بدأ صالح جودت وغيره يكتبون ضد الذين وضعوا فى السجن (على صبرى وشعراوى جمعة ومحمد فائق والفريق محمد فوزى وغيرهم) يهاجمونهم بشتائم مقذعة وغير لائقة . ومرة اخرى بدأت أشطب اى كلام يتميز بفحش القول والهجوم الشخصى دون اى نقد موضوعى واكتب على هامش البروفات حيثيات الحذف واوقع عليها بامضائى والمرحوم مرسى الشافعى يضحك من تصورانى ويقول لى : لو نشرنا البروفات كما هى بالشطب والتعليق لارتفع توزيع المجلة .

وبعد فترة قصيرة امتلأ الجو الصحفى بأخبار عن التغييرات المقبلة فى المناصب والقيادات الصحفية . وكان من بينها اننى سوف انقل من رئاسة مجلس ادارة دار الهلال الى مؤسسة روزاليوسف وكانت روز اليوسف ، وقتها تعانى من مشاكل مالية فادحة ، فالداخل فيها مفقود والخارج منها مولود ، رغم انها مجلتى القديمة العزيزة التى بدات حياتى الصحفية الجدية فيها وقبل يومين من اعلان التغييرات جاءنى الزميل فوميل لبيب وقال لى انه متأكد من أن القرارات الجديدة سوف تشملنى واستطرد قائلا : اننى دهش من موقفك ، أنت تعرف الرئيس جيدا وتعرف اكثر المسئولين وأراك لاتحاول ان تفعل اى شىء ، وقلت له : « لاننى اعرف الرئيس السادات ولانه يعرفنى جيدا فاننى لن افعل اى شىء » ولم يحدث ان طرقت باب اى مسئول لأمر يتصل بشخصى .

وبعد يومين من هذا الحديث قرأت فى الصحف قرارات التغييرات الصحفية ومن بينها نقلى من دار الهلال وتعيينى رئيسا لمؤسسة روز اليوسف .

لو كان هذا القرار فى ظروف عادية ربما ما كنت اعترض ، وعلاقة

عاطفية خاصة تربطني بمجلة روز اليوسف ومجلة صباح الخير واسرتيهما ..

ولكن القرار بدا لي أنه اتخذ من منطلق العقاب ، والاستجابة الى الوشايات . واحزنني وادهشني ان تتراكم الوشايات عند الرئيس انور السادات دون ان يحاول مرة واحدة ان يسألني مباشرة .

قرأت هذه الأخبار في صحف الصباح واتصلت على الفور بوزير الاعلام في ذلك الوقت الدكتور عبد القادر حاتم واتفقت معه على ان اقابله في مكتبه بمبنى التليفزيون في الساعة الحادية عشرة .

وذهبت الى الدكتور حاتم وقلت له رأيي في هذا القرار وقلت له إنني جئت لاقدم له اعتذاري عن عدم قبول المنصب الجديد .

ودهش الدكتور عبد القادر حاتم ولكنه طبعا كان عارفا بكل التفاصيل التي كنت لا اعرفها بالضبط ولكني اشم رائحتها . وحاول الدكتور حاتم أن يقنعني بان عدم تنفيذ مثل هذا القرار هو بمثابة تمرد على ارادة رئيس الجمهورية ، وألح عليّ في أن يذهب معي الى دار روز اليوسف وأن نشرب فنجان قهوة هناك فقط ، ونخرج وبعد ذلك افعل ما اشاء فأكون قد نفذت رغبة الرئيس التي لم يحدث أن رفضها أحد .

وطال الجدل بيني وبين الدكتور حاتم وكنت اقول له «أنني لا أطالب باعادة النظر في القرار ولا أطالب باعطائي هذا المنصب او ذاك انني أستقيل فقط من منصب لا اريده . ولن احملك مسئوليتي . ولكنني سأذهب الى الصحف المختلفة مصرية وعربية وابحث لنفسي عن عمل فيها» واستمر الجدل بيننا ساعات وفي لحظة سحبت من على مكتبه ورقة وقلت له : إنني اعفيك من نقل هذه القصة للرئيس وساكتب أنا اليه بضعة سطور ليس عليك إلا ان تبعث بها اليه .

وكتبت على الورقة رسالة من سطور قليلة إلى الرئيس السادات . بدأت بابداء اسفي على أن يحدث ما حدث وان اقراه في الصحف دون علمي . وفي فقرة مازلت اذكرها بحروفها تقريبا كتبت «لقد اخترعت الثورة صحفيين وكتابا ودكاترة في كل مجال،ولكنني لست احد اختراعات الثورة».وقد كنت رئيسا لتحرير اكبر جريدة في مصر وهي اخبار اليوم ، واتقاضى اقصى حد للمرتب قبل تأميم الصحف بسنتين ، وقد نقلت إلى دار الهلال منفيا في حقيقة الأمر ، وبالتالي فان من حقي ان يؤخذ رأيي في أي امر يتصل بي شخصيا فلا اقراه في الصحف دون سابق علم ولا اتحرك كقطعة شطرنج من مكان إلى مكان وبلا رغبة»

هذا والدكتور حاتم يمنعني جسديا من ترك مكتبه ، حتى دق تليفون هام انهمك الدكتور حاتم في الرد عليه ، فتسللت من احد ابواب غرفته وخرجت .. وتوقعت ان يرسل خلفي احدا عند باب

المصعد ، وتنبهت الى ان السفير والصديق تحسين بشير يجلس في غرفة مكتب أمام المصعد تقريبا ففتحت بابه ودخلت وازاء دهشته قلت له : «انني مختبيء هنا حتى ينصرف الدكتور حاتم من مكتبه» .

في نفس اليوم كان قد اتصل بي مع قراءة الصحف الاستاذ محمد حسنين هيكل واتفقت معه على أن نتناول الغداء معا في كافيتيريا جريدة الاهرام . واخذ الاستاذ هيكل بالطبع يستجوبني عن خلفيات هذا القرار ويبدي دهشته من أنه لم يسمع به ولم يتصوره . وما هو السبب في تقديري ؟

ورويت له ما سبق بتفاصيل اكثر وقلت له : «اعتقد ان البروفات التي كنت احذف منها واكتب على هامشها لماذا حذفتها كانت تذهب إلى الرئيس أنور السادات» .

كما رويت له ما حدث مني في مكتب الدكتور عبد القادر حاتم وعند ترديدي لما قلته في مكتب الدكتور حاتم من انني سأستقيل فقط وهذا ليس اهانة لأحد ، وأني سأبحث لنفسي وبمعرفتي عن عمل ككاتب في الصحيفة التي تقبلني . وسألني الاستاذ هيكل على الفور : طيب هل تقبل ان تعمل في الأهرام ؟ وكان الاستاذ هيكل يعرض عليّ العمل في الأهرام من سنوات سابقة .. وكنت اعتذر فقلت له ضاحكا : هذه المرة ليس امامي إلا القبول .

وبعد يومين عرفت من الاستاذ هيكل انه اخذ سيارته في الصباح التالي لحديثنا وذهب الى الرئيس السادات في الاسكندرية وأنه وصل وقت الغداء فدعي الى المائدة مع الرئيس السادات وحرمه السيدة جيهان والفريق أحمد اسماعيل وزوجته .

وروى الاستاذ هيكل لي أنه سأل الرئيس السادات فورا عن هذا القرار وعن مبرراته وقال له الرئيس السادات : «انت تعرف مشاكل مؤسسة روز اليوسف واحمد بهاء الدين يعرفها اكثر من سواه ، ولم يخطر لي أن يكون هذا عقابا» .

وقال له الاستاذ هيكل : إن بهاء يعتقد غير ذلك ، ويعتقد ان هذا القرار له شكل العقاب لأسباب اخرى ، وسأل السادات : اي أسباب ؟ فقال له هيكل : بروفات دار الهلال التي كان يحذف منها ويكتب عليها تعليقا بامضائه .

وسكت السادات (مازالت الرواية للأستاذ هيكل) سكوت المدهوش من معرفتي بهذه الحقيقة وقال لهيكل : «لم اكن اتصور ان شخصا في حجم احمد بهاء الدين يتلقى تعليماته من ضياء الدين داود (كان السيد ضياء الدين داود من بين الذين اعتقلوا في ١٥ مايو ولم اكن قد رأيته إلا في المرة الوحيدة سالفة الذكر) . خصوصا وانني أعرف انه عنيد ولا يقبل توجيها من أحد» .

. وروى لى الاستاذ هيكل أن السيدة جيهان السادات والفريق احمد اسماعيل انطلقا يدافعان عني بحرارة : السيدة جيهان تبدى دهشتها من تصرف السادات مع صديق يعرفه جيدا دون سؤال ، والفريق احمد اسماعيل يقول له : إننا ندرس بعض مقالاته فى الكلية الحربية .

وقال السادات : طيب هل قال لك ماذا يريد وقد رفض كما علمت تنفيذ القرار ؟

قال هيكل له : لقد عرضت عليه العمل ككاتب فى الأهرام وهو عرض قديم فى الواقع وقد قبل فعلا هذا العرض .

وقال له السادات منهيا الحديث : خلاص .. زى ما انتو عاوزين !!

أزمة ١٩٧٢ والمنع الأول من الكتابة بدأت عملى فى جريدة الاهرام من اليوم التالى . ولم يعكر صفوى إلا أن بعض أجهزة الدولة - بناء على تعليمات بالطبع - حاولت تحريض عمال مطبعة روزاليوسف للاضراب والهتاف ضدى حتى يبدو عدم تنفيذ القرار وكأنه ليس اختــيارا منى ، ولكنه لأننى غير مقبول من العاملين فى دار روزاليوسف ... ولكن المحررين والمحررات والعمال غير المتصلين بالاجهزة واجهوا هؤلاء بالهتاف ضدهم ... وتهجم زعيم المظاهرات على زميلة من المحررات (السيدة فايزة سعد) فصممت على تقديم بلاغ ضده تتهمه بالسب العلنى وصممت على المضى فى هذا البلاغ حتى النهاية وشهد كل الحاضرين ضده فى المحكمة وحكم عليه بالعقوبة فعلا فيما بعد .

وبدأت بعد ذلك سنوات مضطربة فى مصر بتصاعد اضطرابات الطلبة والعمال سنتى ١٩٧١ ، ١٩٧٢ واتسع نطاقها بشكل لم يسبق له مثيل ، تلك كانت الفترة التى كان الرئيس السادات يخطب فيها باستمرار متحدثا عن المعركة ، مع شعور الناس بأنه لا يوجــد أى شــــىء يدل على الاستعداد لأى معركة . وفيها كانت السنة التى سماها الرئيس السادات «عام الحسم» فلما انتهى العام ألقى خطابا غير مقنع اشتهر باسم خطاب الضباب وقال فيه إن قيام الحرب بين الهند وباكستان هو الذى منع بدء المعركة عندنا . وتصادف أن سافر وفد من جريدة الأهرام على راسه الأستاذ محمد حسنين هيكل فى رحلة طويلة الى الصين .

بيان توفيق الحكيم وفى خلال تلك المظاهرات انتشرت دعوة بين عدد من الصحفيين لكتابة بيان باسم الكتاب والصحفيين .. ووافق الاستاذ توفيق الحكيم متحمسا على أن يتولى كتابة هذه الرسالة او هذا البيان ووقع عليه بالفعل ما يقرب من مائة صحفى .. وكانت فيه فقرة لم ينسها السادات

أبدا لتوفيق الحكيم بعد سنوات طويلة ، كما سمعت منه وهي فقرة تقول « لقد كثر الكلام عن المعركة دون معركة حتى صارت المعركة مضغة في حلوقنا لا نستطيع أن نبتلعها ولا نستطيع أن نلفظها » وكان الرئيس السادات بعد ذلك بسنوات طويلة إذا جاء ذكر تلك الايام قال لي :
هذا المخرف العجوز توفيق الحكيم الذي لا اعرف ماذا يعجبكم فيه ، أليس هو الذي قال إن المعركة مضغة لا نستطيع أن نبتلعها ولا نستطيع أن نلفظها ؟

وبعد إرسال هذه الرسالة وعليها حوالي مائة توقيع من الكتاب والصحفيين ، عاد هيكل من الرحلة ووجد الرئيس السادات في قمة الغضب ووجد انه قد استقر في ذهنه انني كنت المحرض الأول على هذه الرسالة ، وقد كنت بالطبع مؤيدا لها ، رغم انني لم اوقعها لمرضي بانفلونزا شديدة في ذلك الوقت .
وبدأت الصحف تنشر اسماء الذين وقعوا على الرسالة على دفعات مع قرارات بنقلهم من الصحف الى مصلحة الاستعلامات ولم يكن هذا في رأيي هو المهم ، ولكن الذي آلمني حقا ان الصحف كانت تنشر اسماء أبرز وألمع كتابنا مقرونة بصفات العملاء والخونة وما إلى ذلك من صفات .
ولم اكن من بينهم ولكنني ذهبت الى الاستاذ هيكل وقلت له من المستحيل ان يحدث هذا دون ان يصدر عنا اى صوت بالاحتجاج . وقال لي هيكل الا تعرف أن هناك رقابة على الصحف ؟ وأين الرقيب الذي سيسمح بنشر احتجاجاتك ؟
قلت له : انا لا اريد أن اتخذ موقفا بطوليا ويشطبه الرقيب ولكنني اريد ان اكتب مقالا عقلانيا وهادئا جدا ، فيه معنى الاحتجاج ولكن فيه اساسا فتح باب لتضميد الجراح .
وقال لي هيكل اكتب كما تريد وسترى رد فعل الرقيب .

شطب مقالي ونقلي للاستعلامات : كتبت مقالا بعنوان « محايد » وهو بدلا من « العنف المتبادل » وكنت مسافرا في الساعة الخامسة صباحا الى لندن لالقاء ثلاث محاضرات في كلية سانت انطوني بجامعة اكسفورد ولكن في الساعة الحادية عشرة ليلا وأنا احزم حقائبي دق الباب ووجدت هيكل واثنين أو ثلاثة من الزملاء وقال لي هيكل الخبر على دفعتين قال لي اولا ان المقال شطبه الرقيب .. وبعد قليل قال لي أنه صدر قرار من الرئيس بنقلي أنا ايضا الى مصلحة الاستعلامات .
كان رد فعلي الاول أنني اتصلت بالمطار لالغي سفري الى لندن ، مشاركة للمعاقبين المذنبين ...
وقلت : أنني لن اقوم بالاجراء الشكلي وهو التوقيع على اقرار بتسلمي العمل في مصلحة الاستعلامات وسأعتبر نفسي مفصولا .

وقد عرفت فيما بعد من الدكتور عبد القادر حاتم أن الرقيب قرأ له المقال على التليفون وأن الدكتور حاتم اتصل بالرئيس وقرأ له الفقرات الهامة في المقال فرد عليه الرئيس منفعلا : ألا يكفيه أنه هو المحرض على كتابة الرسالة وأنه لم ينقل الى الاستعلامات ؟ أشطب المقال كله .

وبعد خمس دقائق دق جرس تليفون عبد القادر حاتم وقال له الرئيس بنفس الصوت الغاضب : هل شطبت المقال ؟ طيب وانقله هو ايضا الى مصلحة الاستعلامات .

هكذا بدا وكأن كل المعرفة القديمة قد تحطمت على الصخور ولم يبق منها شيء منذ زيارتي للسادات عقب انتخابه مع الصحفيين العرب في قصر الطاهرة ، فلم اقابله قط منذ ذلك التاريخ .

ومرت شهور طويلة او ربما سنة وكنت في بغداد اشهد اجتماعا لاتحاد الصحفيين العرب عندما اذيع ان الرئيس السادات سيلقى خطابا هاما واجتمعنا - نحن المصريين - حول الراديو نستمع إلى الخطاب . وفوجئنا بالرئيس في خاتمة الخطاب يعلن انه عفا عن كل الصحفيين وقرر اعادتهم إلى صحفهم .

وفي الصباح التالي سافرت مع زوجتي الى بيروت في طريقنا إلى القاهرة وبعد يومين في بيروت اعلنت الاذاعات عن بدء حرب ٦ أكتوبر وعبور الجيش المصرى لقناة السويس .

وكان معنا الشاعر محمود درويش الذي يعرف العبرية جيدا ؛ فنجعله يستمع الى الاذاعة العبرية في اسرائيل فنجدها تقول كلاما آخر .

وفي جو هذا الارتباك كانت الطريقة الوحيدة للعودة الى القاهرة هي ركوب طائرة شركة طيران الشرق الأوسط المتجهة الى بنغازى ثم ركوب سيارة برا من بنغازى الى الاسكندرية فالقاهرة .

واضطررت الى أن اطلب إلى رئيس وزراء لبنان في ذلك الوقت الصديق الكبير الرئيس تقى الدين الصلح أن يوجد لنا - باى وسيلة - ثلاثة مقاعد على طائرة الغد : أنا وزوجتي والزميل الصحفي اللبناني فؤاد مطر . وبعد اربع وعشرين ساعة كنا في القاهرة ... وبعد أيام كان الجيش المصرى قد أحرز انتصاره المشهود .

● ● ●

أحدثت قرارات نقل هذا العدد من الكتاب والصحفيين الى الاستعلامات ضجة في الصحف الغربية جميعا وفي كثير من الصحف الاوروبية بالذات .

وكنت ـ كما ذكرت قبلا ليلة جاءني محمد حسنين هيكل الى البيت فجأة قبيل منتصف الليل يبلغني بهذا القرار ، استعد للسفر فجر اليوم التالى الى لندن ، اذ كنت مدعوا لالقاء ثلاث محاضرات فى كلية « سانت انطونى » فى جامعة اكسفورد وكان من رأى هيكل أن اقوم بالرحلة ، ولكنى قلت له أننى سأقابل بضجة كبرى هناك على ضوء ما نشر بالفعل من طرد الصحفيين ، وانني لن ارضي ضميري اذا سكت في مواجهة الاسئلة المتوقعة ولن أرضى ضميرى إذا رددت بحملة قاسية على السلطة المصرية وأنور السادات . ثم أنه من الأفضل البقاء تضامنا مع الأكثر من تسعين كاتبا وصحفيا مطرودين ويهاجمون في سمعتهم ووطنيتهم وشرفهم وكنا قد علمنا تفاصيل ما دار فيما سمي « بلجنة النظام » في الاتحاد الاشتراكي التى كانت ترسل لها الكشوف من الرئاسة لتصدر قرارات الطرد ، وكيف كانوا يتحدثون عن المطرودين ويقسمونهم الى فصائل وانواع سياسية وأخلاقية غريبة . حتى انهم لم يجدوا ما ينسبونه الى عدد كبير من الشبان الصحفيين الذين عملوا معي في فترات مختلفة فاختلقوا لهم الاتهامات ، كما روى لي عضو اللجنة الوزير الأسبق الدكتور احمد كمال ابو المجد فيما بعد ، وكان قد بذل أقصى جهده داخل اللجنة لتقويم هذا الأسلوب ولكن رئيس اللجنة محمد عثمان اسماعيل (محافظ اسيوط بعد ذلك ومن اقرب المقربين للسادات) كان ينهي كل جدل بأن هذه اوامر الرئيس شخصيا .

وكنت وقتها رئيسا منتخبا لاتحاد الصحفيين العرب ، وهو الاتحاد الذي يضم كل نقابات الصحفيين في البلاد العربية .. وطلبت نقابات عربية كثيرة عقد إجتماع طارىء للاتحاد لمناقشة هذه القرارات والتنديد بها والبحث في اجراءات تتخذ ضدها ... ووجدت انني ملزم بدعوة اللجنة التنفيذية للاتحاد الى الاجتماع الطارىء .

ولكنها لو انعقدت خارج القاهرة ـ كما طلبت النقابات العربية ـ فسوف تكون الحملة على مصر وعلى السادات قاسية جدا ولا يمكن أن نتوقع ما قد يصدر من قرارات في حالة انعقاد الجمعية العمومية بعد اللجنة التنفيذية . ففاجأتهم بتوجيه الدعوة للانعقاد في اخر مكان خطر على بالهم وهو القاهرة .

وفي الاجتماعات التي عقدت برئاستي ، وأنا أحد المفصولين ، في احدى قاعات فندق شيراتون الجيزة ، بذلت جهدا جبارا لاقناع النقباء العرب بعدم اتخاذ اى قرار وترك الامر للنقابة المصرية فترة من الزمن تحاول فيه حل الازمة بطريقتها ؛ لأن البلاد تمر فعلا بظروف حرجة ، فاذا فشلنا فسوف ندعوهم الى اجتماع جديد .. وكان موقفي هذا محل موافقة الاقلية من الصحفيين المصريين ومحل انتقاد أغلبيتهم . ولكن هذا ما قدرت وقتها انه التصرف السليم .

ونهى إلينا ـ نحن المفصولين ـ ان الدولة ، إزاء الضجة الخارجية ، فكرت فى أن تعيد الى العمل الاسماء المشهورة من المفصولين ، بما لايزيد على ستة او سبعة كتاب ، فهذا يسكت الحملة فى الخارج وتنتهى مع الزمن علاقة الباقين ـ اى حوالى الثمانين صحفيا ، بالصحافة .

وانتدبني الزملاء المفصولون لكي اقابل السيد ممدوح سالم الذى كان وزيرا للداخلية فى ذلك الوقت لكي ابلغه رسالة باسمهم .

وانني لاذكر كل لقاءاتي بالسيد ممدوح سالم فى مكتبه كوزير للداخلية او كرئيس للوزراء بكل خير .

ـ فهو رجل شديد التهذيب ، هادىء الاعصاب محيط بأى قضية تحدثه فيها ومستعد لمناقشتها ايا كان رأيه .

وأنا احيانا احكم على كثير من الوزراء والمسئولين من « جو » مكاتبهم ، فهناك وزير تذهب اليه فتجد غرف سكرتاريته تعج وتضج بالناس ، او تجد موظفيها فى حالة ذعر واستنفار فإذا دخلت على الوزير وجدت مكتبه مغطى بالأوراق والدوسيهات ، ولا تعرف ان تدير معه حديثا من كثرة التليفونات والداخلين للحصول على توقيعات الخ . ممدوح سالم كان على العكس تماما ، تذهب اليه وأنت تعرف طبعا مسئولياته الثقيلة والكثيرة سواء كوزير للداخلية او كرئيس للوزارة فى ظروف قلقة ومضطربة ، فتدخل اليه فى الموعد المحدد لك بالضبط بدون دقيقة تقديم أو تأخير ، وتجد الهدوء هو السائد وتجلس اليه بالساعة أو الساعات وهو متفرغ لك وكأن ليس هناك ما يشغله ، ونادرا ما يقاطعه تليفون أو موظف ! وقد لاحظ هذه الملاحظة ذاتها المرحوم الاستاذ الدكتور على الجريتلى : فقد عرض عليه أن يكون نائبا لرئيس الوزراء لقطاع الاقتصاد ... وزار ممدوح سالم ثلاثة ايام متتالية للحديث مطولا فى هذا الموضوع الذى انتهى باعتذار الدكتور على الجريتلى عن عدم قبول المنصب ، لأنه كما قال لى « فهم أن الحكم لن يغير اسلوبه وأن قرارات السادات السياسية سوف تعلو على اى قرار اقتصادى » .

وكانت مقابلات الجريتلى لممدوح سالم فى الايام الثلاثة السابقة على اجراء الانتخابات العامة ؛ اى فى قمة مشغولية رئيس الوزراء بحدث جسيم ولكنه كان مندهشا بهذا الهدوء وقلة المقاطعات ... وقد ترك ممدوح سالم رئاسة الوزراء دون أن يعلق بسمعته المالية فى تلك الظروف ولاحتى مجرد شائعة .

ذهبت الى السيد ممدوح سالم وقلت له بما سمعناه وابلغته أننا قررنا الا يعود احد منا الى العمل الا اذا عاد الجميع وأن الذين يفكرون فى اعادتهم من « الكبار » ليس لديهم اى مشكلة : فالدكتور لويس عوض مثلا تلقى

ثلاثة عروض من ثلاث جامعات أمريكية كبرى للتدريس فيها . وأنا وبعض زملائي انهالت علينا العروض للعمل في الصحافة العربية من المحيط الى الخليج ... ولذلك فنحن نرى ان المشكلة هى مشكلة الشباب الذين لم تتح لهم الفرصة بعد ليصنعوا سمعة كبيرة يستحقونها جميعا فهم الأولى بالعودة ، ولا داعى لصدور قرار باعادة البعض منا مما سيضطرنا الى الرفض وتزداد المشكلة تعقيدا وتوترا ..

ولا انسى اننا في غمرة هذا الحديث . قال لى ممدوح سالم ما معناه : ان كل التقارير التي تتلقاها اجهزة الأمن ضد الصحفيين يكتبها صحفيون منكم .

وقلت له : هذا طبيعي فادق التقارير عن الطلبة لابد أن يكتبها طلبة وهكذا الشأن في كل مجال ونحن نعرف الصحفيين الذين يحترفون كتابة التقارير السرية لأجهزة الأمن ضد زملائهم ، ولكنكم لو تحريتم عنهم قبل أن تأخذوا بكلامهم لعرفتم انهم من أردأ نوعيات الصحفيين الفاشلين المملوءة قلوبهم بالضغينة ضد كل صحفي ناجح .

ورد عليّ ممدوح سالم ردا لا انساه لطرافته وصدقه معا ، ولعلى مضيت في هذا الاستطراد لكى اذكر هذا الرد بالتحديد : فقد قال لى على الفور : طبعا ونحن نعرف ذلك ، ولكن هل تتوقع من صحفى مستقيم حسن الاخلاق ، ابن ناس ، وناجح في عمله ، أن يكتب تقارير للمباحث نظير أجر ؟ هات لى عشرة من هؤلاء ولو كانوا من متخرجى اوكسفورد يرضون ان يكتبوا تقارير للمباحث وسوف تستغنى المباحث فورا عن النوعية التى تكتب التقارير عادة ...

وأغرقنا في ضحك طويل !

● ● ●

المصالحة بعد حرب اكتوبر
وخروج هيكل من الاهـــرام

انتهت حرب اكتوبر نهايتها المعروفة . حرب اكتوبر على أية حال ليست موضوع هذا الكتاب .. ولا أظنني في حاجة الى وصف حالة الفرحة المثيرة والابتهاج العام التي كانت تسودنا جميعا في كل مكان خصوصا في الصحف حيث كنا نقيم آناء الليل واطراف النهار لمجرد احتمال سماع خبر جديد آت من الجبهة .

وبعد وقف إطلاق النار بأيام زارني في مكتبي في الاهرام الناشر الكبير المعروف الاستاذ محمد المعلم صاحب دار «الشروق» .

وقال لي : هل تتذكر كتاب «وتحطمت الطائرات عند الفجر» ؟

كيف لا اتذكر؟ فبعد هزيمة ١٩٦٧ نشطت المخابرات الامريكية والمخابرات الاسرائيلية وبعض المخابرات العربية ، وجهات سياسية كثيرة ذاقت مرارات الهزيمة تلو الهزيمة على يد جمال عبد الناصر من سنة ١٩٥٦ حتى سنة ١٩٦٧ ، وتحركت كل تلك الاجهزة التي طالما اصدرت الصحف وطبعت الكتب واقامت الاذاعات طوال اثنى عشر عاما مجندة احيانا اكبر الاقلام والاسماء ، ودافعة الاموال والرشاوى لرؤساء دول ورؤساء وزارات ، للنيل من جمال عبد الناصر دون جدوى ، تحركت تلك الجهات ودبت فيها الروح بعد ان اصبح الاسد جريحا ومصر ملقاة على الارض ، وتفتحت خياشيمها لرائحة الدم ، واغرقت الاسواق العربية بمئات الكتب والصحف التي تحاول جعل الهزيمة ضربة قاتلة نهائية ، ولا تترك شيئا من آثار ثورة ٢٣ يوليو الا تحاول تجريحه ، ولا تترك وسيلة لاثبات عدم جدارة الانسان المصري بالاحلام التي طافت بمخيلته زمنا الا حاولت تدميرها .

كتب تغمر الاسواق بغير مؤلف واضح ولا ناشر معروف ... كلها طبعت في مطابخ المخابرات الدولية والعربية .

وقد كان أقساها واكثرها إيلاما وتجريحا كتاب اسمه «وتحطمت الطائرات عند الفجر» محوره الاساسي ضربة الطيران الاسرائيلي المشهورة وتدميره للطيران المصري والمطارات المصرية في ساعات قليلة فجر الخامس من يونيه ١٩٦٧ . ودور الجاسوسية الناجحة في هذه الضربة .

كان الناشر الصديق «محمد المعلم» يمارس نشاطه في النشر وقتها في بيروت وكنت كلما ذهبت الى بيروت وجدت كميات جديدة من هذا الكتاب الذى يباع بثمن رمزى مكدسة على كل رصيف في بيروت حتى لا تفوت احدا قراءته .

قال لي الأستاذ «محمد المعلم» في مكتبي في الاهرام : اذا كنت تذكر بشاعة ذلك الكتاب وما كان يسببه لنا من الام ، فانني اطلب إليك الآن طلبا محددا .. ما هو ؟ . ان تكتب لنا كتابا مضادا واقترح ان يكون عنوانه ردا على ذلك العنوان وتحطمت الاسطورة عند الظهر . اشارة الى عبور الجيش المصرى القناة وتدمير خط بارليف ظهر ٦ اكتوبر ١٩٧٣ .

وقلت له : الفكرة عظيمة ولكن الوقت مبكر جدا انني تابعت الحرب من مكتبي كأى مواطن ، ومازلنا في احرج المراحل بعد وقف إطلاق النار والقوات تقف وجها لوجه على الجبهة... ومازال هناك وقت طويل لابد ان يمر قبل ان تكون هناك معلومات وتفاصيل عما حدث تصلح مادة لمثل هذا الكتاب ، الذى سأكتبه كما تعلم بمفردى دون مساعدة اى أجهزة مخابرات او خلافه .

ولم يقبل محمد المعلم حجتى . اخذ يكرر ان السرعة هنا بالغة الاهمية وان اى كتاب سيظهر الآن من كاتب مصرى مثلى عن الحرب سيقرؤه كل عربى وقلت له : السرعة شيء عظيم لسعة الانتشار والتوزيع ولكنها ليست كل شيء ، انني مستعد لأن اكتب لك كتابا تحت هذا العنوان خلال عشرة ايام ، ولكنه سيكون كتابا سياسيا لا وثائقيا ولا معلوماتيا ، لن تكون فيه معلومة واحدة زيادة عما نشر حتى الآن في صحف مصر واسرائيل والعالم الخارجى ولكنه سيكون في احسن الحالات كتابا سياسيا تحليليا يضع حرب اكتوبر بتفاصيلها التى نعرفها حتى الآن في إطارها التاريخى الصحيح ، وكنتيجة لاصرار ولد عقب هزيمة ٥ يونيه مباشرة على رفض الهزيمة وعدم الاستجابة لكلمة موشى دايان الشهيرة « لقد انتهت مرحلة بأكملها وانا جالس بجوار تليفونى مستعد للرد على اول مكالمة من اول عاصمة عربية تريد ان تأتى الينا » وما تلا الهزيمة ـ بعد ايام من معركة رأس العش كإعلان عن الإصرار على المواجهة ، ثم اغراق البارجة الإسرائيلية ايلات بعد اسابيع من الهزيمة ، فإعادة التسليح ، فحائط الصواريخ فحرب الاستنزاف ، فقرار الهجوم والعبور .

وقال لي محمد المعلم متحمسا : هذا ما أريده بالضبط . لا أريد أكثر من ذلك ولكنى أريد أن أصنع كتابا من هذا العنوان حيث مازالت موجودة بقايا كتاب « وتحطمت الطائرات عند الفجر » على الأرصفة نفسها في بيروت وغيرها . وبالفعل كنت انجز عملى في الجريدة وأهرع إلى البيت لأعمل في الكتاب الصغير حتى انجزته فعلا في عشرة أيام ... وبعد أسابيع كان قد طبع ونزل إلى الأسواق في العواصم العربية التى كانت هدف الكتاب بالذات .

ومرت على ذلك شهور طويلة لا اذكر عددها ونسيت الكتاب تماما ... وفى يوم من الايام فوجئت بتليفون من رئاسة الجمهورية يبلغنى بموعد مع الرئيس السادات ذات نهار فى استراحة «كنج مريوط» التى لم اكن قد زرتها ابدا .

وفى الموعد المحدد وصلت بإحدى سيارات جريدة الاهرام الى باب الفيللا الصغيرة التى كانت مملوكة لاجنبى رحل واصبحت « استراحة كنج مريوط » .

دخلت باب الاستراحة الصغيرة متهيبا لا اعرف السبب ففى السنوات السابقة نقلنى الرئيس السادات تعسفا من دار الهلال واستقلت مرة ونقلنى مرة اخرى من الاهرام الى هيئة الاستعلامات فاستقلت واعتبرت مفصولا مرة اخرى ، ونسب الىّ من جهته اتهامات كثيرة ، فكيف ياترى سيكون اللقاء ؟

استقبلتنى على الشرفة المطلة على الحديقة السيدة جيهان السادات ببشاشة وترحيب واضحين ، وشعرت أن ترحيبها حقيقى ومؤثر .

السيدة جيهان السادات شخصية لاتتكرر مهما ثار حولها من جدل فهى قادرة على أن توقع اى شخص يتصل بها تحت تأثيرها الطاغى وهى ـ كما عرفتها قبل ذلك وبعد ذلك ـ كانت تفضل دائما ان تؤلف القلوب حول زوجها ، وأن تهدىء من خصوماته وطبيعته المتقلبة بين الهدوء الطويل والغضب المثير . فاستبشرت خيرا وجلسنا واخذت تسألنى عن زوجتى وابنائى فى ألفة طوت بها من الناحية الشخصية سنوات القطيعة فى دقائق ، قبل ان يأتى انور السادات ، ويحيى فى ود وبشاشة وتحفظ فى الوقت نفسه وتبينت انه يريد ان يكون حديثنا جادا فقال لها : احمد سوف يتغدى معنا عليك إكرامه بعد هذه الغيبة ، فتركتنا وانصرفت .

وذهب انور السادات الى الموضوع فورا .. قال لى إنه قرأ كتاب «وتحطمت الاسطورة عند الظهر» وانه فرح لأن أول كتاب عربى يعلق على حرب اكتوبر جاء منى بالذات . وقال فى الوقت نفسه انه مع ذلك دهش ان يأتى هذا العمل منى بالذات . فلما ابديت دهشتى لدهشته واستغرابى لهذا التصور منه ، وتساءلت عن سببه ، قال لى بصراحة : لأنك ضدى ...

ومرة أخرى سألت عن معنى كلمة أننى ضده . وقلت له انني اختلفت مع بعض سياساته ، واستطردت قائلا : اننى يا ريس لا اريد العودة الى تفاصيل ما حدث ولكن اسمح لى وقد صارحتنى بهذا الشكل ان اقول : اننى العاتب عليك فسيادتك تعرف اننى حين اخالف رأيا لحاكم لا افعل ذلك لا لطموح شخصى ولا لحساب احد آخر ولكن كما كنت تقول لى ، لمجرد ان « مخى كده » .

وذكرته ضاحكا بانه فى اكثر من مرة ايام حكم عبد الناصر ، الذى لم اقابله قط ولم اعرفه شخصيا قط ، كان (اى السادات)

يقول لي أحيانا في مواقف سياسية معينة ان التقارير قدمت من فلان وفلان او من جهاز كذا وكيت للرئيس عبد الناصر تطلب إليه الامر باعتقالي . ولكن كان الرئيس عبد الناصر يرفض دائما ويقول « لا .. سيبوه هو مخه كده . احنا راقبناه كثير من اول الثورة وتاكدنا انه لا علاقة له باحد » ومع ذلك استطردت قائلا : ياريس ورغم العشرة القديمة والمعرفة بهذا ، فقد اتخذت ضدي اجراءات ومواقف دون ان تسالني مجرد سؤال في التليفون او عن طريق احد اصدقائك عن : أيه الحكاية ؟

وقال السادات : « هل نسيت مظاهرات واحداث ١٩٧٢ وبيان الكتاب والصحفيين ؟ لقد كنت انت « شيخ » هذا البيان واستخدمت العجوز المخرف بتاعكم توفيق الحكيم . وعندما قررت نقل هؤلاء الى الاستعلامات استثنيناك انت وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ ، واذا بك تريد كتابة مقال في الاهرام دفاعا عنهم . انني كنت في عز الاعداد للمعركة وانت وقفت مع الذين قالوا بملء الفم انه ليس هناك معركة ولا حاجة . غيرك لا نحاسبه على ذلك ... ولكننا كنا نقول دائما ايام جمال عبد الناصر التي ذكرتها الآن انك عاقل وتفهم ما بين السطور ، فكيف وانت تعرفني تصدق انني كنت اضحك عليكم بحكاية المعركة ؟ » .

وقلت له : سيادة الرئيس ، انني لن ادافع عن نفسي في هذا الموضوع ولكنني اريد ان ادافع حتى عن اصغر طالب جامعي خرج في المظاهرات وهتف ضدك مقتنعا بأنه لن تكون هناك معركة .

ونظر الى السادات وهو ينفث دخان غليونه في دهشة وترقب واستطردت قائلا : « كان لديك يا سيادة الرئيس قائد عام للقوات المسلحة ونائب رئيس وزراء ووزير دفاع اسمه الفريق محمد صادق . وكان يأخذ في الحياة العامة ووسائل الاعلام حجما اكبر من ذلك ايضا . الفريق محمد صادق كان يزور معسكرات الجيش ويتكلم مع الضباط والجنود ويقول لهم انه لن تكون هناك معركة . وانه ليس لدينا أي سلاح . وان الروس لا يريدوننا ان نحرر اراضينا . ولو كان هذا الكلام عن استبعاد المعركة اتى من وزير اعلام او من وزير خارجية لقلنا إنها سياسة . ولكن هذا كلام يقوله القائد العام العسكري ويقوله لجنوده وضباطه ، فهو لايمكن الا ان يؤخذ على مأخذ الجد . قائد الجيش ياسيادة الرئيس - حتى ولو كان يعرف انه لايملك طلقة واحدة - عليه ان يكذب على رجاله ويرفع روحهم المعنوية ويزعم لهم انه مدجج بالسلاح ، فكيف تصدق ان يقول النقيض ؟ هذا الكلام - يا سيادة الرئيس - الذي كان ينتشر في كل الاوساط وخصوصا بين المتعلمين وشباب الجامعات سبب وضعا جديدا وهاما وهو امتلاء هذه المعسكرات

بالمجندين من خريجي الجامعات لاول مرة وقد سمعت شخصيا هذا الكلام من شباب كثيرين في المعسكرات اثق فيهم تماما ».

«اسمح لي يا سيادة الرئيس ان اقول بكل صراحة انني اقتنعت فعلا بأنه لن تكون هناك معركة مهما حدث . فما بالنا بآلاف الشباب والطلبة والمثقفين في كل المجالات ؟» .

« إنني مرة اخرى ارجو ألا تعتبر كلامي هذا دفاعا عن نفسي ولكن عن كل شاب خرج الى الشارع في المظاهرات » .

القيت بهذا الكلام في مرافعة متكاملة طويلة دون سابق اعداد ولكن من معرفتي بالسادات قررت ان اضع الحقائق كلها «على بلاطة» مادمت اقولها باسلوب مهذب ومستند الى منطق .

واحتقن وجه السادات ، واحتسى عدة رشفات من كوب شاي ونفث الدخان من غليونه عدة مرات ، ثم قال ، بعد فترة صمت وهو يهز راسه : الفريق صادق .. لو انني اردت ان ارسل الفريق صادق الى محكمة عسكرية لحكمت عليه بالاعدام ، ولكنني بعد اكتوبر المجيد ، والسمعة التي احرزها الجيش المصري ، لا اريد ان الطخها بمثل هذه المحاكمة . وصمت وحدق في الافق وسكت بدوري لا اسأل ولا اناقش ولا احاول استدراجه إلى ان يقول ما كان باديا انه لايريد ان يقوله . وصفق بيديه ، وطلب إلى الشخص الذي حضر ان يبلغ « الست » ان تعد لنا الغداء بعد حوالي نصف ساعة .

قلت له بنبرة رضاء وتهدئة : ما سمعته اعتبره حكما بالبراءة . وشرع من جانبه في اسئلة واحاديث شخصية ودردشة عامة ، وعاد يخاطبني بلهجة ودية عن بعض تصوراتي لردود افعال «اصحابك بتوع البلاد العربية» بعد الحرب .

تناولت الغداء مع الرئيس السادات وحرمه بين هذه الاحاديث المتفرقة وكانت اول مرة اتناول معه فيها طعام الغداء في هذا الجو الخاص ، ليس في سفر ولا في حفل . وقد جاءوا اليه بأرنب مسلوق وبجواره قطع من الخضر المسلوقة اخذ يأكلها بيديه دون اي شيء آخر ، رغم انه كانت هناك مائدة عامرة بالنسبة لثلاثة أشخاص فقط .

واشارت السيدة جيهان السادات الى «طاجن مكرونة» وقالت لي : تصور انه لا يريد ان يغير الارنب المسلوق ابدا ، هذه المكرونة احضرناها خصيصا من الخارج ، لأنها مصنوعة من "السليلوز" اي أنها صناعية ليس فيها اي دقيق او نشا او اي مادة غذائية ، وهي لذيذة جدا ومع ذلك رفض ان يذوقها وقلت للسيدة جيهان ، انا مستعد ان اكل الطاجن كله ، على اي حال . وضحكت وقالت انها ستشاركني فيه . والسيدة جيهان لديها

ضعف نحو الطعام الجيد ، تستسلم له احيانا وتقاومه في اغلب الاحايين حتى لا يزيد وزنها وحتى تحتفظ بطاقتها وحيويتها الشديدتين ، وانصرفت من هذا اللقاء في «كتنج مريوط» معتبرا ان صلحا آخر ، او هدنة اخرى قد عقدت .

هيكل يخرج من الأهرام : لم أعمل مع محمد حسنين هيكل في جريدة الأهرام ايام حكم عبد الناصر ، أي أيام وضع محمد حسنين هيكل غير العادي في الحياتين الصحفية والسياسية في مصر ، وان كنت بالطبع أسمع عنها ما يكفي .

في تقديري ان فك لغز شخصية جمال عبد الناصر الشديدة التميز والتفرد في التاريخ المصري ، والعملاق الذي خرج من تراب مصر بعد قرون من الرقاد كفرعون جديد جبار ، لايمكن ان يتم فهمه الا اذا امكن فك لغز علاقته بثلاث شخصيات وصداقات كان لها أكبر الاثر في حياته .

علاقته بعبد الحكيم عامر الذي سلمه الجيش بكامله ، وانشق عليه وصار ندا له دون اي ند منذ الستينيات ، ومع ذلك ترك له كل هيلمانه وتأثيره في أهم احداث حكمه حتى النهاية المرة .

وعلاقته بأنور السادات ، الذي كان يبدو انه يختلف عنه ، في كل شيء ، ومع ذلك فقد اختاره لأن يكون خليفة له . ولست من انصار النظرية او النظريات التي تعتبر هذا من باب الملابسات غير المقصودة ، ولكن اعتقد انه كان اختيارا مدروسا ومقصودا ، رغم التشهير الذي لامثيل له الذي قاده السادات بحنكة ومهارة وشراسة ضده بعد وفاته .

وعلاقته بمحمد حسنين هيكل ، الصحفي الذي لم يكن من اقرب الناس اليه في اول الثورة ولكنه صار بعد ذلك في تقديري اقرب الناس اليه على الاطلاق . فجعله شريكا في الحكم على اعلى مستوى ؛ وابسط دليل انه حين مرض بأزمة قلبية عنيفة اقتضت منعه من العمل تماما ، شكل لجنة تحكم البلاد باسمه كونها من شعراوي جمعة وزير داخليته وأمين هويدي وزير حربيته وسامي شرف مدير مكتبه ، ومحمد حسنين هيكل الذي كان لقبه الرسمي «رئيس تحرير الأهرام» . ولم اتعرف الى محمد حسنين هيكل الا متأخرا .. وكان ذلك في اوائل الستينيات .

وفي آخر رحلة قام بها جمال عبد الناصر الى سوريا قبل الانفصال وكنت شخصيا من انصار الوحدة قبل قيامها وقبل اقناع جمال عبد الناصر بها وكنت بالتالي اسافر الى سوريا كثيرا واعرف حياتها السياسية والاجتماعية جيدا ، وبعد الوحدة كان اكثر ما يثير غضب جمال عبد الناصر هو أن يقرأ في احدى الصحف المصرية اسم مدينة سورية او شخصية سورية وقد كتب خطأ ، والواقع ان جهل الصحافة المصرية بهذه الامور بالنسبة لسورية وغيرها من البلاد العربية كان ـ وربما مازال ـ فاضحا ، وهي تكتفي باتباع السياسات المصرية الرسمية تجاه التيارات والشخصيات ـ العربية حبا او حربا دون تفكير او دون محاولة لتكوين آراء خاصة عن معرفة او خبرة ، وفي احدى المرات نشرت إحدى المجلات

المصرية صورة واسم زعيم كبير من اقطاب الوحدة ، ومن نواب رئيس وزراء الوحدة ، أظن انه "فاخر الكيالي" ، على انه "صبري العسلي" ، رئيس الوزارة السورية التي حققت الوحدة مع مصر ، والعكس بالعكس .

وهاج جمال عبد الناصر وماج وهاجم بشدة رؤساء تحرير الصحف والمجلات المصرية الجالسين في مكاتبهم المكيفة ، والذين لم يفكر واحد منهم في أن يذهب في أي وقت وفي أي مناسبة الى سورية ، وكان على وشك السفر في تلك الرحلة الى سوريا واصدر تعليمات حاسمة الى كل رؤساء التحرير في مصر بان يسبقوه في طائرة حربية الى اللاذقية ، التي كان سيذهب اليها في اليخت « الحرية » عن طريق البحر ، ولم تكن رحلة عادية الى دمشق او حلب ، ولكنها كانت رحلة شاقة قرر ان يبدأ بها من ميناء اللاذقية ويطوف فيها انحاء سوريا الى حمص وحماة وحلب وجبل العرب (جبل الدروز) والى « دير الزور » و « الحسكة » و « البوكمال » ، اى واصلا الى اقصى الشمال السوري ملاصقا الحدود التركية واقصى الشرق ملاصقا الحدود العراقية ، ايام كانت الحدود التركية والسورية مشدودة الأعصاب وأيام كانت الخلافات مع عبد الكريم قاسم في العراق في قمتها .

وركبنا الطائرة جميعا من مطار اللاذقية ، وعندما ادرك رؤساء التحرير باعمارهم المختلفة وامزجتهم المتباينة هول مشقة السفر الى مناطق ليس فيها اى تسهيلات ، بدءوا يتساقطون تدريجيا .

عاد مصطفى امين واحسان عبد القدوس من اللاذقية بالطائرة بعد يوم او يومين ، وفي حلب استغاث كامل الشناوى بمن ينقله بالطائرة الى دمشق حيث ينتظرنا هناك بعد ان تتم الجولة الشاقة ، ولم يصمد الا محمد حسنين هيكل ، وناصر الدين النشاشيبي ، والمرحوم مصطفى المستكاوى ، وانا .

وقد كانت حقا رحلة شاقة ، كان استقبال الشعب لجمال عبد الناصر كالعادة اسطوريا بل اكثر من كل مرة ، فقد ذهب الى مناطق قال لنا اهلها انه لم يسبق ان زارها « وكيل وزارة » من دمشق العاصمة ، وكانت التسهيلات في بعض تلك المدن التي لم يدخلها مسئول واحد معدومة تماما . لم يكن هناك ببساطة اماكن لرئيس الجمهورية العربية المتحدة وصحبه من الوزراء والصحفيين المصريين والسوريين لا للمبيت ولا للمأكل ولا اى شيء على الاطلاق .

في « دير الزور » مثلا كان هناك بالمصادفة مبنى جديد لم يستعمل بعد لمكتب بريد ، وبتنا جميعا في مكتب البريد ، بات جمال عبد الناصر في غرفة في الدور الثاني من المبنى لعلها حجرة مكتب مدير البريد وفي الدور الارضي الذي يفصله عن الشارع حاجز زجاجي فقط غطوا الزجاج

بالبطاطين وبصوا أسرة من القوات المسلحة ونمنا جميعا وزراء وجنرالات وصحفيين ، وكان الناس في مثل هذه الظروف يأتون متبرعين بالسراير والمراتب والأغطية التي سيستعملها جمال عبد الناصر وصحبه .

وفى « الحسكة » مثلا وزعونا على الشقق الصغيرة البسيطة جدا التى تسابق سكانها على التبرع بها ليبيت فيها القادمون ليلة او ليلتين .

وفي شقة ليس فيها اية وسائل راحة من حجرة ومدخل ، بتنا نحن الصحفيين المصريين ، ناصر الدين النشاشيبى ومصطفى المستكاوى فى الحجرة ومحمد حسنين هيكل وأنا فى المدخل .

كذلك كان برنامج الرحلة قاسيا وعنيفا جدا ، بالنسبة لنا نحن المدنيين على الاقل ، فقد ركبنا كل وسائل المواصلات وكان أقساها احيانا « الهليكوبترات العسكرية » الحديدية فى ذلك الوقت التي لا توجد فيها مشلتة واحدة .

فكان ناصر النشاشيبي مثلا ينام على بطنة على ارض الهليكوبتر ويضع فمه على فتحة الهواء ويتقيأ طوال الرحلة وكل منا يصيبه ألم من نوع او اخر . ومواعيد التحرك اغلبها في الفجر المبكر لكى نلحق بالرحلة . وفي كل مدينة وقرية يخطب جمال عبد الناصر في آلاف الجماهير بلا تعب .

وللسوريين طريقة جميلة في الترحيب : يعلقون كل سجاجيد مساكنهم على النوافذ والشرفات فتعطى الترحيب شكلا فنيا وشخصيا فاتنا . ولاانسى منظر دخولنا «حلب» المدينة الكبرى الفائقة الجمال فى الشمال ، والطريق اليها يمر بجبل رملى أحمر اللون ومفاجأتنا عندما وجدنا سفح الجبل كله مغطى بمئات السجاجيد والاكلمة ، وسألنا وعرفنا لدهشتنا ان الناس جاءوا بها ووضعوها هكذا غير خائفين من ضياعها ، حفاوة وترحيبا .

عرفت محمد حسنين هيكل فى تلك الرحلة وتوثقت علاقتى به خلال تلك الظروف وكنا نجد دائما ما نتحدث فيه معا وأينما كنا ، وبعد ان ينتهى كل عذاب اليوم ، ونأوى إلى فراشنا حيثما كان املا فى بعض النوم قبل التحرك مع الصباح الباكر يأتي رسول من حيث يكون جمال عبد الناصر يأخذ هيكل ليسهر بقية الليل معه ، وكان بعضنا يتندر على ما يثيره ذلك من حنق وغضب لدى كثيرين ، رسميين وصحفيين .

وقد عرض علىَّ محمد حسنين هيكل بعد ذلك العمل معه فى الاهرام مرارا ولكننى كنت افضل البقاء حيث اكون ، وفى تقديرى ان هذا وثق علاقتنا فقد كان أسهل واكثر راحة له ان يكون له صديق شخصى خارج مكان عمله ، يتحدث معه بحرية ، وكانت شماتته فىَّ كبيرة عندما ذهبت الى الاهرام فى الظروف التى ذكرتها حين قال لى ضاحكا : ألم يكن احسن ان تأتى الى الاهرام بالذوق لا بالعافية ؟

لم اعمل اذن مع محمد حسنين هيكل فى الاهرام الا فى رئاسة انور

السادات وكان واضحا أن علاقته بأنور السادات لاتقل كثيرا في مستواها الرسمي والعملي على الاقل عن علاقته بالسلطة في عهد جمال عبد الناصر . كنت ألاحظ انه الوحيد الذى يستطيع ان يخاطب السادات فيما لايستطيع ان يخاطبه فيه احد ، وأن رؤساء الوزارات والوزراء يخطبون وده بنفس الطريقة .

ولا انسى مرة كنت جالسا فيها معه في مكتبه وهو يتحدث تليفونيا مع انور السادات في يوم عصيب جدا . كان ذلك اليوم فى اوج مظاهرات وإضرابات ١٩٧٢ ، وقد احتلت الجماهير واقعيا مدينة القاهرة بشوارعها وميادينها ، والسلطة عاجزة عن التصرف . وكان انور السادات قد دعا اعضاء مجلس الامة الى الاجتماع به ليحدثهم عن الموقف ، في قصر عابدين . وكان السادات صباح اليوم المحدد لانعقاد هذا الاجتماع في استراحة القناطر ووصلته انباء خطيرة عن هذا الاحتلال للقاهرة الذى وصل الى ساحة قصر عابدين نفسه ، وقرر السادات الليلة السابقة ان ينقل الاجتماع من عابدين الى استراحة القناطر . اى يذهب الوزراء واعضاء مجلس الشعب والصحافة الى القناطر .

وانزعج اكبر المسئولين فى البلد ، وكان لابد ان يقول احد للرئيس السادات ان نقل الاجتماع الى القناطر اعلان للناس وللدنيا عن أن رئيس الدولة غير قادر على دخول عاصمته ، ولم يجدوا شخصا يفاتح الرئيس فى ذلك الا محمد حسنين هيكل ، وكان هذا هو الحديث الذى سمعته يومها وسمعت ورأيت كيف استعمل هيكل كل وسائل الاقناع والضغط المعنوى الى اقصى الحدود على انور السادات لكي يقبل بالذهاب الى الاجتماع فى قصر عابدين كما هو مقرر .

وكان الموضوع حساسا وحرجا لأنه يمس شجاعة الرجل وكبرياءه وكان هذا منعكسا على دقة الحديث وقوة الضغط المطلوب ، وقد سمعت طبعا بأذنى كلام هيكل للسادات ، وان كنت لم اسمع ردود السادات الا من هيكل بعد ذلك ولكنه تمكن على أية حال من اقناع السادات بابقاء الاجتماع فى قصر عابدين . وفى تقديرى الآن انه لو لم يتم ذلك لوقعت كارثة .

وقد كنت اشعر بعد ذلك ، ان انور السادات صار يكره القاهرة وأهلها وكل ما تمثله ، وزاد هذا الاحساس لديه بعد مظاهرات الطعام سنة ١٩٧٧ كما سيأتى .

كان يشعر ان القاهرة بالذات ضده دون سائر القطر ، فهى فى نظره مدينة المشاغبين من الطلبة والعمال والمتحذلقين والصحفيين والكتاب وكل من اصبح يسميهم بقصد الاستهزاء « الافنديات » و « الارزال » ، وصار يلقي خطاباته في المناسبات التي تقتضي الوقوف امام الجماهير خارج القاهرة ، ويهاجم فى معسكرات الجيش « افنديات القاهرة » ويؤلب الضباط والجنود

ضدهم بأن يقارن علنا بين حياتهم في المعسكرات الصحراوية وبين « أفنديات القاهرة » ، وكان كل من في القاهرة يعيش ناعما في غرفة مكيفة .

ولهذا أيضا بدأ يقضي معظم أيامه في «الاستراحات» المتزايدة في مختلف انحاء القطر فلا يأتي الى القاهرة ، ولا حتى إلى بيته في الجيزة الا في المناسبات وفي اوقات نادرة .

وأترك هذا الاستطراد .

المهم ان حرب ١٩٧٣ قامت وانتهت وعلاقة محمد حسنين هيكل بالسادات لايبدو عليها اى تغيير . ويجب ان اسجل هنا اعترافا ، فرغم انني صحفي قد لايصدق القارىء ان كثيرا من الاحداث كانت تمر تحت انفي ولا اراها او لا تستوقفني كما يجب ، ربما لانني لم ادخل الصحافة كسائر الصحفيين من باب العمل في السوق على جمع الاخبار من مصادرها .

ولكنني دخلت الصحافة من باب الجلوس الى مكتب وكتابة مقالات الرأى فكان نشاطي واهتمامي الخبريان دائما يأتيان في المرتبة الثانية وأحيانا يفوتانني.لم اتقن ابدا فن طرح الاسئلة الاخبارية على المسئولين او اللجوء الى الحيل المعروفة لاستدراج مسئول الى حيث التقط منه خبرا او قصة ، واذكر انني عندما صرت بعد ذلك رئيسا لتحرير الاهرام ، كنت اقضى سحابة يوم كامل احيانا مع الرئيس السادات وأعود من عنده الى الاهرام مع العصر او الغروب ، وأجد الاستاذ ممدوح طه رئيس قسم الاخبار العتيد في الأهرام في ذلك الوقت ، في انتظاري في مكتبي وما ان يراني حتى يهب صائحا ايه اخبار التعديل الوزارى ؟ متى ستجرى حركة المحافظين ؟ هل وقع الرئيس حركة تنقلات السفراء ؟ وعشرات الاسئلة من هذا النوع عن الاخبار المنتظرة . وكان ينظر الي في ذهول عندما اقول له انني لم اسأل عن شيء من ذلك ، ولعله كان يقول في سره بالتأكيد «ايه رؤساء تحرير آخر زمن دول» ؟ ويقول لي : مع رئيس الدولة كل هذا الوقت وتأتي بلا اخبار ؟ وكنت أندم دائما واكتشف انني كعادتي التلقائية اذا قابلت مسئولا على اى مستوى في مصر او في خارج مصر ، ادخل معه في مناقشات وآراء حول قضية ساخنة ، ويغرقني الجدل وأنسى حكاية الاخبار القابلة للنشر .

هكذا ، مثلا كان إحساسي بمقدمات أحداث ١٥ مايو ، هامشيا جدا رغم خطورتها ، الأمر الذي لم يصدقه أى طرف من الأطراف . ربما لانني ايضا تعودت في حياتي الصحفية في تلك الاوقات ألا انضم الى معسكر ضد معسكر ، خصوصا بين عناصر تنتمي كلها إلى المؤسسة العسكرية وأوثر الاحتفاظ بمسافة بيني وبين كل الاطراف . كان شعوري (ولعله صحيح) دائما انها صراعات سلطة وليست صراعات آراء وسياسات .

وانني مستعد للانحياز إلى راى او سياسة وليس الى شلة فلان أو شلة علان . وقد دفعت فى بعض المناسبات ثمنا كبيرا لهذا الموقف ، غير المفهوم من اهل السلطة فى كل زمان ومكان .

بنفس الطريقة ورغم علاقتى الوثيقة بهيكل ، لم اشعر بتصاعد الازمة بين السادات وهيكل ، لم أن السادات منذ مقابلة «كنج مريوط» ، ولم يكن هيكل يتحدث فى الامر ، وكنت أسمع ما يسمعه أى شخص بين الشائعة والتصديق .

وفى غمرة التغييرات التى حدثت بعد حرب ١٩٧٣ وعودة المنفيين المحكوم عليهم ، بدأت تتردد اقوال عن قرب إطلاق سراح مصطفى امين من السجن مع تحسن العلاقات بالذات مع الولايات المتحدة الامريكية . والمملكة العربية السعودية ، وتردد كلام عن وساطات من المرحوم الملك فيصل ومن الشيخ كمال أدهم .

ومع ذلك كانت مفاجأة هائلة بالنسبة لى ، عندما كنت جالسا فى مكتبى فى الاهرام ذات صباح وفتح هيكل الباب فتحة صغيرة وقال لى جئت لك بمفاجأة .. حزر .. ولم يكن غير مألوف ان يأتى هيكل الى مكتبى فجاة ، او إلى مكتب غيرى ويجلس ليدردش ، فضحكت ولم ارد واذا به يفتح الباب واجد على امين واقفا بجواره يقتحم الغرفة واقفز من مكتبى ونتبادل العناق .

كانت تربطنى بعلى امين علاقة صداقة شخصية الى جانب المدة التى عملت فيها معه فى اخبار اليوم وعندما سجن مصطفى امين بقى على امين فى لندن ولم يعد الى مصر مدة تسع سنوات .

وكان الناس اذا ذهبوا الى لندن يتحاشونه خوفا ، وعندما ذهبت الى لندن لأول مرة قال لى صديق : ان على امين يحب ان يرانى واقترح ان نتعشى فى بيته بعيدا عن الانظار وهو لايتصل بأحد لأنه لايحب ان يحرج احدا من اصدقائه ، خصوصا بعد ان رأى بعضا من اقدم تلاميذه وزملائه يتحاشونه ، واتصلت تليفونيا على الفور بعلى امين وقلت له اننى تعودته كريما ، واذا كان لايزال كذلك فعليه ان يدعونى الى العشاء فى احد مطاعم لندن الفاخرة وصممت على ذلك ، وكنت اقصد ان اشعره اننى أريد ان أراه علنا وامام الناس جميعا وليس فى الخفاء .

وقد سمعت مرة من احد اقدم واصدق زملائه فى المهنة أنه لا يسافر الى لندن حتى لايضطر الى مقابلة على امين . وبالفعل تقابلنا للعشاء فى مطعم كبير شهير ، وبالمصادفة دخلت المطعم فجأة مجموعة من الصحفيين المصريين المعروفين وزوجاتهم ، ومن مدرسة مصطفى وعلى امين ، وصعقوا للمنظر ، ووقفوا مترددين ، ثم هجموا عليه معانقين ومقبلين وقد ازال وجودى عنهم الحرج ، وكنت بعد ذلك اراه باستمرار فى لندن وفى بيروت طوال مدة بقائه فى الخارج ، وكنت لا افهم منه ولا من هيكل الا ان علاقتهما مازالت على احسن ما يكون .

هكذا قابلت على امين وهيكل ببشر عظيم ولم يبقيا كثيرا فقد قال لى هيكل ان على امين مصمم على ان يرى كل مبنى الاهرام الجديد فى نفس اليوم ، وانصرف على اتفاق ان اتصل بعلى امين او يتصل بى بعد ذلك .

وبعد أيام أصدر السادات أمرا بالافراج عن مصطفى أمين .

وبعد ايام قليلة ، اتصل بى المرحوم فائق السمرائى الزعيم والوزير العراقى الأسبق والذى كان لاجئا سياسيا فى القاهرة فى هذا الوقت ، وكان صديقا حميما وقديما لمصطفى وعلى امين . قال لى انه يقيم مأدبة غداء تكريما لعلى امين بمناسبة عودته ، فى قاعة محجوزة فى فندق شيراتون مع عدد من الشخصيات وأنه يدعونى للغداء معه .

وفى يوم الدعوة ، كان لدى عمل أخرنى فى الاهرام فوصلت الى مائدة الغداء وقد جلس الجميع وشرعوا فى تناول الطعام واعتذرت وجلست بسرعة على آخر مقعد خال حول المائدة ، وقبل أن يفرغ الحاضرون من الطعام ، قام على امين من مكانه البعيد عنى وجاء الىَّ حيث اجلس وسحب مقعدا جلس عليه خلفى مباشرة وهمس فى اذنى بصوت لا يسمعه غيرى :

هيكل خرج من الاهرام ، والرئيس السادات كلفنى بأن أحل محله اليوم ، لا احد يعرف بعد ، ولكنى ذاهب لاتسلم الاهرام بعد ساعة واريدك ان تاتى معى لنذهب معا ...

وقع علىَّ الخبر وقع الصاعقة شعرت فجاة اننى كالأطرش فى الزفة، فى وسط معمعة ما ولا اشعر بشىء . وقلت لعلى امين : ساذهب الى البيت بعد الغداء وساكون فى مكتبى فى الاهرام كالمعتاد حوالى الساعة السادسة .

وألح على امين على اهمية ان يدخل الاهرام الى مكتبه الجديد لاول مرة وانا معه ، وقلت له : بصراحة انا ارى هذا غير جائز ، هذا يجعلنى ابدو شريكا فى انقلاب لم اشارك فيه وسيكون عملا موجها ضد صديق لى ، وانت تعرف اننى لا افعل ذلك .. اننى ساكون فى مكتبى فى الساعة السادسة تماما وتستطيع ان تستدعينى فى اى وقت .

●●●

رئاسة تحرير الاهرام

ذهبت الى مكتبى فى جريدة الاهرام الساعة السادسة بالضبط . وبدلا من أن أجد تليفونا واحدا يستدعينى ، وجدت لدهشتى ، تليفونين ! . الأول من الدكتور محمد عبدالقادر حاتم الذى قال لى إنه ينتظرنى فى غرفة رئيس مجلس الادارة ورئيس التحرير (أى فى الغرفة التى كان يجلس فيها محمد حسنين هيكل) ، والثانى من الأستاذ على امين الذى قال لى إنه ينتظرنى فى الغرفة المقابلة للغرفة الأولى أى الغرفة التى كانت تجلس فيها مديرة مكتب محمد حسنين هيكل . وقمت بزيارة لكل منهما وفهمت أن القرار الصادر من الرئيس السادات هو أن يكون الدكتور عبدالقادر حاتم رئيسا لمجلس الادارة وأن يكون الاستاذ على أمين مديرا للتحرير ودهشت لهذا الترتيب الذى لم أفهمه عندما همس على أمين فى أذنى بالخبر فى قاعة الطعام فى فندق شيراتون قبل ساعات واستنتجت أن السادات لايريد أن يسلم الأهرام كاملا الى على أمين بعد هيكل . لكننى شعرت أن على أمين ليس مستاء من هذا الوضع ، فقد كان فى قمة الجذل والنشوة . وكيف لا وهو يجلس على قمة الهرم بعد ايام قليلة من إنتهاء منفى دام تسع سنوات ؟ وافهمنى وهو يشرح لى الوضع الجديد أن هذا وضع مؤقت ، وأنه يتوقع أن يترك الدكتور حاتم مكانه بعد الاطمئنان الى سير الأمور فى الأهرام بهدوء وأنه - اى على أمين - سيكون المسئول الاول والاخير فى مرحلة تالية .

وتجربة على أمين فى الأهرام ، قصة أخرى ، فأنا كما قلت أحاول أن اظل قريبا من الخيط الاساسى للكتاب وهو محاوراتى مع أنور السادات ، وإن كان لابد احيانا من الابتعاد عن هذا الخيط قليلا لذكر أشخاص وأحداث لا مفر من ذكرها لاستكمال الصورة .

أدهشنى ايضا أننى لمحت فى ذلك اليوم فى حديث على أمين بداية حملة فاجأتنى ضد محمد حسنين هيكل . ولكننى لم أرحب بالحديث ولم أحاول أن اسأل أو أن أعرف . وقد كنت اتصور أن علاقة الاثنين من أوثق واقدم العلاقات حتى لحظة دخولهما معا إلى مكتبى قبل ايام كما رويت سابقا .

وكان قرار السادات فى وضع حاتم حكيما كما تبين لى من اليوم التالى . فقد قوبل على أمين بجو من العداء الشديد من كل من فى جريدة الأهرام ،

أصحاب الولاء الطبيعي لهيكل ومدرسة الأهرام ، كما أن على أمين كان يرى فى كل محرر أو عامل أو فراش مندوبا لهيكل وخصما له ، كذلك تبين لى بسرعة أن على أمين يريد تغيير شخصية جريدة الأهرام التقليدية إلى جريدة أشبه بشخصية الجريدة التى أسسها مع مصطفى أمين وهى أخبار اليوم .

وكنت قد قررت أن أعتزل الحياة الداخلية فى الأهرام تماما . وألا يربطنى بها إلا المقال الأسبوعى الذى أكتبه كل يوم أحد ، والتواجد فى المكتب بالقدر الضرورى لاستقبال الزيارات الهامة . ولكن دوامة الصراع العنيف بين على أمين وأسرة تحرير الأهرام كانت تتجاذبنى من أكثر من طرف بقوة وعنف . فالمحررون يجيئون إلىّ إما للشكوى من خناقاتهم مع على أمين وإما للاستعانة بى لاقناعه بالعدول عن اتجاه أو آخر يحكم علاقتى به . وعلى أمين يفعل الشىء نفسه ، ويحاول اجتذابى إلى وضع واقعى أكون فيه أقرب إلى وضع المستشار له . فهو يقرأ لى مقدما بعض ما يكتبه أو بعض ما يريد أن ينشره فى الجريدة .

وكنت أجد من حق الجريدة التى أنتمى اليها ، من جهة ومن حق العلاقة مع على أمين من جهة أخرى أن أتدخل أحيانا ، وأحيانا كنت أختفى عن الجميع .

ثم أشعر بأن علىّ مسئولية المساهمة فى حماية المؤسسة العريقة من العواصف ، فأعود إلى المعمعة من جديد .

وبدأت أشعر بأن على أمين أخذ يتململ من وضع الدكتور حاتم . ومن ذهاب المحررين إليه أو من تدخل حاتم فى بعض ما يكتب وينشر . وإنه يستعجل حدوث ما كان يتوقع من صدور قرار بترك حاتم للأهرام واستلامه له بالكامل .

ومن أطرف ما قاله لى على أمين يوما : أتعرف لماذا يتمسك الدكتور حاتم بمقعده ؟ . لقد اتصل به هيكل عقب التغيير مباشرة وهنأه وتمنى له التوفيق ولكنه رجاه فى أن يحقق له رغبة واحدة فى الأهرام ، وهى : ألا يترك على أمين يجلس على « كرسى المكتب » الذى كان يجلس عليه هيكل !

والحق أن على أمين أخطأ التصرف فى شىء أساسى . فقد حاول فعلا أن يغير ترتيب وتبويب الأهرام وصياغة صفحته الأولى ومانشتاته إلى ما يجعل الأهرام نسخة من أخبار اليوم . وكان هذا أكبر موضوع يجذبنى بالتدخل بينه وبين أسرة تحرير الأهرام واستغاثات المرحوم على حمدى الجمال مدير تحرير الأهرام .

وكثيرا ما كنت أقول لعلى الجمال ليلا بعد انصراف على أمين وتركه تعليمات معينة فى هذا الاتجاه أو عقب تلقى على الجمال برقية من على أمين من الخارج ، (من الجزائر مثلا حيث كان يوجد مؤتمر قمة عربية)

يأمر بتوجيهات معينة بهذا المعنى ، أنني كنت أقول لعلى الجمال : لاتنفذ هذه التوجيهات وقل لعلى أمين غدا أنني أنا الذى نصحتك بذلك وسأواجهه فى الصباح بأننى المسئول .

وكان هذا يحدث بالفعل . ولم تكن مهمة ترويض على أمين بالمهمة السهلة ، بشخصيته القابلة للثورة السريعة العارمة كالوحش والهدوء العاطفى السريع كالطفل ، خصوصا فى تلك الأيام التى كان يشعر فيها بكل نشوة وقوة انتصار العودة لا إلى مصر بعد تسع سنوات ولكن إلى الأهرام بالذات .ووجدت أن المنازعات بيننا تفاقمت بشدة وقررت أننى لا أستطيع الاستمرار نفسيا وعصبيا فى هذه الصراعات وعينى فى النهاية على إنقاذ المؤسسة التى أنتمى اليها . واتصلت ، كمحاولة أخيرة ، تليفونيا بمصطفى أمين ، وقلت له أننى اريد أن أجلس معه هو وعلى أمين بمفردنا ساعة على الأقل . واتفقنا على موعد أبلغه مصطفى إلى شقيقه وفى الساعة السابعة مساء أحد الأيام جلسنا فى مكتب على أمين بمفردنا .

ورويت لمصطفى أمين كل تصرفات أخيه وكان تركيزى الأساسى فى الحديث هو الهجوم على محاولة على أمين تغيير هوية « الأهرام » إلى ما يشبه هوية أخبار اليوم . وسردت له الأمثلة بالشرح والتحليل . وعلى أمين جالس يستمع إلىّ فى ذهول .

كنت أعرف أن مصطفى أمين أقوى أعصابا وأهدأ وأقدر على النظر الى بعيد بعكس أخيه . وقال لى مصطفى أمين : هل انتهيت من كلامك ؟ .

قلت له : نعم وقد اردت أن يكون هذا الحديث أمامك وآخر مرة أقول فيها هذا النصح وآخر مرة أحذر فيها من عواقب هذه السياسة . وأنا منسحب بعد ذلك تماما وليفعل على أمين بالأهرام ما يشاء .

وقال مصطفى أمين : أحب أن أقول لك أمام على أننى موافق على كل كلمة قلتها ! وأننى حدثت على أحيانا فى بعض ما حدثته أنت فيه ! وأننى أقول له أمامك الآن : أنه لا يمكن لعاقل أن يقدم على تغيير شخصية جريدة عمرها مائة سنة فى سنة واحدة ! هذه مغامرة صحفية مستحيلة ! وقلت له : الحمد لله أننى سمعت هذا منك وأنا أكرر أننى أعتبر أن مهمتى فى هذه القضية قد انتهت .

لم يعلق على أمين على الموضوع . وغلبت عليه وداعته المفاجئة واحساسه بأننى أخلص له النصح مهما قسوت فى كلامى . ولكنه انتقل بالحديث إلى وضع الدكتور حاتم وإلى وضع الأهرام بصفة عامة .

اذكر ذلك لأننى نظرت للتوأم الشهير وقلت لهما كلمة كانت كأنها نبوءة .

قلت لهما : ياعلى بيه ، ويا مصطفى بيه ، أرجو ان تفكرا بالعقل . أن وجود أحدكما على رأس أخبار اليوم ـ كان رئيس مجلس إدارة أخبار اليوم وقتها الأستاذ احسان عبد القدوس ولكن عودة مصطفى أمين إلى أخبار اليوم التى أسسها جعلته قائدها وموجهها الفعلى ـ ووجود ثانيكما على رأس الأهرام أى وجودكما على رأس أكبر مؤسستين صحفيتين فى البلاد

أمر لايمكن أن يستمر طويلا ! ثم إنه غير مقبول سياسيا ! إن كل فعل له رد فعل والاحداث كحركة البندول تتجه من طرف الى طرف . وهذه السيطرة الحاليةسيكون لها رد فعل لا اعرف عواقبه . وفى تقديرى أن تسبقا الاحداث وأن تقررا ماهو الوضع المنطقى والمقبول بالنسبة لكما فى الصحافة المصرية فى هذه المرحلة !

وينظر إلىّ الاثنان فى دهشة وتفحص ، ولا أذكر بماذا علقا على ذلك .

بعد شهور من وجود على أمين على رأس الأهرام بدأ الرئيس السادات يتصل بى ويطلبنى للذهاب إليه من حين إلى آخر ، ولكن ليس بكثرة .. وقبل ذلك كان على أمين يأتى احيانا من عند الرئيس ، ويروى مايريد أن يرويه لى من أخبار ، ولكنه كان يكرر علىّ فى أغلب الحالات : أن الرئيس السادات يحبك كثيرا وهو يحدثنى دائما عن مزاياك وقال لى اليوم كذا وكذا .. إلى آخره .

وكان على أمين يذكر لى هذا بمزيج من الارتياح والدهشة معا ، إذ كان يعرف بالطبع اعتراضاتى على بعض سياسات الرئيس السادات .

وعندما بدأت أرى الرئيس . كنت أحرص فى كل مرة على أن أبلغ على أمين مقدما بذلك وإذا عدت كان يهتم بالطبع كصحفى أن يسمع منى ما هى الأخبار . وكان يدهش حين أروى له المناقشات والآراء العامة التى تحدثنا فيها دون أى أخبار !

ورغم أن السادات ربما كان أقدر من رأيت فى حياتى على عدم إظهار حقيقة مشاعره - لا ينازعه فى هذه القدرة إلا الصديقان القديمان والعدوان اللدودان مصطفى أمين ومحمد حسنين هيكل - رغم ذلك فانه لم يكن صعبا علىّ أن أدرك أن أنور السادات لا يحب مصطفى أمين وعلى أمين على المستوى الشخصى . بل أكثر من ذلك كان يكن لهما شعورا عدائيا خفيا ، وأن استعانته بهما فى ذلك الوقت كانت ضرورة سياسية .

ويخيل إلىّ أن مصطفى أمين كان يدرك ذلك إلى حد ما . أما على أمين فيخيل إلىّ أنه لم يكن يدرك ذلك على الاطلاق .

وكان على أمين يسرف كثيرا فى الاتصال بالرئيس . وفى ملاحقته بطالب المواعيد والزيارات .. وفى ملء الجريدة بالاخبار والاقوال التى ينسبها إلى الرئيس مباشرة ، وأذكر بالتأكيد أننى حاولت أكثر من مرة أن أوحى إليه الا يزيد فى ذلك ولا يأخذ ترحيب السادات الظاهر به على محمله المطلق وأنه « إن كان حبيبك عسل .. ماتلحسوش كله » ولكننى أشك فى أن كلماتى قد قاربت حتى أذنيه .

وفى مقابلاتى مع السادات فى تلك الفترة لم يأت ذكر الأهرام ومايدور فيه مرة واحدة اللهم إلا يوم أن نشر على أمين عددا كبيرا من الأخبار المهمة والصغيرة بالصيغة التى كانت مفضلة لديه وهى أن يبدأ بعبارة « قال لى الرئيس السادات » ليؤكد لدى القراء ماكان يتصور أنه وضعه

المؤثر الجديد .. وقال لى السادات : غريب على أمين ده !! يأتى ويقول لى فى عرض الكلام : ما رأيك يا ريس لو فعلت كذا ؟ ويقول لى أحد أفكاره .. وفى اليوم التالى أجده قد نشر فكرته ، وقد نسبها إلىَّ بقوله « قال لى الرئيس السادات سأفعل كذا أو كيت » .

لم تترك مقابلاتى القليلة والطويلة للسادات فى تلك الفترة أى معنى معين لدى ، سوى أنها مناقشات صريحة جدا حول بعض أمورنا العامة ، قد أذكر منها ما أذكره بعد قليل ، ولم يخطر على بالى أنها تمهيد لأى شىء . وكالعادة أيضا لم أكن أعرف كل ما يدور وراء الستار .. حتى جاء يوم ابلغنى فيه على أمين ، ولا أحد غيره ، أننى مطلوب لمقابلة الرئيس غدا الساعة كذا فى استراحة القناطر ولكنه اضفى على هذا الموعد أهمية لم أنتبه إليها فى وقتها . صحيح أنه هو الذى أبلغنى وليس مكتب الرئاسة وأنه أخذ يؤكد علىَّ بكل وسيلة أن أعود من الموعد إلى مكتبه فى الأهرام مباشرة ، ولكننى رجحت أن ذلك امتداد لشخصية الصحفى الشغوف بالسبق الخبرى بالدرجة الأولى .

وذهبت فى الموعد إلى الرئيس السادات .. وبعد التحيات والمجاملات الأولى قال لى فجأة وبسرعة : « لقد قررت أن على أمين يجبَ أن يترك جريدة الأهرام فورا » ولما ابديت دهشتى وتساءلت قال لى السادات مستعملا التعبير الذى سمعته منه لأول مرة ثم أصبح من عباراته الشهيرة بعد ذلك : كنت أعرف من البداية أن على أمين لايصلح للأهرام وأن الأهرام لايصلح له . ولكننى عندما قررت إخراج هيكل قررت أن أقرن ذلك بصدمة كهربائية لكل من فى الأهرام . إن هيكل لم يكن رئيس تحرير جريدة ولكنه جعل من الأهرام حزبا واخطبوطا له اجهزته وصار كل واحد فى الأهرام يظن أنه هيكل صغير يشارك فى حكم البلاد ، ووجدت أن الصدمة الكهربائية التى تجعلهم يفيقون هى أن أرسل لهم على أمين بالذات .. عدو هيكل اللدود .

وقاطعته قائلا : ولكننى لم أكن أعرف ياريس أن هناك أية خصومة بين هيكل وبين مصطفى وعلى أمين إلا بعد أن جاء على أمين إلى الأهرام ، وبدأت حملته هو ومصطفى امين على هيكل .

وضحك السادات وقال لى : ألا تعرف أن هيكل من ناحية ومصطفى وعلى أمين من ناحية أخرى أعداء الداء من قبل ؟ هل تحاول أن تقنعنى أنك ساذج إلى هذا الحد ؟

وأقسمت له على صدق ما أقول . وقال لى السادات : كيف ينسى على ومصطفى لهيكل أنه جردهما أولا من العلاقة الوثيقة بعبد الناصر ، وجردهما ثانيا من العلاقة الوثيقة بالأمريكان ، وصارت اتصالات عبدالناصر الهامة مع الأمريكان من خلال هيكل وليست من خلال مصطفى وعلى .

وقبل أن أفتح فمي – ولم يكن لدى فى الواقع ما أقوله ـ استطرد قائلا : لقد قررت أن يعود علي أمين إلى جريدته ومدرسته في أخبار اليوم ، وأن يكون مصطفى أمين رئيس مجلس إدارة كما كان من قبل . وقررت ان تتولى أنت رئاسة تحرير الأهرام ، وأن ينفذ هذا كله من صباح الغد !!

كان لهذا الكلام وقع الصاعقة عليّ . فلم أكن أتصور أن السادات استرد حسن ظنه الشخصي بي بعد جبل الوشايات الذى يعزل كل حاكم لدرجة أن يضعنى فى هذا المكان بالذات . ولم أكن ارغب فى أن يكون قصده من ذلك استعمالي لاداء دور معين ، كما قال أنه استعمل على أمين ، ثم اننى كنت قد قررت منذ تركي رئاسة مجلس إدارة دار الهلال الا اتولى أية مسئولية صحفية إلا مسئوليتي عن نفسي . اى عن الكلام الذى أضع اسمى عليه ، بعد أن حفلت الصحافة بتيارات بالغة السوء وصار كثيرون من مندوبي الصحف لدي جهات السلطة والحكومة مندوبين لجهات السلطة والحكومة لدي الصحف ! وصار الصحفي لا يعمل لمستقبله من اجتهاده وعلاقاته داخل المؤسسة ولكن من علاقاته بالجهات ذات السلطة على الصحافة خارج المؤسسة حسب الظروف (رئاسة الدولة أو رئاسة الوزارة او وزارة الاعلام أو أجهزة المخابرات والمباحث العامة والأمن !!) .

وحين أقول إن الدنيا دارت بى فاننى لست أبالغ على الاطلاق . كنت أدرك فوق ما سبق كله أننا نتوغل فى مرحلة بالغة الاضطراب فى حياتنا ومفاهيمنا السياسية لايعرف إلا الله ماذا سيحدث فيها . وكانت معرفتي بأن السادات له ظاهر وباطن تبعد عني فكرة العمل المباشر معه ، وضرورة الاحتفاظ بمسافة بيني وبينه . وكنت فوق هذا وذاك أمر بأزمة صحية متعددة الجوانب ، حتى اننى بالمصادفة كنت قد حصلت من الأهرام ـ بموافقة على امين والدكتور حاتم ـ على اجازة لمدة شهر للسفر إلى لندن للعلاج . واتممت كل الاجراءات من حجز الفندق إلى حجز مواعيد مع الاطباء . وتذكرت ان فى جيبى يومها بالمصادفة جواز السفر وتذاكر السفر ، وبدل السفر النقدى الذى صرفته لى جريدة الأهرام .

ولكنني بدأت كلامي مع السادات .. بالحجة الأولى وهى أننى لا اريد من حيث المبدأ ان اكون رئيس تحرير اية جريدة او مجلة او رئيس مؤسسة صحفية . وقلت له أنه شخصيا يعرف هذه الرغبة عني من قديم . وقصة ذلك أنني في سنة ١٩٦٦/٦٥ وكنت رئيسا لمجلس إدارة دار الهلال وسطت أنور السادات بالذات لدى جمال عبد الناصر عدة مرات لكي يعفيني من هذه المهمة .

كنت أقول للسادات أن ينقل لجمال عبد الناصر رأيي في أن رئاسة المؤسسة الصحفية يجب أن تكون لمدير إدارى فى الدرجة الأولى وعلى أعلي مستوى وأن يكون الصحفي رئيسا للتحرير فقط . وأن هذا هو الوضع

فى العالم كله إلا فى حالات الصحفيين الذين أنشئوا مؤسسات صحفية .

كنت اقدم له هذا الاقتراح مدروسا مفصلا وركيزته أن يحدد اختصاص رئيس التحرير بحيث يضمن عدم تدخل رئيس مجلس الادارة فى سلطة رئيس التحرير بأى شكل كان . حتى من الناحية المالية .. المؤسسة تحدد ميزانية للعلاوات والترقيات والمصروفات والرحلات الصحفية إلى أخره بحيث تكون سلطة رئيس التحرير فى التصرف كاملة فى حدود ذلك بالنسبة لجهاز التحرير شاملة كل شيء صحفيا وماليا واداريا ويتفرغ رئيس مجلس الادارة لسائر المشاكل الصحفية والمالية والادارية والطباعية والعمالية الضخمة .

كنت قد جربت فى عضوية مجلس إدارة أخبار اليوم ـ عقب التأميم مباشرة ، ثم بصفة خاصة كرئيس لمجلس إدارة دار الهلال ـ كافة المشاكل الهائلة التي لا علاقة لها بالعمل الصحفي والسياسي نفسه . واشتريت مطابع واقمت مباني وبعت واشتريت في ورق الصحف ، وحاربت في جبهة الاعلانات ، وواجهت اللجان النقابية ولجان الاتحاد الاشتراكي في المؤسسات في ذلك الوقت حول قضايا الميزانية والأرباح وغيرها .

ورغم أنني كنت رئيسا افوض اكبر جزء من المسئوليات إلى غيرى من كبار المختصين بعد حسن اختيارهم فإن رئيس مجلس الادارة يبقى هو المسئول أمام الدولة وأمام الناس وأمام العاملين في المؤسسة وبالتالي فهو مضطر إلى أن يقاسي مع كل قرار . وكان اقتراحي المستمر أن تبدأ التجربة بي فيعين زميلي مصطفى بهجت بدوى عضو مجلس الادارة المنتدب لدار الهلال ، والصحفي والكاتب والشاعر إلى جانب ذلك رئيسا لمجلس إدارة دار الهلال وان اعين أنا مديرا عاما لتحرير كل مايصدر عن دار الهلال من مجلات ومطبوعات .

وكان أنور السادات يحمل الاقتراح للرئيس عبد الناصر ويعود إليَّ بالرفض ، حتى قال لي نهائيا : الرئيس عبد الناصر يقول لك أنس هذا الموضوع تماما . فرئيس مجلس إدارة مؤسسة صحفية ليس كرئيس مجلس إدارة الحديد والصلب . هذا منصب سياسي في الدرجة الأولى وإن كان اسمه « رئيس مجلس إدارة » . وأذكر أنني بناء على ذلك قررت ترك العمل الصحفي فيَ مصر فترة من الزمن ، وبالفعل عثر اصدقائي على وظيفة لي في اليونسكو في باريس لمدة سنتين . ولكن جاء الدكتور ثروت عكاشة فجأة وزيرا للثقافة وهو رجلنا الأول في اليونسكو وعلم بالأمر واستدعاني فجأة وسألني عن مدى صحة الخبر فقلت له نعم فقال لي إنها وظيفة صغيرة بالنسبة لك . فقلت له : إنني لا أطلب مستقبلا في اليونسكو المهم أنها تعطيني المرتب الذي أعيش به مع أسرتي في نفس المستوى الذي أعيش به هنا . فقال لي أنه تصور حين علم بالأمر انني مغضوب عليَّ . وأنه أتصل بجمال عبدالناصر وسأله عن سر الغضب عليَّ الذي

يدفعني إلى السفر إلى باريس .

فدهش عبد الناصر ونفى له علمه بأى شيء من ذلك . وقال له : (وأنا اروى عن الدكتور ثروت عكاشة) أنه يعرف أن جماعة الاتحاد الاشتراكي يضايقونني ولكنه يرجو مني ألا أهتم بذلك كثيرا .

على أية حال فقد قامت حرب ٦٧ بعد ذلك ولم يعد واردا ان أفكر فى السفر .

ذكرت الرئيس السادات بكل هذا ، وكان يعرفه ، لاقنعه بأننى أعتذر عن عدم قبول رئاسة تحرير الأهرام من حيث المبدأ ولهذه الأسباب القديمة .

ولكنه رفض الاقتناع بكلامى ورفض اقتراحى عليه أن يعين أى شخص آخر رئيسا للتحرير ويمكنه اعتبارى مستشارا إلى جانب اي رئيس تحرير يختاره .

وأخيرا لجأت إلى العذر الصحى وقلت له أننى موشك على السفر بعد أسبوع وأخرجت له من جيبى جواز السفر وتذكرة الطائرة فرفض .. واقترحت عليه أن يؤجل القرار شهرين حتى أسافر وأعود فى حالة صحية أحسن . فقال لى أنه قد تحدث معى بطريقة يعتقد أن على أمين قد فهم منها الخبر الذى يخصه فعلا . فقلت له إن الأهرام يستطيع أن يستمر بكل ثبات بجهازه الحالى وبمدير تحريره على الجمال هذين الشهرين ، وكان أملى فى الواقع من التأجيل أن يتسع الوقت لإقناعه بالعدول .

وكان الرئيس السادات يمر بفترة يكره فيها المرحوم على حمدى الجمال كراهية شديدة دون معرفة شخصيته ولا يطيق سماع اسمه لأنه رأس كنقيب الصحفيين مرة جمعية عمومية صاخبة لنقابة الصحفيين هوجم فيها السادات هجوما شديدا . واعتبره إما مسئول ، وهو أمر غير صحيح ، وإما أنه عجز عن السيطرة على الجمعية العمومية والسيطرة على الجمعية العمومية لنقابة الصحفيين دائما أمر مستحيل . وصار يسميه من يومها « ميمى بيه » وصاح فىَّ : تريد أن تترك الأهرام شهرين « لميمى بيه » وكل رجال هيكل مازالوا هناك وعلى رأسهم « ميمى بيه » نفسه ؟

وقد طال الحوار الى ما بعد الظهر ، ولم أكن أعرف أن على أمين كان يستفسر تليفونيا من حين إلى أخر عما إذا كنت مازلت عند الرئيس أم لا ، متعجبا بالطبع لطول الوقت . وقال لى السادات : تسلم رئاسة تحرير الأهرام غدا صباحا وبعد شهر سافر للعلاج كما تريد . وطلبت من السادات طلبا أخيرا سخيفا قلت له : ألا يعلن الخبر إلا بعد ثلاثة أيام ، سأقضيها فى البيت التقط فيها أنفاسى واتدبر بعض أمورى ، فوافق . وهممت بالنهوض للانصراف ثم تذكرت فجأة وضع الدكتور عبدالقادر حاتم كرئيس لمجلس إدارة الأهرام . وقلت للرئيس السادات : إن علاقتى بالدكتور حاتم الشخصية ودية ، ولكن الدكتور حاتم لطول تعوده ممارسة السلطة كوزير وكنائب رئيس وزراء وكنائب أول يرأس الوزارة واقعيا ، ولغرامه بمهنة

الإعلام ، لايمكن إلا أن يتدخل .. وقد كان يتدخل في الجريدة أيام على أمين بل وأحيانا بالحذف في مقالات على أمين نفسها ، وطلبت إليه تحديد هذه العلاقة بوضوح تام وقلت له : أنا غير مهتم برئاسة مجلس الإدارة كما ذكرت ، ويسعدني أن يبقى فيها الدكتور عبدالقادر حاتم ، ولكن يجب أن يكون واضحا أن لا أحد غيري له أية سلطة على أى شيء له علاقة بالتحرير ، ولذلك طلبت أيضا أن يصدر القرار بتعييني « رئيسا لتحرير الأهرام ومشرفا على كل مايصدر من مؤسسة الأهرام من مطبوعات » . فهذا يشمل كل فروع التحرير من مركز الدراسات الاستراتيجية إلى مجلة الطليعة إلى الأهرام الاقتصادي إلى آخره .

وأكد لي السادات أن هذا هو ما سيكون . وقال لي : سأرسل ممدوح سالم (وزير الداخلية في ذلك الوقت) إلى حاتم في منزله يبلغه هذا الاتفاق بدقة تامة . ثم ضحك السادات ضحكته ، حين كان يحب أن يقول شيئا يظهر به خبرته في سبر أغوار الرجال وقال لي : وعلى فكرة ممدوح يحب القيام بمثل هذه المهمات !

وصحبني الرئيس السادات إلى باب الاستراحة . وفجأة تذكرت شيئا آخر وقلت له : إذا كان مصطفى أمين أو على أمين سيصبح رئيسا لمجلس إدارة أخبار اليوم فما هو مكان إحسان عبدالقدوس في هذه التغييرات ؟ فتوقف السادات عن السير ووضع يده على كتفي وقال : لا تخف على إحسان أنت تعرف مكانته الخاصة عندي وهي مكانة لم تتغير . ولكن إحسان (دلوعة) وقد زاد دلعه أكثر من اللازم . أنه يريد مني أن أخوض له أصغر معاركه ولايتحمل مسئولياته بنفسه .. وأنا في أيه ولا في إيه ؟ سينتقل إحسان كاتبا في الأهرام . إن هذا يريحه ، فهو قد ترك السياسة واقعيا من زمن طويل وهو « يتمتع » دائما لأن المنصب الصحفي يضيع عليه كتابة القصص وبيعها للسينما ، فليكن له ذلك . أنه سيغضب أول الأمر ، ولكن مكانته الشخصية محفوظة عندي وهو يعرف ذلك جيدا فعلاقتنا لاعلاقة لها بالمناصب الصحفية .

ركبت السيارة متجها إلى الأهرام حيث وصلت مع الغروب . وذهبت فورا إلى مكتب على أمين ، وأنا لا أدري كيف سأبدأ معه هذا الحديث وكيف انتهي منه . وعندما دخلت عليه كان في حالة ترقب هائلة واجلسني وطلب لنا فنجانين من القهوة وقال لي : إنه علم بوقت انصرافي من عند الرئيس ، وطلب إلى مصطفى أمين أن يحضر ليكون معنا .

هدأ هذا الاحتشاد لاستقبالي من روعي ، فلابد أنه يعرف ، مما يجعل مهمتي أسهل ، إذ كيف يسمع مني لأول مرة أنني مكلف بالجلوس في مكانه ؟

وصل مصطفى أمين بعدى مباشرة ، وتذكرت على الفور حديثى القديم وقد تحقق التوقع واستحال بقاؤهما على رأس أكبر مؤسستين صحفيتين في البلاد .. ورويت خلاصة قصتي بالاختصار الممكن والهدوء الممكن . وبعد أن انتهيت ، قال على أمين لأخيه فى صوت فيه مزيج من الحيرة والغضب والابتهاج فيما أظن بالعودة إلى أخبار اليوم أيضا : ما رأيك يا مصطفى ؟

كان رد مصطفى أمين ، رغم هدوئه المعتاد ، غاضبا قاطعا كالنصل الحاد : رأيي أن هذا « شلوت » من السادات لك ولي .. أنه ضربة ضدك ! فبعد الخلافات العنيفة فى الأهرام وبعد الحملات عليك فى صحف ومجلات أخرى ، يجيء هذا القرار وكأنه حكم بفشلك فى إدارة الأهرام بعد هيكل .

وتدخلت محاولا تخفيف هذا المعنى وحاولت تذكيرهما بحديثى القديم من أن وضعهما كان من البداية غير قابل للاستمرار .

رد مصطفى أمين بالهدوء القاطع نفسه : كلا .. أنا لا أعترف بذلك ! إن السبب فى هذا كله هو إحسان عبد القدوس . فمنذ عودتى إلى أخبار اليوم بعد خروجى من السجن ، والمظاهرة التى استقبلتنى بها أخبار اليوم ، وإحسان عبد القدوس لايطيق وجودى فى الدار مع أنه رئيس مجلس الادارة . لقد طلب محررو الأخبار إقامة حفل تكريم لى فرفض وقال ان فى هذا اهانة له . أنه يتصور أن كل تحية لى عمل موجه ضده ، أنه يقول لكل من يقابله أن مصطفى أمين يوجه كل الدار ويحاول جعلى « طرطورا » أنه يلوم كل محرر يزورنى فى مكتبى . ومعلوماتى المؤكدة أنه أخذ « يزن » على أذن صديقه « أنور السادات » وأمله الذى تصوره هو أن يعود على أمين إلى أخبار اليوم وأنه بالتالى سيعين رئيسا لمجلس إدارة الأهرام .. وهذا مايريده . الآن سيفهم أن أنور السادات يعرف أنه لايستطيع أن يكون رئيسا لمجلس إدارة الأهرام او أن يصدر جريدة يومية .

كانت جلسة صعبة على أعصابي وأعصابهما بالتأكيد . وحاولت عن اقتناع ان أقول لهما أن وجودهما معا مرة أخرى على رأس اخبار اليوم هو الوضع الطبيعي بصرف النظر عما يحدث فى الأهرام . وكان غريبا أن أجد على أمين المتأثر بالقرار أكثر تقبلا لهذا المنطق من مصطفى أمين الهادىء القوى الأعصاب بطبعه . كان يؤكد ـ أن لم يقل ذلك بصراحة ـ أن هذه بداية موجة مضادة ضدهما استسلم لها أنور السادات ، وكنت أشعر بما ذكرته قبل من أن مصطفى أمين بذكائه الخارق يحس بأن أنور السادات لا يحبهما كما كان يتصور على أمين .

وتركتهما وذهبت إلى بيتى لارفع سماعة التليفون ، وانقطع عن العالم يومين للراحة ، قبل الذهاب لتسلم رئاسة التحرير مرة أخرى .

قضيت اليومين فعلا فى محاولة الراحة ونسيان كل شىء وليس فى التفكير فى اى شىء مما أنا مقدم عليه . والواقع ـ اعترفت لنفسى ـ يومها أن كل ماقلته للسادات من أسباب للاعتذار عن رئاسة التحرير لجريدة الأهرام كان غير صحيح .. فكل إنسان فى مهنته لاشك يتطلع إلى أن يحقق ذاته ويشبع هوايته بالوصول الى قمتها .. ورئاسة تحرير جريدة يومية قوية ومنتشرة هو قمة تحقيق الذات واشباع الهواية والحرفة لأى صحفى ، ولكن المرء يصبح اقل رغبة وأكثر زهدا فى ذلك إذا جرب هذه القمة مرة أو مرتين .. فيكون قد ذاق حلاوة الأمر ومرارته معا . والاشراف على إصدار جريدة قوية وواسعة الانتشار لايعادله شىء فى إشباع غرام الصحفى ، وهو ينطوى على امكانيات هائلة للتأثير فى الرأى العام على جبهة واسعة تمتد من الرياضة وملابس النساء وتذوق الفنون إلى السياسات بكل أنواعها ، لمن يأخذ الصحافة بمعنى الرسالة والخدمة العامة .

بهذه المعانى لم أكن زاهدا فى المنصب أو ما يعادله ، ولكننى كنت قد كونت خلال عملى الصحفى المتنوع قناعة بأننى لن يكتب لى هذا الحظ فى الظروف التى أريدها .

أمنية أن يرأس المرء تحرير جريدة يومية قوية ويشكلها طبقا لمخطط وفكرة فى رأسه يعتقد أنها تقدم للقارىء جريدة تنقصه ، لها طابع متميز ، يصعب تحقيقها فى ظروف صحافتنا فى المرحلة التى عشتها ، كما أنها ليست مرحلة قيام كاتب أو صحفى باصدار جريدة بإمكانيات بسيطة ..

صارت الصحافة صناعة كبرى .. الذين سبقوا نجحوا بعد البداية فى النهوض وإقامة الامبراطوريات الصحفية المعروفة التى لم يعد ممكنا اقامتها بجهود فردية مستقلة . والآن لاتوجد إلا هذه الامبراطوريات .. وزاد على ذلك ولاية الدولة على الصحافة منذ قيام ثورة ١٩٥٢ سواء قبل التأميم أو بعده .

وبعد التأميم بالذات صار قرار من يكون هنا أو هناك ليس ملكا للكفاءة ولا للمهنة ولا للقارىء ولا للمؤسسة الصحفية . فقد كنت مثلا سعيدا فى عملى كرئيس تحرير الأخبار من حيث اللقب وكرئيس فعلى لتحرير اخبار اليوم ، ومع ذلك كنت غائبا فى الجزائر حين صدر قرار بنقلى أو بترقيتى من الناحية الادارية ـ والتى لا تهمنى طبعا ـ إلى رئاسة مجلس إدارة دار الهلال . وحاولت التنصل من هذا القرار . فقد كنت أعرف كل المؤسسات الصحفية وازورها وأخالط العاملين فيها ، ما عدا دار الهلال التى كان طابعها البعد التام عن مجرى التأثير السياسى . وقلت إن نقلى من جريدة يومية هى اوسع الجرائد انتشارا إلى مجلات أسبوعية بالنسبة لكاتب سياسى كنقل مطرب من ميكرفون الاذاعة إلى ميكرفون فى سرادق وأن هذا قرار ضدى !!

وامتنعت عن تسلم عملي في دار الهلال حوالي شهرين . وكنت اعتقد ولا ازال أنه قرار غير برىء قصد به « تحديد إقامتي » في سرادق كما ذكرت ، بدلا من موجات الأثير الواسعة ، ولكنه كان قد قيل للرئيس عبد الناصر إن مطبوعات دار الهلال - وهذا صحيح - تمثل ثلثي كل ماتصدره الصحافة المصرية جميعا إلى العالم العربي وأنني باهتمامي التلقائي لا الرسمي بالقضايا والبلاد العربية خير من يكون واجهة صحفية لمصر في العالم العربي .

ولما كانت هذه القرارات لايؤخذ فيها عادة رأى الخبراء ، فلم يقل أحد إن معظم هذا الحجم من التصدير هو روايات مترجمة ومجلات للمرأة وللأطفال إلى آخره ، وهي مجالات هامة ، ولكن ليس لها علاقة بالتأثير الفكرى بين التيارات السياسية العامة .

ثم أن رئاسة تحرير جريدة يومية في هذه الظروف تتطلب استعدادا للموافقة التامة والمطلقة لاتجاهات الدولة ، فقد يقبل نشر مقال مخالف ولكن لايمكن أن يقبل أن تكون روح الجريدة كلها بصفة عامة مخالفة لاتجاه الدولة في قضية من القضايا العامة .

وفوق كل هذه المحظورات التي جعلتني اتخلى تماما عن رغبة رئاسة تحرير جريدة يومية ، كانت هناك معرفتي السابقة بأنور السادات وبعيوبه وحسناته . ولم اكن أرغب في صدام آخر قد يكون أكبر وأضخم ويمنعني من العمل الصحفي . وكنت أفضل ان أبقى قادرا على مخاطبة الرأى العام في حدود مقال كل اسبوع على ان ارتطم بما يحول بيني وبين القارىء .

كانت هذه هي الأسباب الحقيقية لمحاولتي العنيدة في الرفض ، وليست الاسباب التي حاورت وداورت بها مع أنور السادات .. ولكن ارادتنا لا تتحكم دائما فيما نجد فيه أنفسنا من مواقف .. وهكذا كان ما كان .

كانت فترة عملي في رئاسة تحرير الاهرام هي اكثر فترات اتصالي بالرئيس السادات وان لم تكن أهمها كما سيتبين بعد قليل .

كانت أكثر فترات اتصالي به بحكم طبيعة العمل نفسه . فرئيس تحرير أهم جريدة لابد أن يتصل بالرئيس تليفونيا مرارا خصوصا مع رئيس كالسادات يهوى الصحافة ويهتم بها . بل لقد لاحظت أنني عندما كنت لا اتصل به حين لا أجد مبررا لذلك يعاتبني على عدم الاتصال . كنت أقول له إنني أظن أن مهمتي أن أخفف عنه مسئولياته ولا أضيف اليها . وكان يأخذ عليَّ أنني لا أشكو له من مشكلة قط . وكان يحب أن يتصل به الصحفيون عموما ويحكوا له الحكايات . كذلك بحكم العمل أيضا من الطبيعي أن أبدأ أنا بطلب مقابلته من حين لآخر وأن يستدعيني هو من جانبه بأكثر كثيرا مما كان يحدث قبل ذلك .

والغريب الذي أسجله للسادات أنني لا أكاد أتذكر مشكلة هامة قامت بيني وبينه حول ما ينشر في الجريدة . لم تكن مرحلة خلاف سياسي حول قضايا هامة كالخلافات التي ظهرت بعد ذلك . ومع ذلك فقد كان إذا اختلفت الجريدة أحيانا عن شيء يراه ويظهر في الصحف الأخرى ، فقد كنا نتناقش فيه ومناقشات تتسم بسعة الصدر والتفهم ، وكان قابلا لأن يقتنع بغير مايرى وأن يوافقنى فيه ، وكنت من وقتها أقول لزملائي ولمسئولين في أماكن أخرى ، ومازلت أقول لهم ذلك : إن رؤساء الدول قابلون للمناقشة ! وأي رئيس إذا سمع نقاشا لكلامه ينطوى على حجة وإقناع وفهم ويعبر عنه بطريقة لائقة تراعي حساسياته كرئيس ، فإنه في الاغلب يقتنع . لأن النصيحة الصادقة ستكون بطبيعتها لمصلحته . ولكن اكثرهم لايفعلون ! والمشكلة في الأغلب تكون حين يكون « صاحب النصيحة » مطعونا فيه مقدما لدى الرئيس بآلاف التهم غير الصحيحة وهو لا يعرف . فهذا يجعل كلامه من البداية بالطبع غير مقبول .

ولكن كانت هناك مشاكل من نوع آخر .

أو لعلها ليست مشاكل بالمعنى الكبير للكلمة ، ماعدا مشكلة واحدة كانت أول ماقابلني مع الرئيس السادات واستمرت معلقة زمنا طويلا ربما إلى يوم أن تركت رئاسة تحرير الأهرام .

بدأت اشعر بسرعة بأن الرئيس يكره محمد حسنين هيكل أكثر مما تصورت أول الأمر .

لم يكن هذا في الانتقادات التي يوجهها إليه والتي لم تخرج عن أن هيكل تعود أن يكون شريكا في الحكم أيام عبد الناصر ، يشكل الوزارات ، يصنع القرارات ، في حين أنه ـ أي السادات ـ لا يقبل ذلك . وأنه على حرصه الشديد على الاستعانة بكفاءة هيكل إلا أنه حاول عبثا أن يجعل هيكل يعمل معه بشروطه ، لابشروط هيكل ، ولكن هيكل تصور أنه صار مركز قوة من نوع آخر غير قابل للعزل .

ولم يكن شعوره المتزايد بالنقمة على هيكل شخصيا هو المشكلة ، فقد حددت له موقفي ، وقد كان يعرفه مسبقا من أنني وهيكل صديقان على المستوى الشخصي والمهني والعائلي ايضا . وكان يقول أنه يقدر ذلك تماما ، وانتهى الأمر . كما أنني تعودت ألا أخوض معه أو مع غيره من أهل السلطة في أي حديث يتصل بشخص صحفي آخر . لأن اى حديث عن زميل في المهنة يسهل تفسيره على انه محاولة دسيسة أو محاولة إسداء خدمة . في حين أنني لو تحدثت عن رئيس وزراء او وزير مثلا فليس في الأمر شبهة المنافسة المهنية . وبالمثل كان يعرف علاقتي بعلي امين إلى اخره ، ولكن المشكلة أنني بدأت اشعر بأن نقمة السادات على هيكل قد تعدت شخص هيكل إلى جريدة الأهرام ذاتها . كنت اشعر بانه يكره جريدة الأهرام فعلا . وأحيانا كنت اشعر بأنه يتمنى لو أغلق عينيه وفتحهما فلا يجد الأهرام . الأمر الذى جعلني أيام رئاسة علي أمين وأول أيام رئاستي

أشعر بقلق جدى وخطير على المؤسسة لا أظن إلى اليوم أنه كان على غير أساس .

وأنني أجرؤ على الاعتقاد بأنني ساهمت بدور كبير فى حماية مؤسسة الأهرام قبل أن يبرد عداؤه لها ويحولها إلى مصلحة بدلا من أن يدكها على رءوس من فيها .

كان يشعر بأن الأهرام مازال وسيظل « هيكليا » مهما حدث . وكنت أعرف أن أخبار زيارات بعض المحررين لهيكل تثيره جدا . وفى صحفنا ، لا تخلو صحيفة على الإطلاق من « محررين نشطين » يعكفون على كتابة التقارير إلى أصحاب السلطة مع اختلاف فى المستويات : بداية ممن يرتفع مستواه إلى الكتابة الى رئيس الدولة رأسا إلى من لايزيد مستواه على الكتابة إلى المباحث . وهى كتابات أثرت كثيرا فى حياة الصحافة والصحفيين وعلاقات المهنة بالسلطة .

ولا أشك فى أنه كان يتلقى قدرا هائلا من التقارير عن علاقات بين هيكل والأهرام .

وكان يعتقد أن هيكل قد جعل من الأهرام مؤسسة خطيرة ذات أجهزة غريبة .

كان هناك « الدسك » DESKوهو الاسم الذى نطلقه على « سكرتارية التحرير المركزية » . وكان هناك « مركز الدراسات الاستراتيجية » وكان هناك « قسم معلومات » إلى آخره . وكان يعتبر هذه أجهزة شيطانية أسس بها هيكل ليس جريدة ولكن حزبا سريا يستطيع أن يقوم بأدوار خطيرة .

هكذا كان يفاجئنى السادات أحيانا بملاحظات من نوع : المركز الاستراتيجى ده يا أحمد أنا مش مستريح له أبدا . ده كان هوه اللى بيغذى هيكل بمادة مقالاته ويغذى عبد الناصر بالمعلومات التى تناسب هيكل . لازم تشوفلك فيه طريقة .

مثل هذه الملاحظة كانت تتردد من حين لآخر بنفس الطريقة . وكنت أقول له نفس الرد : ياريس أنا أعرف العاملين فى هذا المركز واحدا واحدا وأستطيع أن أتحدث عن كل شخص منهم . إنهم شبان مستعدون للعكوف على دراسة أى شىء يكلفون بدراسته . وكل ما يصدر عنهم من مطبوعات ، أقرؤه جيدا ولم يكن عبثا أننى طلبت إليك أن ينص قرار تعيينى على أننى مسئول أيضا عن كل مايصدر عن جريدة الأهرام من مطبوعات . أريدك ياريس أن تدلنى على مقال واحد أو كتيب واحد فيه مايثير الاشتباه فى مقصده أو أمانته العلمية .

ولم يكن السادات يقرأ دراسات المركز . فلم يكن قارئا بطبعه ولكنه كان طبعا يحس أنه من مخلفات وآثار هيكل وإذن فأن من فيه هيكليون . وليسوا أكاديميين لديهم القدر المطلوب من التجرد الفكرى .

كذلك « الدسك » ، فمن حين لآخر كان يقول لي نفس الشيء : يا أحمد انت مش واخد بالك من « الدسك » دول أخبث ناس في الأهرام ؟ هيكل منقيهم واحد واحد أنا يصلني كلامهم وتعليقاتهم كلها (السكرتارية المركزية التي هي الدسك تجلس حول مائدة في وسط صالة التحرير تماما وأمام الجميع وعلى مسمع منهم) لسه هيكل بيلعب بيهم وبيدسوا حاجات في الجرنال . فكان ردي أيضا تقليديا : إنني جديد نسبيا على الأهرام ولا أعرف شخصيا مئات المحررين فيه ، ولكنني أعرف بالتحديد أعضاء الدسك الذين يتراوح عددهم بين ثمانية وعشرة أشخاص . ثم أنني اجتمع بهم مرتين يوميا : الساعة الثانية عشرة ظهرا لنقرر موضوعات الصفحات الداخلية وشكل الجريدة عموما . ومرة ثانية الساعة الخامسة لاعداد الصفحة الأولى والاستماع إلى اية ملاحظات من أي محرر عن أي صفحة يمكن استدراكها في الطبعة الصادرة في اليوم التالي .

كنت دائما أشرح هذه الأمور وغيرها عن الجريدة بالتفصيل وبأناة وصبر محاولا أن اشرح للرئيس تفاصيل العمل اليومي للجريدة من اجتماع التاسعة صباحا مع رؤساء الأقسام إلى السهر حتى أتسلم أول نسخة من طبعة الغد حوالي الساعة الحادية عشرة ليلا ، مؤمنا بأن من يفهم تفاصيل الشيء يأنس إليه وتقل شكوكه فيه .

وأذكر مرة أنه كرر لي نفس الملاحظة عن « الدسك » ودائما بدون تحديد مأخذ معين ، إلا ضرورة التخلص من كل من فيه . وحاولت أن أغلق هذا الباب نهائيا . فقلت له في غضب لم أسيطر عليه كثيرا : ياريس ، اسمح لي ، أنت في الواقع تتهمني بالبلاهة ، وعدم الكفاءة . فأنا أرأس هذا الدسك مباشرة وأجلس وسط أفراده بالساعات يوميا وتصورك أنهم يمكن أن يلعبوا بي أو يمرروا من تحت أنفي ما لا أوافق عليه هو في الواقع ليس اتهاما لهم بقدر ما هو اتهام لي بالغفلة والبلاهة والذي يستحق التغيير في هذه الحالة هو أنا وليس فلانا أو علانا .

ولم يعد بعد ذلك الى حديث الدسك مرة أخرى .

وكنت عندما توليت رئاسة تحرير الأهرام قد قررت أن أضع في الصفحة الأخيرة ـ وهي مكان بارز ومقروء ـ « بروازا » بعنوان "وجهة نظر" وأعلنت أن هذا الباب من حق أي محرر في الجريدة من اقدم محرر إلى أي محرر تحت التمرين أن يكتب فيه . وأنني سأختار ما ينشر فيه كل يوم على أساس الجدة والجودة والمناسبة بصرف النظر عن الأسماء . وقد قاومت كل رئاسات الأهرام وقتها إنشاء هذا الباب . ولكنني قلت لهم أن الأهرام تعود أن يعيش على كتابات هيكل وأخباره وأنه الآن محتاج إلى أن يحتفظ بمكانته إلى ان يعيش على أخبار وكتابات كل من فيه ، وأنه خلال شهور أو سنة سيظهر في هذا الباب ويلمع عشرات الكتاب الجدد الذين لم تتح لهم الفرصة .

ونجح الباب نجاحا كبيرا وتحمس له الشباب المحررون ولمعت فيه أسماء أمام الجمهور لأول مرة ككتاب رأى . وكان طبيعيا أن يكون مذاق الباب حريفا في النقد أكثر من المعتاد في ذلك الوقت وفي الأهرام بالذات .

وبدأ السادات يشكو من كتابات هذا الباب . ثم لاحظت أن شكواه ليست من درجة حرارة النقد فيه ولكن من اسماء معينة . وكان سهلا أن الاحظ أن بعضها أسماء عرفت بصداقتها لهيكل اكثر من غيرها ولكنه كان يقول لى : يا أحمد فلان هذا شيوعى ، ويكون ردى عليه : يا ريس ده سبق حبسه لأنه من الاخوان المسلمين ! ، أو تكون الملاحظة والرد بالعكس مثلا .

وقد عرفنا بعد سنوات أنه كان في صالة التحرير كاتب تحرير يزود الرئاسة بالمجلدات من التقارير عن النكتة التى قالها هذا و الكلمة التى قالها ذاك ولم نعرف ذلك الا حين كوفىء صاحبنا بمكافآت ضخمة في عهود تالية لمرحلة رئاستى للتحرير وبناء على طلب من السادات .

وقد تأكد لى وقتها إلى أى حد بلغ تسرب أتفه الأشياء عن الدسك أو عن الجريدة طبعا ، عندما اخترنا في اجتماع الدسك يوما ـ كصورة للصفحة الأولى صورة ـ يظهر فيها الرئيس السادات وهو يعانق « أبو عمار » مستقبلا له . وفى اليوم التالى عرضت علينا صورة مطابقة تقريبا لنفس الصورة والرئيس يعانق « أبو عمار » مودعا له ، وقلت إننا هكذا سننشر نفس الصورة مكررة على يومين . واخترت بدلا منها صورة لرئيس وزراء المغرب الذى كان قادما إلى القاهرة فى مهمة .

وبعد مدة ، قابلت « أبو اياد » ، الذى ضحك وقال لى : أبو عمار عاتب عليك . فسألته لماذا ؟ فقال لي : يقول انك رفعت صورته يوما من الصفحة الأولى وفضلت عليها صورة لرئيس وزراء أو وزير خارجية المغرب !!

ودهشت طبعا لسرعة انتقال هذه الحكاية التافهة ، وشرحت له « أبو إياد » القصة وضحك أبو إياد وقال : إن الأمر مجرد مداعبة من « أبو عمار » .

والمشكلة نفسها كانت تتجدد مع السادات حول مجلة الطليعة ، كان دائم الشكوى من ماركسيتها الصريحة وكان يضغط علىّ بطريق مباشر أو غير مباشر لكى أجد حلا لتصفيتها .

وذات يوم كنت جالسا معه عندما دق جرس التليفون ، وفهمت أن المتكلم معه يحدثه عن عدد مجلة الطليعة الصادر في اليوم التالى وأن فيه كذا ، وكيت من المواد الشيوعية والماركسية الصارخة .

وبعد أن وضع السادات سماعة التليفون قال لى : ده حاتم ، ينبهنى الى ما هو منشور فى عدد الطليعة المقبل ، كيف تسمح بهذا الكلام ؟ .

ومرة أخرى ، قررت كما فى حالات سابقة بعد أن يتكرر الشرح والحديث مرات كثيرة حول قضية معينة أن أحاول وضع حد بأن أضع الرئيس أمام اختيار منطقى حاسم . قلت له في تلك المرة ياريس ، هذه مجلة قرر الاتحاد الاشتراكى ـ أى الدولة ـ ان يصدرها الأهرام كمنبر ماركسى ، صريح وهى مازالت كذلك ومع أننى بنص قرارك الذى طالبت به « مسئول عن كل

ما يصدر عن الأهرام من مطبوعات » فأنني أقول لك إنني لا أقرأ مجلة الطليعة الا بعد نزولها الى السوق .

وخيل إليه انه قبض عليَّ متلبسا فقال لي : « ودى تيجى ازاى بقه مع مسئوليتك ؟ » قلت له إنني إذا قرأت مجلة الطليعة بهذا المعنى للمسئولية فمعنى ذلك أنني سأضطر إلى إعادة كتابتها من أولها إلى أخرها ! هذه فعلا مقالات ماركسية وهي مقالات رأى ، يكتبها اصحاب رأى ، وقد صدرت بهذه الصفة ، وليس هناك إلا أحد اختيارين : إما ان تبقى هكذا مادامت سياسة الدولة تسمح بوجود هذا المنبر ، واما أن يصلني خطاب من رئيس الاتحاد الاشتراكي غدا بإغلاقها ، وسوف أغلقها تنفيذاً لقرار مالك المؤسسة .

وقد كان من عيوب السادات ، أو لنقل من أساليبه المفضلة في العمل ألا يخوض بعض المعارك بنفسه بل بوسائل أخرى . وحالة مجلة الطليعة نموذج لهذا الأسلوب . فهو لايريد أن يصدر قرارا صريحا باغلاقها . ولكنه يريد من المسئول عن المؤسسة أن يدخل في معارك جانبية مع مجلة الطليعة تنتهي إلى إغلاقها أو تطفيش محرريها وجعلها شيئا أخر دون أن يقال إن السبب هو قرار بالتخلص منها بصراحة . وفيما أعلم فان الاستاذ إحسان عبد القدوس حين تولى رئاسة مجلس إدارة الأهرام بعد تركي لرئاسة التحرير تعرض لنفس الضغط وقاومه . حتى جاء المرحوم يوسف السباعي بعد إحسان عبد القدوس . فنفذ هذه الخطة وهي خطة إثارة منازعات شكلية وجانبية مع المجلة انتهت بخروج من خرج وبتحويلها إلى مجلة للشباب والعلوم ! .

معركة المدعى الاشتراكي : كانت هذه معركة صحفية بارزة في تلك الفترة . ولعلها كانت أول معركة صحفية خاضتها صحيفة ضد وزير انتهت إلى إخراج الوزير منذ زمن طويل جدا . كان الأستاذ الدكتور مصطفى أبوزيد فهمي قد عين في وظيفة مبتكرة هي « المدعي العام الاشتراكي » ليمثل الاتهام في قضية ١٥ مايو . وقد أكسبته مرافعاته العنيفة وقبوله القيام بهذا الدور أمام محكمة غير دستورية ولاقضائية مكانة كبيرة عند السادات . وفي احد التعديلات الوزارية عين وزيرا للعدل مع بقائه في منصب المدعي الاشتراكي . وكان من طبيعة الدكتور مصطفى أبوزيد فهمي أن يرد ببلاغة وإطالة وعنف على كل من يتعرض له أو من يتصور أنه يتعرض له في الصحافة والبرلمان حتى صارت الناس تشعر بخشية معينة نحوه .

وفي إحدى المرات أدلى الدكتور مصطفى أبوزيد فهمي بحديث في إحدى الصحف ، رأى الرسام الفنان صلاح جاهين أن يتخذه مادة لكاريكاتيره اليومي بالأهرام . وكان يشاورني دائما في كل رسم كاريكاتيرى بالتليفون صباح كل يوم . ووافقته على الفكرة ورسم الدكتور مصطفى أبوزيد فهمي في صورة كاريكاتيرية .

وظهر الكاريكاتير . وأحدث ضجة كبيرة فقد طال العهد الذى لايجوز فيه رسم الوزراء باشخاصهم فى الكاريكاتير الصحفي فما بالنا والمرسوم هو شخص وزير العدل والمدعى الاشتراكى معا ؟ .

وفى اليوم التالى جاءنى صلاح جاهين منزعجا فى مكتبي وقال لى أنه تلقى بالتليفون استدعاء بالذهاب غدا إلى مقر المدعى الاشتراكى للتحقيق معه فى الواقعة المنسوبة إليه .

وهدأت روع صلاح جاهين . وقلت له أن يذهب إلى الموعد وأن لايقول اكثر من أنه استخدم حقه فى التعبير عن الرأى وأنه عرض الرسم على رئيس التحرير المسئول وانه يطعن فى حق المدعى الاشتراكى ومكتبه فى التحقيق معه . ويطلب السماح له باستدعاء محام ومندوب من النقابة ورئيس التحرير المسئول .

ولكن المفاجأة كانت أن الاهرام ظهر فى اليوم التالى وقد نشرت فيه بروازا كبيرا على عامودين فى رأس الصفحة الأولى يروى الخبر ببنط كبير بطريقة تنطوى على التشهير والتحدى والاعلان عن دخول معركة اذا اقتضى الامر ولم يكن ذلك أيضا بمألوف . وأحدث هذا النشر ضجة كبرى جعلت الذين ذهب إليهم صلاح جاهين لا يفتحون معه أى تحقيق فى انتظار تعليمات جديدة وعاد صلاح جاهين بلا تحقيق ولحق به رد طويل وعنيف من الدكتور مصطفى أبوزيد فهمى للنشر .

وفى اليوم التالى نشرت رد الدكتور مصطفى ابوزيد فهمى كاملا وكتبت ردا طويلا عليه وأعدت نشر الصورة الكاريكاتيرية فى وسط الموضوع بحجة أنه تقليد صحفى ليراها من لم يكن قد رآها . وتكرر الرد من الدكتور مصطفى أبوزيد فهمى . وهنا وجدت أن القضية قد تضخمت وقررت أن اتجه بها اتجاها آخر . فكتبت مقالا طويلا لم اكتف فيه برفض تصرف المدعى الاشتراكى فى استدعاء من لايملك استدعاءه كنوع من الارهاب والتخويف . ولكننى أثرت قضية انفجرت كالقنبلة وهى أن جمع شخص واحد بين منصبى وزير العدل والمدعى الاشتراكى هو وضع غير دستورى وأنه لابد من أن تغير الدولة هذا الوضع وأن تختار له أحد المنصبين دون غيره .

ومرة أخرى رد الدكتور مصطفى ابوزيد فهمى ورددت عليه . وواصلنا الحملة طالبين إحالة الموضوع إلى لجنة الشئون التشريعية فى مجلس الشعب للبت فيه .

والتقط النائب الكبير الشجاع المرحوم المهندس محمود القاضى وقد كان برلمانيا بارعا لايشق له غبار ، التقط الموضوع ، وزارنى فى المكتب وشرحت له كل جوانبه القانونية والدستورية وقدمت له كل الأوراق . وإثار محمود القاضى الموضوع فى المجلس ونجح فعلا فى احالته إلى اللجنة التشريعية .

بهذا اعتبرت أن الموضوع قد انتهى . فلا يمكن ان تقضى اللجنة التشريعية إلا بعدم دستورية الوضع ، لأن عدم دستوريته صارخ وقاطع وبالتالى أصدرت على الفور تعليمات لكل اقسام الجريدة الا ينشر سطر واحد عن الدكتور مصطفى ابوزيد فهمى لاسلبا ولا ايجابا ولا خبرا ولا اى شىء يمكن تأويله ، فقد حققنا الهدف ولا نريد أن يقول أحد أننا نتعقبه ، وفعلا لم يكن فى ذهننا ذلك . ولم يكن هناك اى مشكلة شخصية بيننا .

ولكن بعد يومين اتصل بى الرئيس السادات تليفونيا وقال لى أيه الحكاية مع مصطفى أبوزيد ؟ أنتوا مش تسيبوا الراجل بقى ؟ ولا أنت عايز الناس تقول إن الأهرام رجع يشيل وزراء ويحط وزراء ؟ .

وقلت له : اسمح لى ياريس ، المقارنة التى فى بالك لا أساس لها اطلاقا . وهو الذى تجنى علينا وليس العكس ومنذ أحيل الأمر إلى اللجنة التشريعية توقف الأهرام عن نشر أى شىء عنه حتى لايساء تأويله .

وضحكت وقلت له : وأنا ياريس واثق مائة فى المائة من قرار اللجنة التشريعية مهما كانت الظروف .

قال لى : الظاهر كده كما قيل لى . لكننى زعلان على مصطفى أبوزيد .

قلت له : مشكلته ياريس أنه يسرف فى الرد وفى عنف الجدل والخصومة .

فقال لى : هوه مندفع شوية . لكن تعرف أنه عاجبنى بسبب الحكاية دى ؟ انه كما تقول فعلا لايترك شيئا إلا ويرد عليه . هو صحيح بيزودها احيانا لكن مش أحسن من الوزراء التانيين اللى عاملين صم وبكم ، لايردوا ولايصدوا ، وهم فى الحقيقة بيتركوننى أرد عنهم جميعا .

وقد انتهى الموضوع فعلا بتأييد اللجنة التشريعية لرأينا فى الأهرام وصدر قرار بابقاء مصطفى أبوزيد فهمى مدعيا عاما اشتراكيا وتعيين وزير آخر لوزارة العدل .

الاحزاب لأول مرة : كان الحديث ، فى حديقة منزل الرئيس السادات بالجيزة ، عن الدستور الذى سبق وضعه ، ولأول مرة لمحت أن الرئيس يفكر فى صيغة لايجاد نوع من « التعدد السياسى » . الأمر الذى جعل الجلسة تصبح جلسات متوالية .

ناقشنا الدستور طويلا . وكانت فكرته كما قال لى أن أقرب نموذج إلى ذهنه كان دستور ديجول الذى وضعه للجمهورية الخامسة فى فرنسا . بين النظام البرلمانى الذى يضع كل السلطة فى يد البرلمان وبين النظام الرئاسى الذى يضع كل السلطة فى يد الرئيس .

وقلت له أن هذه بالفعل صيغة مناسبة وصالحة خصوصا لبلاد العالم الثالث ، حيث لم تتعمق الظروف التى تكفل نجاح الديمقراطية واستمرارها . ولكننى قلت للسادات أن دستورنا قد تخطى دستور ديجول .

وأنه بصراحة يعطي رئيس الدولة سلطات هائلة .

ولا أنسى رد السادات . فقد قال لي :

ـ يا أحمد .. عبدالناصر وأنا ، آخر الفراعنة ! هوه عبدالناصر كان محتاج لنصوص علشان يحكم بيها ، والا أنا محتاج لنصوص ؟ .. السلطات اللي بتقول عليها أنا حاططها للي حييجوا بعدنا .. حييجي بقى رؤساء عاديين .. محمد وعلي وعمر .. حيحتاجوا للنصوص دي علشان يمشوا شغلهم .

ووجدت في حديث السادات تناقضا بين ماكان يلمح به في غموض وعدم وضوح لايجاد صيغة للتعدد السياسي ، وبين كلامه عن السلطات المطلقة للرؤساء التالين له . ولفت نظره إلى ذلك ، وانني فيما يبدو لا أفهم المطلوب أو الذي في ذهنه بالضبط .

وقال لي السادات :

ـ اسمع ! .. فيه حاجة الأفنديات المدنيين مايفهموهاشي ، لكن أنت قارئ تاريخ وتفهمها . الجيش يا أحمد دخل السياسة . معنى كده إنه لن يخرج من السياسة قبل ثلاثين سنة . وأنا لما بافكر في طريقة للتعدد السياسي والمؤسسات وغيره .. عايز أعمل توازن في الحياة المدنية مع القوات المسلحة .. ده الواقع اللي لازم نعرفه ، إن كان عاجبنا والا مش عاجبنا .

وقلت له : يعني سيادتك بتفكر مثلا في صيغة زي اللي في تركيا ؟ .. أيامها كان هناك صراع حزبي عنيف بين حزب العدل (ديميريل) وحزب الشعب (أجاويد) ، ولذلك سألني السادات في دهشة : إزاي ؟ .

قلت له : في تركيا برلمان . وفي البرلمان سبعة أحزاب وليس حزبان فقط . والصراع بينهما عنيف . ولكن الجيش في تركيا منذ أيام اتاتورك له وضع خاص في الدولة . إنه حزب « اتاتورك » الذي يعتبر نفسه القيم والحارس على أساسيات نظام اتاتورك رغم وجود مساحة واسعة للأحزاب والبرلمان .

واستوضحني السادات في اهتمام كبير ، وشرحت له كيف ان الجيش في تركيا لايبدو في الصورة ولكنه يتدخل ، وبمقدار ، في الوقت المناسب ، فرئيس الجمهورية المنتخب دائما هو رئيس أركان حرب القوات المسلحة . وفي القرارات الخطيرة كغزو قبرص أو العلاقة مع اليونان أو حلف الأطلنطي ، الجيش هو صاحب الرأي الأعلى .

وقلت له : ولكن التوازن بين الجيش والمؤسسات المدنية حدث عقب واقعة لامثيل لها . فقد مات اتاتورك دكتاتور تركيا وخلفه « عصمت اينونو » أقرب زملائه في الكفاح وفي بناء تركيا الحديثة . ولأول مرة أعلن عصمت أينونو عن السماح بقيام حزبين ، ورأس هو الحزب الجمهوري ، وخاض الانتخابات . وإذا بالبطل التاريخي والحاكم المطلق يسقط في الانتخابات ويفوز الحزب المنافس له . ولكنه لم يفعل كما فعل اتاتورك حين « ألف » حزب معارضة ثم حله بعد قليل وشنق بعض معارضيه . ومع أن عصمت

أينونو الرجل العظيم كان يستطيع أن يرفض النتيجة ويلغي الدستور . فقد قبل نتيجة الانتخابات ، وقبل أن يكون زعيما للمعارضة . وظل الجنرال عصمت أينونو في المعارضة حتى الانتخابات التالية ، ففاز بالأغلبية الساحقة ! ولكن الجيش كان ومازال دائما له هذا الوضع الخاص . لأن رجل الجيش عصمت أينونو ساعد على ذلك .

واهتم السادات بالحوار على تجربة تركيا . وطلب إلىّ أن أرسل له أى شيء يكون لدىّ عن النظام التركى . وبالفعل طلبت المستشار الصحفى التركى وسألته إن كان لديه نسخة من الدستور التركى وأى قوانين متصلة به .

وبحس دبلوماسى شديد ، جاءنى السفير التركى ، دون سابق معرفة ، إلى مكتبى فى الأهرام . ومعه الدستور . ومعه عدد من القوانين واللوائح التى لا أذكرها الآن . وطلبت أن أسمع منه عن الأحزاب ، فأملى علىّ أسماءها كاملة ، زعماءها وبرامجها وتاريخها ... إلى آخره .

وأرسلت كل هذا إلى الرئيس السادات فى مظروف كبير . ولكننا لم نعد إلى الحديث عن التجربة التركية بعد ذلك .

ولعلنا نذكر أنه بعد عشر سنوات تقريبا من هذا الحديث ، تدهورت الأحوال السياسية والاقتصادية فى تركيا ، وقام الجيش التركى بقيادة رئيس أركان الحرب الجنرال ايفرين بتسلم السلطة ، ووضع دستور جديد ، وألغى الأحزاب القديمة . ولكنه أسرع إلى انتخاب الجنرال ايفرين رئيسا للجمهورية ، وإجراء انتخابات عامة وإقامة برلمان جديد والسماح بحزبين جديدين فقط .

والغريب أن الجنرال ايفرين والجيش وضعا ثقلهما رسميا وعلنيا مع أحد الحزبين . ولكن هذا الحزب الذى زكاه الجيش والرئيس سقط ونجح الحزب الآخر فلم يتردد فى دعوة رئيس الحزب الذى فاز إلى تشكيل الوزارة وتولى الحكم .

لكن ، لماذا تنفرد تركيا بهذه الظاهرة إلى الآن ؟

فى تقديرى أن ملاصقة تركيا لجار قوى هو الاتحاد السوفييتى ، وبالتالى عضويتها فى حلف الأطلنطى ، يجعل تركيا محتاجة إلى المحافظة على « صيغة ديمقراطية » حتى يمكن بقاؤها فى هذا الجسم الأوربى الذى تنتمى إليه . رأينا ذلك فى أسبانيا والبرتغال ، فلم تقبلا فى السوق الأوربية المشتركة إلا بعد أن تحقق فيها ذلك .

وفى تقديرى ـ الآن ، وليس وقتها ـ أن السادات حين بدأ يفكر فى التعدد السياسى ، كان أهم دافع لديه ، تسهيل الاندماج فى عالم الغرب والحصول على حمايته وتحالفه وخبراته . لأن شواهد أخرى ـ قد يأتى ذكرها بعد ذلك ـ جعلتنى أصل إلى هذا الاستنتاج .

ولم يكن وقتها قد توصل إلى فكرة المنابر . ولذلك لم يأت هذا التعبير على لسان السادات فى ذلك الوقت قط . ولا أدرى حتى اليوم هل كانت فكرته وتسميته ، أم جاءته من استشارات ومنابع أخرى .

السادات يتحدث عن :

شاه إيران - اندروبوف - حافظ الأسد

هذه الحكاية استطيع أن أذكر تاريخها بدقة أكثر ، اذ جاء هذا اللقاء مع السادات عقب رحلة قمت بها وأنا رئيس لتحرير الأهرام إلى منطقة الخليج العربى وكان شاه إيران أيامها يبدو في غاية القوة والأهمية وتسطع شمسه فوق المنطقة ، وطوال الرحلة على الشاطىء الغربى من الخليج كان الحديث في أى مجلس لابد أن يذكر خطر شاه إيران ومخططاته لمناطق البترول العربية إلى آخره ..

كان ذلك فى أوائل ١٩٧٤ فقررت فجأة أن أستكمل الرحلة بالذهاب إلى طهران وقابلت الشاه مقابلة طويلة في قصر « نياڤاران » ودار بيننا حديث طويل ليس هذا مجاله ، وإن كنت أجد أنه ليس من الخروج على مجرى الحديث أن أسجل ملاحظة صغيرة - فقد وصلت طهران بدون موعد سابق ، ووجدت فندق هيلتون يغص بمئات الصحفيين المشهورين من الأمريكان والاوربيين والعرب ، وصحفية مصرية واحدة هى زميلتنا فى الأهرام السيدة انجى رشدى . وكان جاك شيراك رئيس وزراء فرنسا يزور طهران .

وأنا لسبب لا أذكر منه إلا ضرورة العودة إلى القاهرة ، قد حجزت مكانا على الطائرة إلى القاهرة بعد أربعة أيام وانتهى أملى فى أن أقابل الشاه عندما وجدت هذا الزحام ولم أعرف من أين أبدأ ، وممثلو أكثر صحف العالم فى الهيلتون منذ أيام طويلة ينتظرونه . واقترحت على الزميلة انجى رشدى أن أذهب إلى وزير الإعلام وأطلب مقابلة الشاه حتى أكون قد قمت بالواجب ثم أسافر . وبالفعل ذهبت مع الزميلة إنجى رشدى إلى مكتب وزير الإعلام ، الذى استقبلنا فورا . وشرحت له طلبى فرد قائلا إنه سيبذل جهده ولكن تحديد موعد للمقابلة فى هذه الأيام الأربعة مستحيل . وقلت له إننى أقدر الموقف وإنها غلطتى فى التقدير وشكرته ولكنه فجأة قال : دعنى اتصل بالقصر وأبذل محاولة ! ، ودهشت للاهتمام ، والعلاقات بين مصر وإيران مقطوعة ، وآخر العهد بها أيام عبد الناصر كانت حالة عداء عنيف ، وهو بالتأكيد لم يسمع باسمى من قبل وإن كان قد عرف صفتى كرئيس لتحرير الأهرام . واتصل تليفونيا بجهة ما متحدثا باللغة الفارسية ثم قال لى : سيأتى الرد بعد عشر دقائق .

وجلست أدبا وشكرا لمحاولته اليائسة . وبعد عشر دقائق دق التليفون ، وقال لي الوزير : موعدك مع جلالة الشاه اليوم الساعة الثالثة إلا ربعا ! أي بعد أربع ساعات بالضبط .

وزادت دهشتي . والتقاني الشاه بحفاوة وأعطاني وقتا طويلا ، وعدت إلى الفندق بين نظرات استغراب صحفيي العالم الذين كنت أعرف بعضهم وعرضوا عليّ مساعدتهم !!

يومها قلت للزميلة انجي رشدي هذه معاملة غير عادية والمقصود بها مصر طبعا واعتقد أن ثمة خطوطا لا تعرفها انفتحت بين مصر وإيران !

المهم ، أنني عدت ونشرت مقالا في « الأهرام » عن الرحلة كلها وفيها ذكر للقائي مع الشاه وبعض ما تحدثنا فيه .

وبعد أيام ، كنت عند الرئيس السادات في استراحة القناطر هذه المرة وجلسنا تحت الشمس فقد كان البرد قارسا وانتهت احاديثنا التي كانت سبب اللقاء ثم أستأذنته في الانصراف ، وبعد أن صافحني الرئيس مودعا صاح فجأة : الله ! ده أنا نسيت أسألك عن أهم حاجة ! أنا عايزك تحكي لي بالتفصيل عن زيارتك لطهران ومقابلتك للشاه ! اقعد وسأجعلهم يحضرون لك الغداء .

ورويت للسادات قصة الرحلة والمقابلة كاملة . ثم أخذ يتهال على بالاسئلة التي تنطوي اجابتها على ثناء من نوع أو آخر على شاه إيران ، من نوع : ولكن ألم تلاحظ أنه خارق الذكاء ؟ أو : ألم تجد ثقافته واسعة ؟ ألم تجد أن فكره الاستراتيجي شديد التفوق .

كان السادات يسألني بروح من الإعجاب الهائل عن شخص لم يكن يعرفه فهو لم يره إلا في مؤتمر في الرباط أيام عبد الناصر ، وتشاجرا وتبادلا الإهانات في جلسة واحدة عامة للمؤتمر وانتهى الأمر !

وبدأت أقول للسادات أنه ذكي وكفء بلا شك ، ولكن السؤال هو في أي شيء يستخدم ذكاءه . فقد أدهشني أن أجد طهران عاصمة البترول في احيائها الشعبية افقر من القاهرة ! ومجاريها مازالت مفتوحة ! وقلت له إن طهران لأنها مرتفعة كانت في عز الشتاء تحت درجة الصفر . وأرضها مغطاة بالثلوج . ومنظر الحفاة بملابس مهلهلة على الجليد كان أقسى على نفسي من نفس المنظر لو رأيته في بلاد دافئة كمصر ، واعترفت له بأن الدعاية الغربية الهائلة للشاه قد خدعتني .

وقاطعني السادات قائلا في اقتناع نهائي :

ـ اتعرف أنني أعتقد من زمان أن مثلي الأعلى بين كل زعماء العالم الثالث هو شاه إيران ؟.

وأبديت دهشتي الشديدة بالطبع وتساءلت عن الأسباب فاستطرد السادات قائلا :

ـ زعماء عدم الانحياز بتوعك الذين ملئوا الدنيا ضجيجا منذ سنوات :

نهرو ـ ونكروما ـ وسوكارنو ـ وحتى عبد الناصر ـ وحتى تيتو اللى لسه عايش .. اين هم الآن ؟ راحوا فين ؟ اللى مات واللى انهزم واللى راح فى انقلاب واللى انكمش داخل حدوده زى تيتو ! واحد فقط من هذا الجيل وهذه المرحلة كلها باق على مقعده ، بكل سلطانه وهيلمانه ، والدنيا تسعى إليه ، هو شاه إيران .

وقبل أن التقط أنفاسى استطرد يقول فى حماسة :

ـ والسبب بسيط ، كل هؤلاء تصوروا أن فى العالم قوتين عظميين هما روسيا وأمريكا ، وحاولوا التعامل معهما على قدم المساواة . والحقيقة غير ذلك تماما ، فهناك دولة عظمى واحدة هى أمريكا . وروسيا ليست حتى دولة عظمى ثانية ـ إنها تأتى بعد أمريكا بعشر أو بعشرين درجة . وبعدهما دول أوربا واليابان إلى آخره ـ وقد كان شاه إيران هو الوحيد الذى أدرك هذه الحقيقة ، قام عمل إيه ؟ قعد على حجر أمريكا ، ومسك فى هدومها ! وأديك شايف : كل أصحابك راحوا والشاه عملت له أمريكا كل اللى هو عايزه ! قامت ثورة وهرب إلى إيطاليا .. الأمريكيون جابوه ورجعوه وقعدوه على العرش لحد دلوقت علشان كده بقول لك إنى أعتقد إنه راجل خارق الذكاء وغير عادى .

هذا الكلام الذى سمعته من السادات ، ظل من يومها محفورا فى ذاكرتى كالنقش على الحجر ـ إنه ليس كلاما عابرا . لقد وجدت فيه من ساعتها أول شرح كامل لفلسفته السياسية ولرؤيته للعالم ، وكان هذا الكلام أول مؤشر واضح وصريح وقوى ، بدأ يجعلنى أتوقع اتجاهات السادات المقبلة . وقد كان ذلك كما ذكرت فى أوائل ١٩٧٤ ربما فى يناير بالذات . وجعلنى أيضا أتخوف من سياسات تنطوى على انقلاب كامل فى التوجهات ، وأخاف أن يكون السادات مقدما على قفزة هائلة نحو المجهول . فكسب أمريكا ليس بهذه البساطة ، ولن يكون بدون ثمن كبير ، فحتى إذا أردنا ذلك فان الشاه بينه وبين أمريكا مصلحة كبرى هى البترول فوق ملاصقته للاتحاد السوفييتى ، فوق كونه حارسا للخليج ، أى أن كل الظروف تجعل أمريكا حريصة على إرضائه . فى حين أن بيننا وبين أمريكا مشكلة هائلة هى إسرائيل ، لاتوجد مشكلة مثلها فى العلاقة بين أمريكا وشاه إيران . وقد تطورت علاقة السادات بالشاه بعد ذلك كما هو معروف وعندما سقط الشاه لم يحتفِ ولم يتمسك به فى العالم إلا السادات ، لم أدهش كثيرا ، فقد كان هذا الحديث قبل علاقتهما المباشرة عالقا بذهنى طول الوقت . وفى تقديرى ـ ومعلوماتى ـ أن السادات كان واثقا من أن أمريكا سوف تعيد الشاه إلى عرشه مرة أخرى ويكون هو الذى كسب الرهان .



خلال رئاستى لتحرير جريدة « الأهرام » سافرت مع الرئيس السادات الى الخارج مرتين ، المرة الأولى كانت الى الرباط ، حيث عقد آخر مؤتمر

قمة عربي حضره السادات ، وبالتالي آخر مؤتمر قمة عربي حضرته مصر .

كان هو المؤتمر الشهير الذي أعلن فيه قرار القمة بأن منظمة التحرير هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني . وكان أول مؤتمر يعقد بعد حرب ١٩٧٣ ، والعلاقات العربية بوجه عام يسودها التفاهم والانسجام ، وبالتالي كان جو البشر والابتهاج يسود جو المؤتمر وما حوله . وإن كانت لي تحفظات أساسية على هذا المؤتمر ولكن ليس هذا مجالها .

كان السادات قد اصطحب معه وفدا كبيرا . كان هناك السيد ممدوح سالم والمشير عبد الغني الجمسي والمرحوم حافظ بدوي وكثير من الصحفيين والمرافقين . وبعد نهاية المؤتمر . اتجهنا نحن الصحفيين الى المطار لنعود على الطائرة مع الرئيس وسائر مرافقيه . وكان هناك بالمطار « أبو عمار » وفي انتظاره طائرة أخرى : وكان كل من الرئيس السادات وأبو عمار ذاهبا الى الجزائر ، السادات في زيارة رسمية وأبو عمار في إحدى رحلاته العادية . وقبل الاقلاع بدقائق ترك أبو عمار طائرته وركب الطائرة المصرية مع السادات .

وبعد أن أقلعت بنا الطائرة ، استدعاني الرئيس السادات من حيث اجلس بين الزملاء الصحفيين ، لكي اجلس الى جواره خلال مسافة الطيران من الرباط الى الجزائر . حيث كان سينزل هو ونمضي نحن بالطائرة الى القاهرة .

جلست بجوار الرئيس السادات وأمامنا كان يجلس أبو عمار وبيننا وبينه مائدة ، أي مسافة لا تسمح له بأن يسمع ما نقول . وشعرت بما يشبه الود المفقود بين الرجلين . فلم يتبادلا كلمة واحدة طيلة الرحلة . وانصرف السادات يتحدث اليّ ، يحيطني علما بما جرى في اجتماعات القمة المغلقة ، واستفسر أنا منه عما أريد . وانني لا انكر كلام السادات اليوم جيدا : كحديثه عن كيف مر قرار اعتبار منظمة التحرير هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني في دقائق ، وحديثه عن انه لم يطلب أية مساعدات مالية ، وكيف ان السوريين هم الذين طالبوا بمساعدات مالية . وطالبوا بأن أية مساعدات مالية تقرر يجب ان تقسم مناصفة بين سوريا ومصر . وكيف انه لم يتدخل بأي كلمة في كل ذلك . وأشياء أخرى لا أرى ان هذا مجال سردها ، انما تستوقفني الآن واقعة واحدة ذات دلالة .

لقد قال لي السادات : إن كل الملوك والرؤساء العرب بلا استثناء قد زاروه واحدا واحدا ، وأيدوه مائة في المائة على سياسته منذ حرب ١٩٧٣ وما بعدها من عمليات فك الاشتباك ، وغير ذلك . ثم استدار السادات

هامسا في اذني : لكن يا اخي فيه حاجة غريبة قوى ! كل ملك أو رئيس زارني كان يعبر عن تأييده لي ، ثم يقول لي « بس ياريس لازم تخلي سوريا دائما في ايدك » ما فيش واحد ما قالش هذه الجملة بالضبط ، معناها ايه دي ؟ معناها الوحيد أن حافظ الاسد هو اللى قال لهم يقولوا لي الاشارة دي ! ومعناها ان حافظ الاسد متشكك في استمرار تحالفنا معه ، وانه داير يشكك الآخرين ! هل هذا كلام عاقل ؟ هل يمكن ان يخطر على بال أحد ان مصر بعدما اشتركت مع سوريا في الحرب ، تسيبها ؟ وتسيبها وتروح فين ؟ !

أدهشتني هذه الواقعة كما أدهشت الرئيس السادات ، ولكنها ظلت عالقة في أذني . حتى مرت سنوات ، واختار السادات طريق الحل المنفرد بعد خلافه مع حافظ الاسد حول زيارة القدس . وكنت اقول إن حافظ الاسد كان إذن يخشى ان يترك بمفرده منذ ذلك الوقت البعيد . فهل كان هذا من باب الشك السياسي الطبيعي ، أم كانت لدى حافظ الاسد معلومات أو إشارات تتوقع اتجاه السادات ، قبل ان ينتبه احد منا الى ذلك ؟ !

● ● ●

الرحلة الثانية كانت الى رومانيا وبلغاريا . اذ اتصل بي السيد حسن كامل رئيس الديوان الجمهورى تليفونيا وسألنى اذا كنت أرغب في السفر مع الرئيس في تلك الرحلة أم لا . وقلت له : هل هذه دعوة أم مجرد عرض ؟ فالرؤساء يطلبون إلى الصحفيين السفر معهم ولا يسألونهم عن رغبتهم .. فقال لي السيد حسن كامل : بصراحة الرئيس « كان عايز يسافر لوحده . لكن الأستاذ على أمين يلح بشدة على مرافقة الرئيس .. وقد قال لي الرئيس أن أسألك اذا كنت جاهزا للسفر فيسافر كلاكما معه أو لا يسافر معه أحد . فقلت له : أنا جاهز اذا قرر الرئيس أن نسافر أو قرر أن نبقى ..

وكان الرئيس قد قال لي من قبل انه يريد أن يقابل « جيفكوف » رئيس بلغاريا لأنه اقرب الزعماء الى القيادة السوفييتية ، وذلك في محاولة اخيرة لتحسين الموقف بين مصر والاتحاد السوفييتي ، وانه يريد مقابلة « شاوشيسكو » لانه على صلة وثيقة بقيادة اسرائيل ويريد ان يقوم بدور في حل النزاع العربي الاسرائيلي .

واذكر ان الرئيس وقتها ـ مبررا ذهابه الى « جيفكوف » ـ تحدث طويلا عن شخصيات القيادة السوفييتية وتعذر التفاهم معهم . وصب جام غضبه على « بودجورني » و « بونوماريوف » والغريب انه قال لي يومها : دول كلهم موظفين بيروقراطيين ما يفهموش في السياسة ، الوحيد اللى بيفهم في المكتب السياسي ، الراجل اللى اسمه « اندروبوف » . كل ما نتعب معاهم اقول « كلموا اندروبوف » وهو يفهم علينا على طول ويتصرف ويمشي الامور .

ويومها سألته : مش « اندروبوف » ده بتاع الـ «كى - جى - بى » أى رئيس المخابرات السوفييتية ؟

ورد السادات قائلا : « أيوه ، لكن فى النظام الروسى رئيس المخابرات ده مش ضابط بوليس .. انما لازم يكون مسئول سياسى على أعلى مستوى ! وهو فعلا السياسى الوحيد اللى شفته فيهم !

وقد تذكرت هذا الحديث بعد سنوات بل وبعد اغتيال السادات ، عندما اصبح « اندروبوف » سكرتيرا عاما للحزب الشيوعي السوفييتي خلفا لبريجنيف وكتبت يومها هذا الحوار مع السادات عن « اندروبوف » ، الذى كان اختياره مفاجأة فى جريدة « الشرق الأوسط » ، وفعلا فقد اثبت « اندروبوف » فى الفترة القصيرة التى عاشها رئيسا للاتحاد السوفييتى كفاءة سياسية هائلة فقد اربك أمريكا باقتراحاته المتوالية حول نزع الصواريخ من اوربا . وكان هو الذى اتخذ قرار الدعم إلى أقصى حد لسوريا بعد هجوم إسرائيل على لبنان ، بعد ان تميزت سياسة روسيا بالبرود والجمود اواخر عهد برجنيف نحو قضية الشرق الأوسط منذ كامب ديفيد ، وهو الذى وضع فى المكتب السياسى وجوها جديدة تستهدف التغيير والتجديد ومن بينها « جورباتشيف » الزعيم الحالى للاتحاد السوفييتى الذى يسير على سياسته تماما .

ولم نر السادات عن قرب طيلة الرحلة الى البلدين إلا مرة واحدة فى بلغاريا ، إذ أرسل يستدعينا ـ على امين وانا ـ من الفندق الذى يقيم فيه الرئيس وجلسنا معه منفردين جلسة طويلة شاركنا فيها بعد قليل السيد إسماعيل فهمى وزير الخارجية فى ذلك الوقت .

كان السادات مبهورا بالنظافة والنظام فى بلغاريا وبارتفاع مستوى المعيشة البادى من الصحة التى يتمتع بها الناس فى الشوارع والملابس التى يلبسونها ، وكان واضحا ان السادات كان تحت تأثير الوهم الشائع أن بلاد شرق اوربا افقر بلاد العالم ، وحيث ان بلغاريا افقر شرق أوربا فلعله تصور انه سيجد مستوى الحياة فيها كمستوى الحياة فى احيائنا الشعبية !

وسألنى عن ملاحظاتى ، فقلت له ضاحكا أول الأمر اننى ساحتفظ بها حتى لايمنعنى من كتابتها فى « الأهرام » بعد أن أعود .

وقال لى : قول وعليك الأمان !

قلت له إن السيد إسماعيل فهمى كان فى جلسة مباحثات امس مع الجانب البلغارى ، وعندما عاد إلى الفندق فى ساعة متأخرة كان فى قمة الغضب ، وروى لى انه وزير خارجية ويعرف جيدا الموضوع الذى

سيتحدث فيه مع البلغاريين . ولكن بعض زملائه من الوزراء طلبوا إليه أن يطلب إلى البلغاريين مطالب اقتصادية : تسهيلات ائتمانية ، قروضا ، لصناعات زراعية تشتهر بها بلغاريا .. الخ .

وعندما فتح إسماعيل فهمي هذا الموضوع فوجىء بالبلغاريين يقولون له : ولكن لديكم تسهيلات ائتمانية بمبلغ كذا مليون منذ كذا سنة وستسقط بعد ايام لانكم لم تستخدموها ! وفي ميناء « فارنا » لكم آلات مصنع كذا معبأة في الصناديق منذ زمن ونحن نطالبكم بتسلمها ! وقد أقمنا لكم « مجزرا آليا » في مدينة كذا في مصر ولكنه متوقف عن العمل منذ شهور لأن الكهرباء لم تصل إليه !

روى لي إسماعيل فهمي في تلك الليلة السابقة وهو في قمة الغضب على الوزراء الذين لايعرفون مابين مصر وبلغاريا من اتفاقات ، ويضعونه في هذا الموقف الحرج .

رويت ذلك للرئيس السادات في وجود اسماعيل فهمي وعلى أمين . وسأل الرئيس اسماعيل فهمي عن صحة هذا الكلام .

وقلت للسادات : انني اثير هذا الموضوع لان السيد اسماعيل فهمي مسافر بعد الرحلة مباشرة الى « بون » حيث سيرأس وفدا من عدة وزراء مصريين يبحثون مع المانيا الغربية مايمكن ان تقدمه لنا من مساعدات مالية وفنية . وأخشى أن يذهب وزراؤنا دون خطة مدروسة مسبقا ودون معرفة لما لنا وما علينا بالضبط .

والتفت السادات الى اسماعيل فهمي وسأله : ألم تجتمعوا في مصر لترتيب هذه الامور قبل أن تلتقوا في بون ؟ ورد عليه اسماعيل فهمي قائلا : اجتمعنا برئاسة الدكتور عبد العزيز حجازي ، ولكن بصراحة ، كان بعض الوزراء دارسا لموضوعاته ، وبعضهم ليس كذلك .

وقلت للرئيس انني فتحت هذا الموضوع عمدا لكي اثير ما هو أهم ! فهذه الحالة مع دولة بلغاريا الصغيرة متكررة بيننا وبين دول كثيرة من اليابان شرقا إلى أسبانيا غربا ! ومعلوماتي من مصادر التخطيط في مصر أن تحت تصرفنا قروضا وتسهيلات ائتمانية تصل إلى ٩٠٠ مليون جنيه ، ولكننا لانستعملها وبعضها يسقط حقنا فيه بمضي المدة !

واستنكر السادات ذلك . وقلت له ان هذه معلومات حقيقية وهذا هو ما كنت أنوي ان اكتب عنه في « الاهرام » بعد عودتي من وحي ماحدث للسيد اسماعيل فهمي بالأمس .

وقلت للسادات انني اتصور ان الامر يحدث ببساطة على هذا النحو : يذهب وزير لنا في رحلة رسمية أو ياتينا وزير من الخارج ، فيعقد الوزير المختص اتفاقا ماليا أو اقتصاديا مع هذه الدولة أو تلك ، ويتغير الوزراء لدينا كثيرا والادارة الادارية لدينا لاتتميز بالاستمرار والمتابعة ، فتنسى بعض الاتفاقات ، وتقبر في الادراج ، والسبب انه ليس لدينا في

الواقع تخطيط يعكس ماترديده في الصحف ، وقد يكون من الواجب ان يحضر اى مباحثات اقتصادية مندوب من وزارة التخطيط حتى تكون الاشياء كلها مجموعة ومنسقة في مكان واحد ، أو تلزم كل وزارة بابلاغ وزارة التخطيط بما لديها . فنحن الآن مثلا لدينا تسهيلات وقروض غير مستعملة ونرسل عشرات الوفود بحثا عن تسهيلات قروض جديدة ! وقال السادات لاسماعيل فهمي : من الآن عليك ان ترتب الا يسافر أى وفد اقتصادى إلا ومعه وزير التخطيط شخصيا . وكان وزير التخطيط وقتها هو الدكتور اسماعيل صبرى عبد الله .

وعندما عدنا إلى مصر ، كتبت بالفعل مقالا فى الصفحة الأولى من « الأهرام » حول هذه القضية .

ولاادرى كيف نشب فى هذه الجلسة ذاتها حديث حاد عن الصحافة فى مصر ، وقال المرحوم علي أمين إن ثلاثين سنة لم تنجب صحفيا واحدا وان الصحفيين الشبان لانفع منهم ولايصلحون لشيء ، وقلت ردا على ذلك ان هذا غير صحيح على الاطلاق ، وان إطلاق كلمة « الصحفيين الشبان » على كل صحفي ليس رئيسا للتحرير كلمة مضللة وقلت للسادات : ياريس الذين تسمونهم « صحفيين شبان » بلغوا الأربعين والخمسين من العمر ولايلبسون البنطلونات القصيرة : فيهم الذى اصبح اصلع ، والذى له كرش ، والمصاب بمرض السكر ، وأولادهم طلبة في الجامعات ! ولكنك لا ترى إلا رؤساء مجالس الادارة ورؤساء التحرير ، اننى اسميهم الصف الثانى والصف الثالث ، الخ وأنا مستعد ان اكتب لك الآن اسماء عشرين صحفيا كل منهم يصلح ان يكون رئيسا لتحرير جريدة أو مجلة . ولكن المسألة ببساطة هى أن الفرصة يجب أن تتاح لهم وسوف ينجح نصفهم على الأقل!

واذكر أيضا من هذه الجلسة اننى ذكرت الرئيس بموضوع سبق أن تناقشنا فيه ، وهو خلو جهاز الرئاسة إلا من رجال الامن ، ورجال البروتوكول ! ولاتوجد مكاتب فنية ولاحتى موظف فنى واحد ، وضربت مثلا بهذه الزيارة لبلغاريا ، فقبل ان يسافر رئيس الدولة الى بلد آخر ، يجب ان يعد له « دوسيه » ولو من ورقة واحدة فيها خلاصة علاقتنا معها : سياسيا ، واقتصاديا ، والاتفاقات المبرمة بيننا ، وعدد طلابنا الذين يدرسون فيها .. الخ ..

وكنت أحدث السادات فى هذا المعنى كثيرا ، ولكنه كان يضيق ذرعا بالورق ، وبالعمل المنظم ، وكل محادثاته الدولية شفوية لامحاضر بها ، محتفظا باسرارها لنفسه ، ولايعمل إلا بالتليفون .

الانفتاح

هبت رياح الانفتاح على مصر ، وكلمة "الانفتاح" من اكثر الكلمات التي اثارت ومازالت تثير الجدل العنيف في مصر ، وفي تقديري ان سبب الكثير من المجادلات يرجع الى ان كلمة "الانفتاح" تحتمل انواعا كثيرة من التطبيقات العملية . وهي كلمة ليس لها تعريف واحد ودقيق في القاموس الاقتصادي . كما أن لـ "الانفتاح" " و"الانغلاق" معاني نسبية . فلم يكن هناك قبل ذلك في تقديري "انغلاق" بالمعنى المطلق كما يحدث في المعسكر الشرقي مثلا ، ولكن أي بلد يقرر ان يبني لنفسه اقتصادا له درجة من الاستقلال ، وصناعات جديدة يجب حمايتها حتى تقف على قدميها ، لابد له من ان يوصد الباب في وجه أنواع من السلع الكمالية ويوجه اقصى ما يمكنه من دخله القومي نحو التنمية ، ويقلل قدر الطاقة من النزعات الاستهلاكية . وكلمات "الاعتماد على النفس" و"ربط الاحزمة" و"التقشف" وغيرها هي انواع ودرجات من "الانغلاق" . ومن الشائع ان نقرا لكتابنا وهم يتغنون بالانجليز الذين تقشفوا خلال الحرب العالمية وبعد الحرب العالمية بسنوات طويلة ، وكيف ان الانجليزي لم يكن مسموحا له في الاسبوع إلا ببيضة واحدة وبكذا قطعة من السكر .. الخ ، فاذا جئنا الى مصر صرخ الكتاب انفسهم اذا سمعوا باختفاء سلعة لا تهم اكثر من واحد في المائة من الناس .

هكذا عندما ركزنا في الخمسينيات والستينيات على التصنيع والمشروعات الكبرى ، كانت هناك مثلا قيود على السفر للسياحة في الخارج ، ولكن سافر لأول مرة عشرات الآلاف من الشباب للدراسة في كافة المجالات من موسكو الى كاليفورنيا ومن خبراء علوم الذرة ، الى "الاسطوات" والعمال للتدريب في المصانع في المانيا الغربية وغيرها . ولو لم نتقشف ونركز على التصنيع والانتاج في الخمسينيات والستينيات لداهمتنا في السبعينيات والثمانينيات بمشاكل زيادة أعنف مما نواجهه الآن .

وها نحن الآن في حالة "انغلاق" ثان ، ولا ينطق أحد من فرسان فلسفة الانفتاح ، مع فارق أن "الانغلاق الأول » كان اختيارياً لبناء الصناعة ، والانغلاق الثاني كان اجباريا ، تحت وطأة ديون الانفتاح العشوائي !

وفي سنة ١٩٧٤ ، التي اتحدث عنها هنا ، كانت تدور بيني وبين الرئيس السادات مناقشات كثيرة حول هذا الموضوع .

كانت الصحف تخرج علينا كل يوم بعد حرب اكتوبر تبشرنا بآلاف ملايين الدولارات التي تهطل علينا - أو ستهطل علينا - من البلاد العربية والاوروبية وامريكا . ولعل السادات كان حريصا على تأكيد فكرة اقتران السلام المقبل بالرخاء العميم ، وقد بدأ يكرر هذه المعاني في خطاباته في السنوات التالية ، فأخذت هذه الأموال تتحول الى مجالات الاستهلاك بسرعة هائلة .

كان تقديري الذي كنت أعبر عنه دائما للرئيس السادات أن جو الانتصار بعد حرب اكتوبر ، هو احسن جو لأن تطلب الدولة من الناس ربط الاحزمة والصبر ثلاث سنوات مثلا ، نوجه فيها هذه التبرعات والمساعدات والقروض والتسهيلات في اتجاه الاستثمار الانتاجي واصلاح ما اهمل منذ ١٩٦٧ ، فيكون ذلك اساس رخاء حقيقي يتزايد بعد ذلك ، ولكن السادات كان متعجلا في توزيع ما اعتبر انه ثمار النصر . وكانت له طرق غريبة في تبسيط أعقد القضايا الاقتصادية وعقد مقارنات بالغة الطرافة .

اذكر مثلا ، ان الصحف نشرت انه تقرر اقامة ثلاث مناطق حرة في الاسكندرية وبورسعيد والسويس . وفي احد هذه الحوارات قلت للرئيس ان فكرة اقامة منطقة حرة فكرة جيدة . خصوصا اذا كانت منطقة حرة بالمعنى الصحيح : تقام فيها صناعات محلية واجنبية للتصدير وتقام بها مخازن للشركات العالمية الكبرى ، وخدمات للصناعة والاستيراد والتصدير ، الخ . ولكن اقامة ثلاث مناطق حرة مرة واحدة خطأ كبير ، فنحن ليست لدينا تجربة سابقة في المناطق الحرة واقامة منطقة حرة تحتاج الى أموال والى خبرات . ثم ان طرح ثلاث مناطق حرة على العالم في وقت واحد سوف يبخس ثمنها لكثرة المعروض . وقد تتحول الى مناطق للتهريب في الدرجة الأولى . فلماذا لا نبدأ بمنطقة حرة واحدة ، حتى تستوفى شروطها وتمتلىء بما نطمح اليه من نشاطات ، ثم نعلن على ضوء التجربة عن منطقة حرة ثانية ، وهكذا ؟

ورد عليَّ السادات قائلا : انني اتعجل اليوم الذي تصبح فيه مصر كلها منطقة حرة !

- ازاي ياريس ؟

- الا ترى الرخاء والنجاح في هونج كونج وسنغافورة وغيرهما .

وكان عبثا محاولة شرح الفرق بين مدينة حرة وبين دولة طويلة عريضة ، الى آخر ما يدخل في الف باء الاقتصاد .

وهذا النوع من المقارنة يذكرني بالحديث الذى دار بيننا بعد ذلك بسنوات وكان السادات قادما من إحدى رحلاته من النمسا وزياراته لكرايسكي ولا اذكر الآن مجرى النقاش ولكنى اذكر كيف قاطعنى السادات فجاة ، قائلا : أليست النمسا دولة اشتراكية ؟ أليس كرايسكى زعيما وحاكما اشتراكيا ! انك كما اعرف زرت النمسا . ولاشك انك أكلت فى مطاعم،الفراخ المشوية فى ضواحى فيينا . هل يوجد فى العالم فراخ من حجم الفراخ هناك ؟ أنا اريد أن اقيم فى مصر اشتراكية كاشتراكية النمسا !!

وكان صعبا ايضا شرح الفوارق بين ظروف النمسا وظروف مصر ، وان فيينا وريثة قرنين كعاصمة لامبراطورية الهابسبورج احدى اغنى امبراطوريات أوربا ، وبين مصر التى قضت تلك القرون تحت حكم الأتراك ثم الاحتلال الانجليزى . كنت وقتها آخذ هذه الاقوال مأخذ ما اعرفه من استعداده الطبيعى للانبهار السريع ببريق هذا الشيء أو ذاك .

استدعانى الرئيس السادات يوما الى استراحته فى المعمورة وقال لى إنه قرر أن يترك منصب رئاسة الوزارة وان يعين الدكتور عبد العزيز حجازى وزير الخزانة وأحد نواب رئيس الوزراء ، فى منصب رئيس الوزراء . وكان الصراع حول هذا المنصب يشتد منذ انتهت حرب اكتوبر وقف الاشتباكين الاول والثانى ، توقعا لان الرئيس السادات لابد سيتخلى عن رئاسة الوزارة فى أية لحظة .

لم افاجأ بالقرار . فقد كان الرئيس السادات كلما جاءت مناسبة اخذ يمدح بحماسة الدكتور عبد العزيز حجازى ويردد قولته « ده راجل عجيب ! ده مخه فيه كمبيوتر .. عارف وفاكر كل حاجة ! »

وقال لى السادات : أريدك ان تكتب لى خطابا أوجهه إلى حجازى بتكليفه بتشكيل الوزارة الجديدة .

ونبهت الرئيس الى أن تقليد كتابة خطاب بتكليف شخص بتشكيل الوزارة وقيام رئيس الوزارة المكلف بكتابة خطاب بقبول التكليف كان هو الطريقة المتبعة بين القصر ورؤساء الوزارات قبل الثورة ، وانه منذ ١٩٥٢ جرى العمل على ان يصدر قرار جمهورى بتشكيل الوزارة الجديدة مباشرة .

وقال لى السادات : أنا عارف لكن أولا أنا عايز أرجع التقليد القديم (أظن انه لم يكرر ذلك بعد تلك المرة) . وثانيا : أصل عبد العزيز حجازى "ظهره خفيف" .

وسألته عن معنى هذا التعبير الريفى فيما اظن الذى كنت أسمعه لأول مرة ، وقال لى : يعنى يتنرفز وينزعج بسرعة ، وهناك ناس كتير حتكون ضد اختياره وانا عايز تكتب لى خطاب تكليف يحدد مهام الوزارة من ناحية ، ويورى كل الناس انى بأسند حجازى بكل قوة .

وتركنى فترة كتبت فيها مشروع خطاب التكليف ، ثم عاد وقرأ المشروع

ولم يزد عليه فيما اذكر إلا كلمة "كاملة" حول تطبيق سياسة الانفتاح .
وهذا هو نص الخطاب :
"السيد عبد العزيز حجازي .
"تعلمون كما يعلم شعبنا .. اننى كنت قد أخذت على عاتقي مسئولية رئاسة الوزارة الى جانب منصبي كرئيس للجمهورية منذ أن صدر قرار القتال من أجل تحرير الأرض نهائيا ذلك كي أتحمل المسئولية عن هذا القرار ، كاملة أمام الشعب ، وأمام التاريخ .

"ولقد مَنَّ الله علينا بالنصر في حرب اكتوبر واعدنا لشعبنا والأمة العربية كلها هيبتها وكرامتها . واليوم وقد عرفنا طريقنا الى حل قضية العدوان بالسلم أو بالحرب . وبعد أن قرأ الشعب ورقة اكتوبر التى تضمنت أهدافنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية العامة .
"وبعد أن بدأنا في تطبيق سياسة الانفتاح الاقتصادى في إطار مبادئنا الاساسية من جهة وادراكنا للمتغيرات الدولية من جهة أخرى .
"وبعد أن تم وضع الخطة العاجلة للتنمية وبدأنا بالفعل في مهمات التعمير الكبرى .
"فقد رأيت ان أعهد إليكم برئاسة الوزارة حتى تأخذ السلطة التنفيذية وضعها الطبيعي وتتحمل مسئولياتها المرسومة بين سائر المؤسسات الدستورية .
"وفى تقديرى ان الوزارة التى سوف ترأسونها عليها أن تنجز المهام التالية :
"أولا : الا تكف عن وضع مرافق البلاد ووضع المواطنين في موضع الاستعداد المستمر للقتال ، فالمعركة لم تنته بعد ولابد أن يكون هذا فى حساب الدولة والشعب على الدوام وفى تقديرنا لكل الظروف والقرارات .
"ثانيا : ان تعمل الوزارة بهدى من ورقة اكتوبر التى أقرها الشعب في استفتاء عام والتى حددت معالم الطريق للعمل الوطني في المرحلة المقبلة من أجل التقدم والبناء .
"ثالثا : أن تركز على تنفيذ خطة التنمية القصيرة الأجل التى تم وضعها بعد إقرارها من مجلس الشعب وفي المواعيد المقررة لها دون تأخير ، إنها خطة (العبور الثانى) الى مجتمع الرفاهية والكفاية والعدل .
"وفى هذا المجال لابد أن تعمل كل أجهزة الدولة بأقصى طاقاتها ، ولابد من إزالة المعوقات الادارية والمحاسبة في حزم على اى تهاون أو تقصير .
"رابعا : أن تضع الوزارة سياسة الانفتاح كاملة موضع التطبيق بحيث تنطلق جهود المواطنين الخلاقة وتتوافر الثقة والتسهيلات اللازمة للأطراف التى تتعاون معنا دون قيد سوى أن يؤدى المواطن للدولة حقها الذى تنص عليه القوانين ليقترن بذلك توفير الحافز بإقرار الواجب المترتب عليه .

"خامسا : أن تهتم الوزارة الى جانب توفير متطلبات المعركة والتنمية بتجنيب شعبنا قدر الطاقة وطأة موجة الغلاء العالمية التى تؤثر على الأسعار فى كل مكان وذلك بالموازنة بين متطلبات المعركة والبناء وبين ضرورة توفير مستوى المعيشة المقبول لأوسع الجماهير من فئات شعبنا المكافح .

"سادسا : اننا ونحن نطلق الحريات وندعو الى الانفتاح لابد أن يكون للقانون هيبته وللمال العام حرمته وللمرافق والخدمات نزاهتها وهذا يتطلب من الوزارة أن تؤكد دائما على الطهارة الثورية شرطا لتحمل المسئولية ومزاولة أى نشاط ، فلا يكون هناك انحراف أو استغلال غير مشروع وذلك بترشيد الاجهزة وتوحيد جهات الرقابة والاخذ بالسرعة والحسم فى الثواب والعقاب معا . ولست اشك فى انك وزملاءك قادرون على القيام بأعباء هذه المهام وأداء واجبات المرحلة فى التجاوب والتفاعل الصحيين كسلطة تنفيذية مع سائر المؤسسات والسلطات الشرعية فى البلاد .

وفقك الله وزملاءك والسلام عليكم ورحمة الله ..

توقيع : رئيس الجمهورية

●

هكذا كان الدكتور عبد العزيز حجازى أول رئيس للوزارة بعد حرب ١٩٧٣ وفى بدايات مرحلة جديدة تؤذن بتحولات كبرى فى مصر .

وكان الدكتور عبد العزيز حجازى هو الذى أصدر قانون الانفتاح (قانون استثمار المال العربى والاجنبى والمناطق الحرة رقم ١٧٤ لسنة ١٩٧٤) .

وكما قلت ، كانت عواصف الانفتاح قد هبت بالفعل قبل وزارة حجازى وقبل صدور هذا القانون . فقد هجمت على البلاد شتى أنواع السلع الاستهلاكية ، وبدأت تظهر أولى فصائل المستثمرين الجادين كما ظهر النصابون المحليون والدوليون المعروفون ، ودارت كل اجهزة الاعلام ، مرئية ومسموعة ومقروءة ، تندد بما سمى « فترة الانغلاق » وتهاجم كل مشروع وطنى اقيم فى مصر ابتداء من السد العالى إلى اصغر المشروعات ، ووصل الامر الى حد تحقير كل ماهو مصرى ، والتهويل على الناس بمزايا كل ماهو اجنبى ، حتى الملابس المستعملة التى بدأ التجار يجلبونها من الخارج ويبيعونها للناس حاملة الكلمة السحرية الجديدة ، وهى انها "مستوردة" .

وكتبت فى الصفحة الاولى من "الاهرام" مقالا أثار ضجة واسعة وعلامات استفهام ، على أساس أن "الاهرام لا يمكن إلا أن يعبر عن سياسة الدولة . وكان عنوان المقال هو "الإنفتاح ليس "سداح مداح !." وهو المقال الوحيد الذى أنشره هنا كاملا لانه يعطى فكرة عن الجو السائد فى ذلك الوقت ، (بتاريخ ١٢ يوليو ١٩٧٤) هذا نصه :

« بعد قضية تحرير الاراضي العربية ، التي مازالت قائمة ومستمرة ، لا توجد قضية تبلغ في ضرورة متابعتها ، قضية الإنفتاح .

ومستويات مناقشة هذه القضية كثيرة . فهي يمكن أن تناقش على المستوى العالمي ، وماهو حادث من ظاهرة تبادل الخبرات ، واستثمار ظاهرة تبادل الخبرات ، واستثمار رءوس الاموال ، وتسهيل التجارة بين دول الشرق والغرب ، بأشكال مختلفة طبعا ، ولكن تبقى لها دلالتها السياسية والاقتصادية العامة . الدلالة السياسية أن الرأسمالية في نموها وصراعها لم تعد قادرة على تجاهل الاسواق والامكانات الضخمة في روسيا والصين مثلا ، وان الدول الشيوعية وقد بنت قاعدتها الصناعية وسط الحصار الدولي اصبحت تسعى الى اكتساب الموارد والمعرفة التكنولوجية لقطع طريق التقدم بسرعة أكثر ، وآخرها عقد مجموعة الشركات الامريكية الذي وقعه "هامر" في موسكو لاستثمار ٢٠ الف مليون دولار في مجالات شتى ، فيما وصف بأنه اكبر عقد في التاريخ . والدلالة السياسية ايضا ما يسميه كيسنجر "الاعتماد المتبادل" الذي يعمق السلام بأكثر مما تعمقه المعاهدات .

وهناك المستوى العربي ، وهل يا ترى بذلت كل الجهود من اجل استثمار اكبر قدر من المال العربي من جهة والطاقات البشرية العربية من جهة أخرى في مشروعات مشتركة تجعل العالم العربي ، حقا اقرب الى أمل الوحدة ، وتجعله ، كما يتوقع بعض المراقبين الاجانب ، « القوة العظمى السادسة ! » هذا اذا لم تختل توقعاتهم كما فعلنا في حالات كثيرة .

ثم هناك المستوى المصري وهو ان كان يتصل بنا مباشرة ، إلا انه لا مفر من ان نسجل أن مصر كانت دائما رائدة في محيط واسع حولها .. ولنقل حتى لا يكون هذا تباهيا غير موضوعي إنها رائدة بصوابها وأخطائها فأي تجربة في مصر ، تتسرب الى الدائرة الاوسع ، عربيا بل وأسيويا وافريقيا .

ونحن نخوض تجربة جريئة ، علينا أن نحسبها بدقة حسابات حرب اكتوبر .

لقد صدرت ورقة اكتوبر . ثم صدر استثمار رأس المال المصري والعربي والاجنبي . ولكن هذا لن يمنع المناقشات والتفسيرات والاجتهادات .

وفي البدء ، ظن بعض الناس أن سياسة الانفتاح معناها ان تصبح مصر الاقتصادية والاجتماعية "سداح مداح" ، كل شيء فيها مباح .

وكانت خلاصة هذا الرأي ، اذا جردناه من التحفظات الكلامية الشكلية ، هي الاخذ فورا بنظام الاقتصاد الحر الكامل ، الذي لم يعد موجودا إلا في كتب الاقتصاد القديمة ، فالعالم الرأسمالي ذاته يعرف البنوك والصناعات الكبرى التي تملكها الدولة – انجلترا وفرنسا وايطاليا وغيرها – ويعرف

حقوق العمال والتأمينات المختلفة ، ويعرف قوانين منع الأحتكار ، ويعرف أساليب الحماية من المنافسة الاجنبية . ولم يعد قول زعيم اليمين الأمريكي جولد ووتر قبل عشر سنوات « إن الفقير مسئول عن فقره ولا حل له ، كما أن من ولد بقدمين كبيرتين لا يمكن له تغييرهما » .. لم يعد هذا واردا ، فقد أزاحه هذا القول فى امريكا ذاتها من مرشح قوى للرئاسة الى هامش المسرح .

ولم يدرك دعاة "السداح مداح . وكل شيء مباح" أنه حتى الرأسمالية الوطنية يهددها هذا المنطق ، فالاقتصاد الحر بمعناه المطلق أن البقاء للاقوى . وبالتالى فلو اقيم فى مصر غدا مصنع أجنبى ضخم متقدم لصناعة الاحذية مثلا ، فهو كفيل بأن يغلق اكثر من عشرة آلاف ورشة احذية يعمل فيها عشرات الآلاف من المصريين . لابد أن يجيء يوم طبعا تدخل فيه الآلات الحديثة التى تنتج الرخيص ولا تستخدم إلا القليل من اليد العاملة . ولكن السؤال هو متى وكيف وفى اى اطار حتى لا تحدث خلخلات اجتماعية مباغتة وخطيرة وليس هدف الانفتاح هنا أن يكتب احد ذات يوم ما كتبه لورد كرومر متباهيا بعد سنوات من احتلال مصر « .. لقد اختفت الصناعات المحلية من الاسواق وصارت السلع الاوربية فى كل مكان ! »

ولم يدرك دعاة "السداح مداح .. وكل شيء مباح » أنه حتى الدول الرأسمالية الغنية ، كانت اذا شعرت ببوادر خلل فى اقتصادها الوطنى تسرع الى اجراءات الحماية بصور شتى ، فعلتها أمريكا ضد أوربا واليابان حين ضعف الدولار فى أواخر حرب فيتنام ، وعمدت انجلترا ثم فرنسا ثم ايطاليا الى اجراءات حماية منفردة مخالفة لقوانين السوق المشتركة بمجرد احساسها بالخطر : تارة بتخفيض العملة ، وتارة بفرض رسوم جمركية عالية على استيراد بعض السلع ، فرغم كل الانفتاح فى العالم ، نحن نمر فى نفس الوقت بمرحلة من "الوطنية الاقتصادية" التى يمارسها الجميع ربما لموازنة معطيات الانفتاح الجديدة .

وقد اخذنا نحن بسياسة الانفتاح فى وقتها المناسب . فقبل الثورة كان البلد مفتوحا تماما ولكن لم يأت إلينا شيء يذكر وقتها لم يكن المال الفائض متوافرا بهذه الدرجة . المال الغربى الشرقى مكرس لاصلاح ما خربته الحرب هناك . والبترول العربى ايراداته بسيطة ولا سيطرة لاصحابه عليه وكنا بلادا ضعيفة محاطة بالاستعمار ، والمال مازال يحمل معه السيطرة السياسية . ثم لم يكن لدينا ما خلقته حركة التصنيع عن طريق القطاع العام من صناعات اساسية كبرى ومن خبرات فنية واسعة .

وهذا عنصر هام يشجع الاستثمار وليس العكس . فالمال حتى الآن يفضل الاتجاه الى حيث تتوافر هذه الامكانات والطاقات بدرجة أكبر ، بينما يتردد طويلا فى الذهاب الى حيث لا توجد الطرق والموانىء والقدرات المحلية والعمال المهرة والخبراء .. أى ما يسمى "بالمقابل المحلى"

ولعل هذه النقطة الاخيرة تقودنا الى تسجيل بعض الملاحظات ، أو العناوين ، حول مرحلة الانفتاح الحالية فى مصر :

● ان هذا المقابل المحلى اساسى جدا لنجاح الانفتاح . ولذلك فوضع خطة لتوفير المرافق الاساسية ، واستكمال كل طاقات القطاع العام ، واعطائه فرصة الانطلاق على اسس اكثر اقتصادية ، أمر اساسى ، لأنه من هنا نزيد "قدرتنا على استيعاب" المشروعات الجديدة .

● إننا يجب أن نشرح هذا للرأى العام باستمرار . فلا يظن ان القروض والاتفاقات التى نعقدها معناها تحويل آلاف الملايين الى البنوك المصرية لنتصرف فيها ، ولكن كل دولار منها يقابله جنيه مصرى علينا أن نوفره ، ومرتبط بوجود مشروع مدروس جاهز للتنفيذ . فلا تنتشر روح التواكل وانتظار سقوط المطر !

● إننا يجب أن ندرك أيضا أن الطريق شاق ، وأن هذه المشروعات سوف تستغرق زمنا حتى تؤتى ثمارها . وبالتالى فالمرحلة الاولى للانفتاح هى مرحلة إدخار ، وحرص على الموارد ، وصعوبات ، واولويات .

● إن قانون الاستثمار الجديد ذاته ، ترك الكثير من الامور للبساطة التقديرية للجهة أو الشخص المسئول عن التنفيذ وهذا امر له خطورته من ناحيتين : من ناحية احتمال الخروج عن الخطة العامة للبلاد ، ومن ناحية عدم اطمئنان الاجنبى ذاته لهذه السلطة التقديرية . فالثقة تتدعم بالقواعد لا بالاشخاص . ولذلك لابد أن يستكمل القانون بلائحة أو بغيرها أى بقواعد مكتوبة لا تعوق الانفتاح ، ولكن تنظمه ، لمصلحة الطرفين معا .

● إن منطق الانفتاح ، بقواعده وضوابطه ، يجب أن يمتد من الوزير الى الموظف الصغير الذى يباشر العمل اليومى ويحتك به وجها لوجه . فالقرارات العليا يمكن أن تضيق شرايينها حتى تختنق كلما نزلت الى ساحة التطبيق ، بسبب لوائح ، أو تركيز سلطة ، أو مخاوف ، أو رواسب ..

فما معنى أن يضع فرد ، مصرى أو أجنبى ، أمواله المستوردة فى بنك ويكون له حق استخدامها قانونا ، ولكنه لا يصرف منها شيئا إلا بشق الأنفس وبعشرات الاجراءات والتوقيعات!

● الخطة .. الخطة !.. المشروعات المدروسة الصالحة للتنفيذ ، اهم من أى شيء آخر .. وبغير الخطة يمكن ان نتعرض لأزمات كالتضخم المفاجيء ، أو الاختناقات ساعة تجيء لحظة تحويل العائدات الى الخارج بعملات حرة ، أو نفقد الهدف الاجتماعى الذى نستهدفه من التنمية ، أو تطغى المشروعات التى تجيء "المتلهف" اسرع واكبر ربح دون عائد محلى كبير وأروى هنا واقعة صغيرة ..

حين آراد ديجول أن ينفتح على مصر أرسل بعثة من أكبر رجال الصناعة والمال فى فرنسا . وجرت مباحثات مع الجانب المصرى كان لها ضجيج ، ولكنهم بعد ان رحلوا قال لى السفير الفرنسى وقتها : جاء وفدنا وفى ذهنه أن لديكم خطة وبالتالى سوف تطرحون انتم ماذا تريدون . ولكن

الجانب المصرى سأل الفرنسيين : ماذا لديكم ؟.. فاذا قالوا مثلا : يمكننا أن نقيم مصنعا لكذا ، قالوا له : عظيم .. نريد واحدا منه ! وهكذا عاد الوفد الفرنسي وقد اقتنع انه ليس لدينا خطة ، وأننا لا نعرف الاولويات التي نريدها ، وبالتالي لا يمكن إقامة مشروعات كبيرة بهذا الاسلوب .

● التدريب .. التدريب ! ليس تدريب العامل والموظف وحده ولكن اكبر المديرين أيضا . فعلوم الادارة والتجارة والاقتصاد تتغير بسرعة وسياسة العالم المتقدم تقوم على أساس سياسة "التعليم المستمر" التى أشارت اليها ورقة اكتوبر . قال لى أستاذ جامعي ممتاز سافر مؤخرا : كنت أدرس مادة التجارة الخارجية ، فوجدت انها صارت فروعا وتخصصات .. فهناك علم "تخطيط التجارة الخارجية" .. وهناك .. وهناك .."

كان هذا نص المقال .. وفي الصباح التالي اتصل بي الرئيس السادات ، وكان غاضباً .

في ١٣ يوليو (تموز) ١٩٧٤ في اليوم التالي من نشر مقالي عن الانفتاح ، اتصل بي الرئيس السادات تليفونيا وقال لي إن الدكتور عبد العزيز حجازي غاضب جدا من هذا المقال ، وانه شكاني اليه ، وان ظهور مثل هذا المقال بهذا العنوان في الصفحة الأولى من « الأهرام » وموقعا باسمي بعد اقل من ثلاثة أشهر من صدور القانون ، يعرقل الانفتاح ويثير له مشاكل كثيرة . وانطلق السادات في كلام طويل لم أعد اميز منه بالضبط ماذا يمكن ان يكون كلام الدكتور حجازي وماذا يمكن ان يكون كلام السادات نفسه .

وقد كنت على وشك السفر الى الخارج بضعة اسابيع للعلاج في لندن ، فلما عدت وجدت ان الدكتور حجازى قد استعمل في مؤتمر صحفي له عبارة « ان الانفتاح ليس سداح مداح » ، ولاحظت ان ثمة حملة لا تخطئها العين الخبيرة على الدكتور حجازى في الصحف المصرية ، وسمعت من بعض الاصدقاء ان الدكتور حجازى بدأ يشكو في مجالسه الخاصة من تآمر بعض الوزراء عليه وعدم تعاون اجهزة اخرى في الدولة معه .

وذهبت أزور الدكتور حجازى اسأله عن الاخبار ، واشرت في حديثي معه الى انه استعمل العبارة التي قيل لي انه غضب منها .

وانفجر الدكتور حجازى في حديث غاضب طويل . أذكر منه جوهره المتصل بموضوع الانفتاح . فقد قال لي ما معناه : أنه اصدر قانون الانفتاح ، وأنه تم السماح « بالاستيراد بدون تحويل عملة » لأول مرة (طبعا ليس هناك شيء اسمه استيراد بدون تحويل عملة ! ولكن ثمن المستوردات يدفع من عملات المصريين في الخارج دون أن تمر هذه العملات على مصر ، أى « من بره بره ») ولكن الدكتور حجازى قال لي إنه قرن ذلك باصدار قائمة بستين سلعة يمكن استيرادها على هذا النحو .

وهى سلع ومواد مطلوبة لتسيير عجلة الصناعات والمهن المحلية فى كل مجال . فعشرات الآلاف الذين يعملون فى قطاع التجارة لم يعد لديهم ما يلزم التجارة من « مفصلات معدنية » و « كوالين » وغيرها ، والاف مصانع الاحذية الصغيرة أيضا تنقصها مواد كثيرة ضرورية لصناعة الاحذية ، والامثلة كثيرة فى الصناعات المتوسطة . المهم انه فهم الانفتاح بهذا المعنى . على أنه تسهيل تدفق هذه الاصناف ومعنى ذلك انه من ناحية ، يحرك عجلة الاقتصاد والانتاج والعمالة على نطاق واسع جفت ينابيعه وبدأ يتوقف . وأن هذا التحديد من ناحية أخرى سيعيد الى النشاط الاقتصادى العارفين به ، وأهل التجارة والصناعة الحقيقيين .

ولكن الدكتور حجازى قال مستطردا انه فوجىء بالهجوم الاستهلاكى الذى ليس اول ما تحتاج اليه البلاد بعد سنوات الحرب ، من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٣ .

وقال لى فيما اذكر : لو أن لديك مالا فى الخارج ، فأسهل عليك وبدون اى علاقة بالتجارة والصناعة ، ان تشترى من بيروت « فستقا » بمائة الف جنيه ، وتعرضها فى اسواق القاهرة وسوف تلتهمها القاهرة فى اسبوع ، فتكسب ارباحا طائلة بسرعة وتستورد « فستقا » من جديد ، وهكذا يدور مالك عشرات المرات بسرعة .. والبلد ليست مشكلته الآن الفستق والشيكولاته وزجاجات « السفن أب » التى تستورد وتباع الزجاجة منها فى مصر بخمسة وسبعين قرشا (اسعار زمان قبل تضخم ١٢ سنة بعد ذلك) .

واعترف الدكتور حجازى بأن هناك قوى عاتية تضغط فى هذا الاتجاه . وبدخول أصناف من الناس الغرباء عن عالم التجارة والمال والاقتصاد ، وبمخاطر هذا التيار الذى يجرف أمامه كل سدود أو قيود أو نظم او قوانين .

ولم يمض وقت طويل حتى جاءت ليلة ، كنت فيها ساهرا فى مكتبى كرئيس لتحرير « الاهرام » ، عارفا ان الرئيس السادات مجتمع بالدكتور حجازى رئيس الوزراء ، وبالسيد ممدوح سالم نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية ، وانهم يبحثون تعديلا وزاريا محدودا . ثم علمت ان الاجتماع انتهى وان الدكتور حجازى عاد الى بيته ليفكر فى اقتراحات التعديل كما طلب إليه السادات . وبعد ساعة أو ما يزيد قليلا على ذلك ، جاءنا خبر للنشر صبيحة اليوم التالى : ان السادات قد كلف السيد ممدوح سالم برئاسة وزارة جديدة . وذلك قبل أن يعلم الدكتور حجازى فى بيته بالخبر !

● ● ●

كانت موجة الانفتاح « السداح مداح » عاتية بالفعل .. وقد تزامن ذلك مع الارتفاع الهائل والمفاجىء فى أسعار البترول بعد حرب ١٩٧٣

وبالتالي سفر المصريين للعمل في بلاد البترول ليس بالآلاف ولكن بمئات الالاف وبالملايين فيما بعد . وتدفقت تحويلات المصريين بالعملات الصعبة بآلاف الملايين على مصر من كل جهة . كما تدفق « الاستيراد بدون تحويل عملة » اى استخدام تلك العملات من عرق المصريين في الخارج للاستيراد الاستهلاكي راسا من جهة أخرى .

وسبحت مصر - السوق وليست الدولة - على بحر من العملات الصعبة لم يسبق له مثيل لا قبل ١٩٥٢ ولا بعد ١٩٥٢ . وبدلا من انتهاز هذه الفرصة لتحويل هذه الاموال الى قنوات استثمارية منتجة ، تركت ترتع في الاسواق وتوجد الشهوات الجديدة وتتيح الفرص للغامرين واللصوص والمريقين الذين ينتحلون صفة رجال الأعمال . هذا الواقع هو الذى رفع ديون مصر من الف مليون دولار إلى اكثر من ثلاثين ألف مليون دولار في عشر سنوات ، وجعل مصر لا تفيد من مرحلة الثروة البترولية ، واخذ المصريون يعودون بلا عمل ، وبالتالى كل مصاعبنا الاقتصادية التى نحن فيها الان .

لم اكن بالطبع وحدى في توقع مخاطر هذا الانجراف فقد كان اى اقتصادى معتدل يرى هذه المخاطر المؤكدة ، ويرى خطورة اعتماد مصر في انفاقها الهائل الجديد على مصادر ليست في يدها : تحويلات مصرية آتية من الخارج ستنتهي ذات يوم وقروض أجنبية متلاحقة سيحل أوان سدادها وسداد فوائدها ذات يوم عصيب .

ولكن خمر هذا المال السهل والسائب معا ذهب بمعظم العقول . وخدر اعصاب كثير من الناس حتى ممن يملكون الخبرة والمعرفة . فناموا على مخدة ناعمة من الاقتراض الاجنبى والمال المتدفق دون انتاج .

وانى لاذكر انني عقدت اجتماعا لقسم التحقيقات الصحفية في « الأهرام » مع رئيسه في ذلك الوقت الزميل الكبير الاستاذ صلاح هلال ، وقلت لهم : إن الصفحة الأولى في كل الجرائد اليومية متشابهة بحكم الظروف ، وبحكم انها مخصصة لنشر أهم الاخبار اساسا ، ولكنى اعتبر الصفحة الثالثة بمثابة « صفحة اولى » أخرى ، فهي أول ما يراه القارىء عندما يفتح الجريدة . واريد منكم ان تكرسوا جهدكم في هذه الصفحة لرسالة واحدة : تحقيقات صحفية مدروسة تدافع عن الانتاج المصرى ورأس المال الوطني من الصناعات الكبرى الى الحرف اليدوية .

ودهش بعض الزملاء الذين كانوا يتصورونني - عن عدم معرفة - اشتراكيا متطرفا وداعية الى التأميم بلا حدود !! وقد قاموا بهذه المهمة خير قيام ، وكانت تلك محاولة اخرى غير ما اكتب بامضائي للوقوف في وجه موجة التبعية الاقتصادية والاغتراب النفسي ونمو مركب النقص بين المصريين إزاء كل ما هو « مستورد » .

ولكن هذا كله كان كاوراق تذروها الرياح العاتية .

الواقع أن الاوضاع التي كشف عنها الانفتاح كانت هي بداية الشرخ الحقيقي بين السادات وبيني . الشرخ الذي أخذ في الاتساع حتى نهاية هذه العلاقة بعد سنوات كتبت مرارا في « الأهرام » محاولا مقاومة هذا التيار تحت عناوين التنمية والبناء والاعتماد على النفس وعدم تكرار مأساة التبعية الاقتصادية والارتهان للأجنبي ، ولكن صوتي كان وحيدا وبدا « نشازه » عن النغمة السائدة يتزايد ويثير مزيدا من المشاكل والتوترات بيني وبين أهل السلطة بوجه عام . ولم تكن هناك وقتها صحف معارضة ولا أحزاب معارضة كما هو الحال الآن . ولم تكن قد « راحت السكرة وجاءت الفكرة » كما نحن الآن . ومن شعوري بهذا الشذوذ في موقفي كرئيس لتحرير « الأهرام » بدأت أفكر في ترك هذا المنصب دون مشاكل أكبر ، وأن أعود مسئولا فقط عن مقال اكتبه وأضع اسمي عليه ، الأمر الذي يمكن أن تحتمله الدولة ، ولشعوري بأنه سوف يكون مستحيلا أن أتحمل مسئولية ما لابد أن تعكسه الجريدة الأولى والأهم من أشياء أساسية تغير المجتمع ولا استطيع أن أتحمل مسئوليتها .

ومن المؤلم أن أكتب هذا الكلام الآن بعد أن مضى عليه حوالي أربعة عشر عاما ، وقد اضطرت مصر بعد هذا التسيب والفساد والانقياد للمصالح الشخصية الرعناء إلى « إنغلاق ثان » جديد لمواجهة كارثة أعباء الديون وفوائدها . وهو في هذه المرة ليس « إنغلاقا إختياريا » قررناه بإرادتنا لكي نقيم أسس المجتمع الصناعي الذي لابد منه ، ولكنه « إنغلاق اضطراري » أجبرنا عليه الدائنون ، وأوصلنا إليه سطوة عشر سنوات من الجشع وقصر النظر وانعدام الاحساس بالمسئولية فضلا عن الآثار النفسية المدمرة التي أوجدتها في مجتمعنا هذه السياسة الاقتصادية ، إذا كانت جديرة باسم « سياسة إقتصادية » .



المرض والاستقالة

في أوائل سنة ١٩٧٥ ، كنت مدعوا ذات ليلة إلى العشاء على مائدة سفير الفاتيكان في مصر وأكلت طعاما خفيفا ، ولم أسهر في الجريدة ، ونمت مبكرا ، دون أي شعور بأي تعب أو إرهاق .

واستيقظت كعادتي في الساعة السابعة صباحا ، ونهضت من الفراش وإذا بي أقع على ظهري غير قادر على النهوض . كان ذهني صافيا تماما ولا أشعر بأي ألم أو شعور غير طبيعي . كنت قادرا على أن أحرك أطرافي بشكل عادي ، ولكنني لم أتمكن بشتى المحاولات من أن أستجمع أطرافي وأنهض من الفراش أو أتمكن من مجرد الجلوس عليه ، إذ كنت لا أكاد أرفع ظهري عن الفراش إلا وأعود فأقع على ظهري من جديد .

وناديت زوجتي وشرحت لها حالتي الغريبة وعلى الفور اتصلت زوجتي تليفونيا بجارنا الذي كان يسكن في نفس العمارة ، أبرز أطباء القلب الاستاذ الدكتور محمد عطية . وقد كان ومازال الطبيب الذي يتابع صحة الرؤساء المصريين المتعاقبين . وبعد أن فحصني الدكتور محمد عطية ، إتصل فورا بالأستاذ الدكتور يحيى طاهر طبيب المخ والأعصاب ، الذي حضر من بيته في دقائق . وبعد فحص متصل قال لي الطبيبان الكبيران ان شيئا ما أصاب جهاز التوازن في المخ وأن عليّ كمرحلة أولى أن لا أبرح الفراش شهرين على الاقل ، أكون خلالها منوما طيلة الوقت حتى يستجمع جسمي توازن أطرافه .

وعندما خرج من حجرتي ، قال لزوجتي أن الحقيقة أنني أصبت بجلطة في أحد شرايين المخ ، وطلب منها أن لا تقول لي ذلك لأن كلمة « جلطة » عندنا في مصر تصيب المريض بالذعر . فلم أعرف هذه الحقيقة إلا بعد شهور في مستشفى البحرية ، في ضواحي واشنطن ، حيث يقول الأطباء في أمريكا لمرضاهم الحقيقة صريحة مهما كانت قاسية .

وعندما رويت لزوجتي ماقاله لي الأطباء الأمريكان بعد فحوص مرهقة طويلة في شتى معامل المستشفى وبمختلف أجهزتها قالت لي زوجتي : هذا بالضبط ماقاله الدكتور محمد عطية والدكتور يحيى طاهر قبل شهور في القاهرة من اللحظة الأولى .

المهم أنني أمضيت مايقرب من شهرين منوما باستمرار في حجرة مظلمة لا أقابل فيها مخلوقا ، حتى بدأت أتمكن لأول مرة من السير على قدمي في البيت ، بمساعدة أحد من أفراد البيت . وبعد اسابيع تمكنت من أن تأخذني السيارة إلى نادي الجزيرة حيث أتمشى متوكئا على عصا لمدة نصف ساعة على الأكثر أعود بعدها الى الفراش .

كان التحسن بطيئا بدرجة كبيرة وكانت « الأهرام » قد نشرت خبر مرضي بشكل مثير في الصفحة الأولى . وفي الوقت الذي طلب فيه الرئيس السادات اعداد الاجراءات لعلاجي في الخارج أول ماتسمح الفرصة ، لا أنسى أنني تلقيت برقية من السيد اسماعيل فهمي الذي كان في واشنطن في احدى جولات المباحثات مع أمريكا ، ومن الدكتور أشرف غربال ممثلنا في واشنطن ، بأنهما قرأ الخبر ، وأن أحسن مكان للعلاج هو مستشفى البحرية في أمريكا ، ولما كان دخول هذا المستشفى لغير رجال الأسطول الامريكي ، لايتم إلا بموافقة من وزير الأسطول الأمريكي ، فقد بادرا فورا بطلب هذا الاذن ، وحصلا عليه وأن المستشفى في انتظاري بمجرد أن أتمكن من السفر .

عرفت هذا كله بعد الافاقة من غيبوبة الاسابيع الطويلة . كما عرفت أن الرئيس والمسئولين والأهل والأصدقاء والزملاء كانوا جميعا دائمي السؤال بالتليفون وكثير منهم تفضلوا بالحضور إلى البيت .

ومع السماح لي بالرد على بعض التليفونات واستقبال بعض الزوار عادت صلتي تدريجيا بالحياة والناس . وكان من أول من رأيتهم طبعا الأطباء الذين نصحوا لي بشدة أن لا أعود إلى عمل مرهق يومي كرئاسة تحرير الأهرام في ظروف بالغة الحساسية والتوتر والتعقيد . وقد مرت على حرب ١٩٧٣ سنتان دون نتيجة وبدأ التململ العام يعود الى البلاد بعد الفرحة الأولى وبدت الدولة عاجزة عن عمل أي شيء .

هكذا أخذت ألح على الرئيس السادات كلما اتصل بي تليفونيا ، والح على كل مسئول آخر له بالرئيس صلة قوية ، يزورني أو يخاطبني تليفونيا أنه يجب البحث فورا عن رئيس آخر لتحرير الأهرام ، وأنني قد قررت نهائيا أن لا أعود الى هذا المنصب ، ويكفيني أن أعود كاتبا لمقالات سياسية ومسئولا عن ما يحمل توقيعي فقط .

وكان الرئيس السادات يصمم على تأجيل هذه الحكاية ، مكررا أنني أقول ذلك تحت تأثير صدمة المرض وكنت أرد عليه دائما بأن الدكتور محمد عطية هو نفسه الذى يجرى فحصا شاملا للرئيس مرة كل أسبوع وانني راض بما سيقوله الدكتور محمد عطية حول قدرتي على العودة الى العمل .

وظل هذا الأخذ والرد يتكرر دون استجابة لالحاحه حتى أزف موعد سفرى الى مستشفى البحرية فى أمريكا .

ومع ان المرض كان سببا جوهريا فى قرارى هذا ، رغم تأكيد السادات لى كل مرة ، أننى سأعود من أمريكا إن شاء الله « زى البمب » إلا أنه كان ثمة سبب اخر أقوى وأعمق .

لقد أتاحت لى الأسابيع الهادئة التى تلت افاقتى من الغيبوبة الطويلة ، فرصة التأمل الهادىء فى موقفى بأكمله .

إننى لا أتعب من العمل الصحفى بل أشعر فى نهاية أى يوم مهما طال من العمل الصحفى المحض بنشوة وراحة نفسية . وأظن أن هذا هو حال من يزاول عملا يحبه . ولعل اكسير الحياة واحسن علاج للصحة هو أن يشعر المرء انه يحقق ذاته فى عمل خلق له . ولكن الارهاق الحقيقى يأتى من التوتر والقلق والضيق وعدم اليقين وخطورة المزالق وغير ذلك مما يحيط بالعمل ، وليس العمل نفسه . وإننى استشهد دائما بكلمة سمعتها من شاعر مصرى شارد مهاجر فى آفاق الدنيا الواسعة دون أن يرى مصر منذ حوالى ثلاثين سنة ، إذ دخل علىّ يوما يشكو من مشاكل عمله فى جريدة « الجمهورية » هو الشاعر الذى لانعرف أين هو بالضبط ، عبد الرحمن الخميسى ، وقال لى ملخصا مشاكله « إننى أضيع جهدى أدافع عن قيثارتى ، ولا أعزف ألحانى ! »

وشعرت أننى قد تعبت حقا بهذا المعنى وليس سواه .

لقد تكاثرت خلافاتى مع الرئيس السادات ومع معظم الذين كانوا حوله . وبدأت الساحة منذ الانفتاح تمتلىء بدلا من المستثمرين الحقيقيين بأشباح أشخاص نسمع عنهم ولا نراهم ، أخذت رائحة تجاوزاتهم تملأ الأنوف ، وبدا أن الوضع الاقتصادى فى البلاد بدلا من أن يأخذ طريقه الى تصحيح وتجديد وانفتاح مثمر ، أخذ يتفكك تحت مطارق تسوية أجنبية ومحلية ، وكان المقصود هو مجرد تفكيك هذا الاقتصاد وتركه مبعثرا عاجزا عن الحركة ، وليس المقصود اعادة صياغته تحت أى عنوان مفهوم ، رأسماليا كان أو اشتراكيا أو مختلطا . ولمن هو أسير قراءة التاريخ مثلى ، كان يبدو أن الموجة الجديدة تستهدف انهاء محاولة اقامة اقتصاد وطنى يستطيع الوقوف على قدميه والتعامل مع الدنيا طبقا لقواعد مقبولة ، واعادة هذا الاقتصادى الى التبعية الكاملة للخارج مما يذكر بما

حدث في أواخر عهد الخديوي اسماعيل ، تحت حكم اللورد كرومر والخديوي توفيق .

وكنت احار في فهم هذه الظاهرة : هل هي خطة محسوبة لا نشعر بها كما يسحب موج البحر السابحين على الشاطيء فلا يشعرون بأنفسهم إلا وقد صاروا عاجزين عن مقاومة التيار والعودة الى اليابسة ، وأن هذا جزء من الثمن السياسي المطلوب دفعه للولايات المتحدة الأمريكية حتى تساعد على فك الحبل من حول عنق مصر وأى حاكم مصرى ، بالضغط على اسرائيل للانسحاب ؟ أم أن الامر أبسط من ذلك ولا يعدو عدم فهم الفرق بين الحرية الاقتصادية وبين الفوضى الاقتصادية ؟ أم هو فساد يستشرى ويجد فرصته كالعادة واسعة في مرحلة انتقال ؟

ولم يكن هناك وقتها أحزاب المعارضة ولا صحف المعارضة . ولذلك كان جهدى في مغالبة هذا الموج يبدو تافه الأثر ، لأنه جهد وحيد ، ولأنه في غير المناقشات مع المسئولين ليس له وجود علنى الا على صفحات جريدة « الاهرام » التي تفرض بحكم سمعتها ووضعها المعنوى من الدولة قيودا على من يكتب فيها وأى مقالات نشرتها في تلك الفترة عن محاولة تهذيب مجرى الانفتاح ، أو مرددا معاني الاعتماد على النفس في الأولى حتى يساعدنا الآخرون ولكن دون استغلال أو عن التأكيد على الدفاع عن الرأسمالية المصرية والحرف الوطنية ومعاملة المال العربي معاملة خاصة ودفعه الى قنوات استثمارية لا ترفيهية ، كل هذا كان يتبدد كما يتبدد الريش في مهب الرياح .

وكنت أقول للرئيس السادات عن يقين : إن أسلوب المساعدات الأجنبية نحونا ليس هو الأسلوب البريء المطلوب . عندما أذهب باريس لصديق أطلب مساعدته على إصلاح طوالى ، فإنه يساعدنى بأحد اسلوبين : اما أن يعطيني مبلغا من المال أقيم به صناعة أو تجارة أعتمد بها على نفسى . واما أن يعطيني « مصروفا شهريا » حتى أظل مربوطا به ، أذهب اليه أول كل شهر راجيا أخذ المصروف الذى أعيش به ! والذين يظهرون الحماسة لمساعدتنا ، يساعدوننا بالأسلوب الثانى ! إن مصر باريس مستهدفة من قوى كثيرة انهم لا يريدون لمصر .. أن تغرق ، فغرق مصر يمتد أثره المدمر غير المعروف الى المنطقة كلها وهم في نفس الوقت لايريدون لها أن تقف على قدميها من جديد ، ففي كل مرة وقفت فيها على قدميها صارت هى العامل المؤثر في المنطقة . إنهم يريدون لها أن تبقى طافية على سطح الماء فحسب . لاتنزل رأسها عن سطح الماء فتختنق ، ولا ترفع رأسها عن

سطح الماء وتتنفس بحرية .

كنت أكرر هذا المعنى على السادات كثيرا ، ولا أذكر أنه أمن على كلامي هذا او عارضه مرة واحدة .

وعلى جبهة اخرى ، كانت الخلافات ومظاهر عدم الثقة بين السادات وبعض القوى العربية الأخرى حول اتصالاته الدولية عموما والامريكية بالذات واشاعات الحلول المنفردة ، إلى آخره ، تثير نوعا آخر من المشاكل بيني وبين الرئاسة وأجهزة الدولة الأخرى . وكان « الأهرام » كثيرا مايخرج مقدما الاحداث والتطورات الخاصة بهذا الموضوع بعكس ماتراه الدولة والصحف الاخرى وأسجل أن السادات كان كثيرا مايتصل بي تليفونيا يناقشني ويؤاخذني على ذلك قبل النشر أحيانا وبعد النشر أحيانا أخرى ، وكنت أناقشه طويلا كما كنت اقول له دائما : ياريس ، على أى حال ، لا لزوم ، بل وليس من المفيد ، أن تصدر الصحف المصرية الثلاث بنفس العناوين ونفس طريقة ابراز الانباء ونفس التعليقات . بل إن بعض الاختلاف مطلوب وأكثر فائدة ويقوى موقفك إزاء أمريكا أو اسرائيل أو غيرها ، طالما أننا لانصيب سياسة أساسية لك .. وكان يوافقني ، ولا اعرف راضيا أم على مضض ، ولكنني أسجل أنه لم يحاول اكراهي على غير ذلك . والأمثلة اذا اتيحت الفرصة كثيرة جدا .

ولم تكن هذه الملابسات التى أخذت تتكاثر هي كل شيء .. فعلى اقترابي واتصالي الكثيف بالرئيس السادات في تلك الفترة بالذات ، وعلى محاوراتنا الحرة حول كل شيء ، لم يكن من الصعب أن أدرك أنه لايتحدث أمامي بكل مافي ذهنه . أو أنه يطلعني على اهم أسراره . كما بدا يصبح معروفا لى جيدا أنه كان يجلس معي ونتناقش في أمور معينة ، كان يجلس مع آخرين يختلفون فى أفكارهم عنى تماما كانت اتصالاته متنوعة وفيها المعلن والخفي . وهذا حق وربما ضرورة لرئيس الدولة في مثل نظامنا . ولكن هذا الغموض أخذ يتزايد والمساحات التى لا أعرفها من فكره تتسع ، بالرغم مما كنت أشعر به دائما من حرصه على بقائي في عملي .

هكذا شعرت أن بقائي رئيسا لتحرير الاهرام وان كان قد صار صعبا من الناحية الموضوعية المجردة فانه لن يلبث أن يكون مستحيلا وهكذا كان تصميمي في تلك الفترة على ترك مسئولية رئاسة التحرير نهائيا ..

وإنني لاذكر ، من أول لحظة لمرضى ، ومن القاهرة إلى مستشفى البحرية فى أمريكا أن كل طبيب فحصني سألني نفس السؤال . وهو : ما الذى أزعجك بشدة فى الثمانية والأربعين ساعة السابقة على ذلك الصباح ؟

وكنت أجيب دائما : لا شيء .

ولست أعرف إذا كنت مخطئا أو مصيبا في تلك الاجابة فقد « قلب كياني » في هذه الفترة بالفعل خبر قرأته ذات صباح في جريدة أخبار اليوم ، يتحدث عن ضبط مؤامرة واسعة ضد النظام ، وكلام عن اتصالات بجهات اجنبية واسماء عدد من المثقفين والصحفيين المصريين ، منهم معارف وأصدقاء أعرف جيدا بطلان هذه الاتهامات بالنسبة لهم ، وتوقع القبض عليهم .

ذكرني هذا الخبر بالمؤامرة الكبرى المزعومة التي أعلنها اسماعيل صدقي باشا رئيس الوزراء سنة ١٩٤٦ وانا مازلت طالبا ، وشملت كل كتاب ورموز الحركات التقدمية والأسماء المطالبة بالتغيير في شتى مجالات السياسة والفنون والآداب مثل سلامة موسى ومحمد زكي عبدالقادر وتعمان عاشور وعشرات غيرهم ، بقصد اجهاض كل الذين كانوا يعارضون ما كان يسمى بمشروع صدقي ـ بيفن لعقد اتفاقية جديدة بين مصر وانجلترا .

في هذه المرة ـ ١٩٧٠ ـ لم يحدث شيء من ذلك ، ولم تتكرر الاشارة الى الخبر ولكنني أذكر تماما كيف زلزل هذا الخبر كياني وأنا أقرأه ذلك الصباح وسألت نفسي : كيف استمر في المساهمة في الحياة العامة وفي منصب مسئول ولو معنويا لو ان شيئا من هذا النوع حدث ؟

واقترب موعد سفري الى أمريكا لاستكمال العلاج واتصل بي الرئيس السادات من أسوان وسألني إذا كنت أستطيع أن أذهب إليه وأراه قبل أن أسافر مع ترتيبات تجعل الرحلة مريحة .

وركبت طائرة خاصة بالرئاسة ، وليس عليها سواي إلا المرحوم سليم اللوزي صاحب ورئيس تحرير مجلة الحوادث اللبنانية والسيد أشرف مروان مدير مكتب الرئيس السادات للمعلومات في ذلك الوقت .

وقضيت الليلة في الفندق على أن أقابل الرئيس في صباح اليوم التالي . وأنا خارج من الفندق صباح اليوم التالي كان يدخل من بابه هنري كيسنجر ، قادما من عند السادات في احدى رحلاته المكوكية الشهيرة ، وقد علا البشر وجهه .

بمجرد أن جلست الى الرئيس السادات في حديقة الاستراحة المشمسة ، قلت له انني قابلت كيسنجر عند باب الفندق وانه كان مهلل الوجه بشكل واضح ، فلابد أن المباحثات قد نجحت .

وقال لي السادات : فعلا ، إظن اتفقنا على كل شيء ، وهو ذاهب الى القدس الآن ، وسيعلن النتائج من هناك قبل أن يعود الى امريكا (الذي حدث أن كيسنجر ذهب الى القدس واجتمع مطولا بمجلس الوزراء الاسرائيلي كله وخرج متحسرا الى المطار مباشرة غاضبا

وامام الصحفيين وعدسات التليفزيون ، اغرورقت عيناه بالدموع ، واعلن فشل مهمته بعد كل هذه الرحلات وانه عائد الى أمريكا ولن يرجع الى الشرق الأوسط حتى يتغير الموقف) .

واستمر السادات في حديثه المتفائل قليلا ، ثم سرح مع خواطره فترة وقال لى « بس اظن المرة دى ح تدخل فى مواجهة مع كل الدول العربية » !

واستوقفتني هذه الجملة بشدة وقررت أن لا أخضع لأى اغراء بالبقاء .

وبالفعل ، عندما يئس الرئيس السادات نهائيا من قبولى الاستمرار فى رئاسة التحرير لم يترك الفرصة بذكائه ، وقال لى أنا عارف انت ماتحبش تهاجم قرايبك العرب والفلسطينيين .

وضحكت ، وكأنني أخذت تعليقه على انه مجرد نكتة ومداعبة .

وسألني عن رأيى فيمن يتولى رئاسة مجلس ادارة ورئاسة تحرير الاهرام ، وقلت له ان المرشح الطبيعي هو احسان عبدالقدوس الذي يعمل كاتبا بالفعل فى « الأهرام » وقال لى أن هذا هو نفس مايدور فى ذهنه ، لكن هل إحسان قادر على تحمل المسئولية وأن « يركن » اهتماماته الروائية والسينمائية ؟ ثم قال لى : إن سيد مرعي واسماعيل فهمى « وألف واحد » حدثوه عن أمل علي الجمال فى أن يكون رئيسا لتحرير الأهرام بعد أن ظل مايقرب من عشرين عاما مديرا للتحرير وبالتالى فهو يفكر أن يكون احسان عبدالقدوس رئيسا لمجلس الادارة وعلي الجمال رئيسا للتحرير ويتعاونان معا . وقلت له ان الاثنين على أية حال صديقان حميمان ويمكن أن يكمل أحدهما الآخر .

وحييت الرئيس مودعا وانصرفت .

ولدى وصولى الى الفندق ، أسر لى أحد رجال رئاسة الجمهورية أن هناك طائرة خاصة من طائرات الرئاسة ستصل مصر اليوم حاملة السيدة جيهان السادات والسيدة ايملدا ماركوس التى كانت ضيفة عليها فى مصر . وأنني يمكن أن أعود على هذه الطائرة إلى القاهرة فى نفس اليوم بدلا من المبيت ليلة أخرى فى أسوان ، بشرط أن لا اخبر أحدا فالراغبون فى العودة كثيرون ، وهذه هى طائرة الرئيس السادات الخاصة .

وفى الموعد المحدد كنت فى المطار واشتركت فى تحية السيدة جيهان السادات والسيدة ايملدا ماركوس بكل ما كانتا تتبديان به من جمال وجاذبية وأناقة بالغة ولم يكن معى فى الطائرة الا اللواء سعد مأمون قائد الجيش الثانى فى حرب اكتوبر وعلمت منه ان الرئيس السادات بلغه بقرار تعيينه محافظا للصحراء الغربية وكان الحزن الشديد باديا عليه بوضوح لهذا القرار .

وإنا فى فراشي بالبيت حوالى الساعة العاشرة ليلا من نفس اليوم ، اتصل بي الدكتور أحمد كمال أبوالمجد وزير الاعلام فى ذلك الوقت وقال لي أنه واقع فى مشكلة حزبية ويريد أن يعرف مني وجه الحقيقة فيها فقد اتصل به الرئيس السادات تليفونيا وطلب منه كتابة قرار ينشر صباح اليوم التالي بتعيين احسان عبدالقدوس رئيسا لمجلس ادارة الأهرام ووضع اسمي أحمد بهاء الدين وعلي حمدى الجمال كرئيسين للتحرير . ولما اتصل بالأستاذ إحسان عبدالقدوس قال له احسان أنه لم يفهم ذلك ، وأنه يشترط لوضع اسمه كرئيس لمجلس ادارة الأهرام أن لايوضع اسم أحمد بهاء الدين كرئيس للتحرير ، إنما يوضع اسم علي حمدى الجمال وقال له كمال ابوالمجد انه آسف وأنه لايستطيع إلا أن يصدر القرار كما قال له السادات شخصيا ، وأنه كتب بخط يده ما أملاه عليه السادات . فقال له إحسان عبدالقدوس : إنه مصمم على موقفه وعلى أن يوضع إما اسمه وإما اسم أحمد بهاء الدين على الجريدة .

وسألني الدكتور أحمد كمال أبوالمجد ماهي الحكاية قبل ان يتصل السادات مرة أخرى ويروى له ماحدث . وقلت للدكتور كمال أبوالمجد : إنني لم أفهم من الرئيس مطلقا ان اسمي سيبقى على جريدة « الأهرام » وكل ما دار بيننا كان حول تعيين احسان عبدالقدوس رئيسا لمجلس الادارة وعلي حمدى الجمال رئيسا للتحرير في تقديرى أن الامر لايخرج عن احتمالين :

الاحتمال الأول ان يكون الرئيس السادات تعمد اخفاء الفكرة عني حتى لا أرفضها ليضعني أمام الامر الواقع وانا مسافر بعد يوم إلى أمريكا . وإما أن هذا الترتيب خطر له بعد ان تركته وأنا مقدر حسن نيته ولكنني لا أريد هذا الترتيب وأنا لا أنوى أن يتصور أحد انني مسئول عن رئاسة تحرير « الأهرام » وبالتالي لا داعي لأن يوضع اسمي وكأنني أحد المسئولين . وقال الدكتور كمال ابو المجد أن المسألة بالنسبة له ليست رغبة احسان أو رغبتي ولكنها مسألة تعليمات رئيس الجمهورية له وقال لي ان أحد اصدقاء إحسان عبدالقدوس قال له أن احسان يرى ان وجود إسمي على الأهرام سيجعل الناس يتصورون انه مجرد « طرطور » وان أحمد بهاء الدين هو المسئول الفعلي . وابدى لي دهشته الشديدة لأنه يعلم اننا صديقان حميمان . وقلت له : هذا صحيح ، وقد بدأت حياتي الصحفية تحت رئاسة احسان عبدالقدوس ولكنني اخذت ألح على الوزير كمال ابو المجد ان لايعقد الامور ولايعاود الاتصال بالرئيس السادات وان ينفذ رغبة احسان عبدالقدوس لأنها رغبتي انا ايضا وحتى لو لم تكن رغبتي فان مجرد ابدائه لهذا الطلب كاف لان لاافكر في العمل معه او وضع اسمي الي جواره طالما ان هذا يضايقه .

وقد سافرت فى اليوم التالى الى الولايات المتحدة وعدت بعد شهور ، ولم اسأل ماذا حدث ، ولكن صدر « الأهرام » وعليه اسم احسان عبدالقدوس رئيسا لمجلس الادارة وعلى حمدى الجمال رئيسا للتحرير . ومن المؤسف ان الصراعات بينهما تفاقمت لدرجة جعلت السادات بعد مدة يصدر قرارا اخر بتعيين المرحوم يوسف السباعى رئيسا لمجلس ادارة الاهرام وعلى حمدى الجمال رئيسا للتحرير واعادة احسان عبدالقدوس كاتبا بالاهرام .

فى امريكا قال لى الاطباء ان نجاتك هذه المرة كانت معجزة لا تتكرر وعليك ان تتجنب تكرارها بكل وسيلة . وقالوا لى لولا انك صغير السن لطلبنا منك ان تتقاعد لأن مهنة الصحافة فى منطقتكم من العالم لاشك قاتلة . واقترحوا علىّ وهم يجلسون حولى بملابس الاسطول البحرى هذه المرة ويرأسهم ادميرال بحرى ، ان آخذ اجازة لاتقل عن سنتين شرط ان تكون خارج بلدى . وسألتهم كيف ؟ وقالوا : ابحث عن مدينة صغيرة فى سويسرا او النمسا وعش فيها حياة هادئة لمدة سنتين !!

كان واضحا انهم ظنوا اننى احد اثرياء الشرق ولست اعالج فى مستشفاهم على حساب الحكومة المصرية ! وقلت لهم . نعم سأفعل .

ووجدت ان الحل الوحيد الذى استطيع تنفيذه ان اعود الى مصر واسكن مدينة الاسكندرية بعيدا عن توتر القاهرة العصبى الهائل . ولى فى الاسكندرية شقة معقولة . وفى الاسكندرية مكتب « الاهرام » يمكننى ان اسلمه مقالا اسبوعيا .

وهذا ماعملته بالفعل بمجرد عودتى مبتعدا عن كل شىء .

ولكن اسجل ثلاثة وقائع حدثت وانا فى الاسكندرية فى اواخر صيف ١٩٧٠ .

الواقعة الأولى أن الدكتور رفعت المحجوب الذى كان الرئيس السادات قد استعان به مسئولا فى الاتحاد الاشتراكى تخلص منه بسرعة عندما هاجم « القطط السمان » اشارة الى أصحاب الثراء غير المشروع ، زارنى وأبلغنى ان أذهب لزيارة السادات ، وأن الرئيس سيطلب منى إصدار مجلة اسبوعية جديدة اسمها « ٦ أكتوبر » وقابلت الرئيس الذى قال لى أنه يريد مجلة مصرية توزع فى العالم العربى مثل مجلة « الحوادث » اللبنانية التى كانت وقتها أقوى المجلات فى المنطقة وأننى أعرف العالم العربى أكثر من سواى من الصحفيين ولى جمهور خارج مصر . ولم اكتف بالاعتذار عن المهمة ولكننى حاولت اقناع السادات بالعدول عن الفكرة كلها .. فالحوادث تتمتع بحرية لايمكن أن تنفرد بها فى مصر مجلة دون سائر المجلات أما عن استعداده لدعمها بالمال والمطابع والتسهيلات ، فليفعل ذلك مع مجلة قائمة مثل المصور أو آخر ساعة ، فإذانجحت يكون قد حقق هدفه من

توصيل رأيه الى العالم العربي ، واذا فشلت لا يلحق الفشل اسم « اكتوبر » وقد عرض السادات المشروع بعد ذلك على حمدى الجمال فاعتذر فعرض على الاستاذ انيس منصور الذى قبل العرض واصدر المجلة .

الواقعة الثانية أن المرحوم علي أمين زارني وقال لي إن الدكتور كمال ابوالمجد مختلف مع السادات وانه قدم استقالة مكتوبة وأن الرئيس قرر قبولها وكان « عيب » الدكتور أحمد كمال ابوالمجد هو استقامته ومصارحته الشديدة للسادات بما يحب ويكره وأنه استعدى على نفسه كثيرا من الصحفيين . وقال لي على أمين ان هناك خلافا شديدا بين ممدوح سالم رئيس الوزراء وبين اسماعيل فهمي نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية وأحد أقوى الناس صوتا عند السادات في هذا الوقت فاسماعيل فهمي يرى أن مهمة وزير الاعلام حاليا مرتبطة تماما بنشاط وزارة الخارجية ، وبالتالى فقد رشح المرحوم محمد رياض وكيل الخارجية ومنها وزيرا للاعلام وأن ممدوح سالم رئيس الوزراء يرفض فكرة وجود وزير آخر تابع لوزير الخارجية . وأن الرئيس نبتت لديه فكرة تعيين وزيرا للاعلام ، وأن هذا الاقتراح يلقى قبولا عام . وأخذ المرحوم على أمين يشدد الضغط عليّ بضرورة قبول المنصب مهما كان الأمر « والاح بيجي ضابط آخر ! » وقلت لعلي أمين : إنك تعرف أنني اعتذرت عن هذا المنصب في ظروف أحسن وأنا في كامل صحتي مرة من قبل (وتلك قصة أخرى لامجال لها هنا) ، وبالتالي فأرجوك أن تبلغ الرئيس السادات بلباقة اعتذاري عن ذلك . وبعد حوار طويل ، قال لي على أمين أنه سيعود فورا الى حجرته في فندق فلسطين ويتصل بالرئيس ويشرح له الأمر دون أن يترك في نفسه أثرا سيئا .

الواقعة الثالثة والأخيرة أن الاستاذ عبدالعزيز حسين وزير الدولة الكويتي اتصل بي من القاهرة وكرر عليّ دعوة الكويت للذهاب اليها وتولى رئاسة تحرير مجلة العربي . قال لي ان رئاسة تحرير مجلة ثقافية شهرية في بلد أعرفه كالكويت هو أقرب تلبية لطلب الأطباء من البعد عن التوتر النفسي والعصبي لمدة سنتين .

وكان الاستاذ عبدالعزيز حسين سبق وأن حمل لي خطابا من الشيخ صباح الأحمد وزير الاعلام سنة ١٩٧٢ عندما فصلنا الرئيس السادات من العمل الصحفي ، يعرض عليّ هذا العرض . واعتذرت يومها بما قررناه نحن المفصولين من الا يقبل أحدنا أى عمل قبل حل مشكلة المفصولين .

واستشرت أطبائي الذين جندوا هذه الفكرة ، فتوكلت على الله وقررت قبول رئاسة تحرير مجلة العربي في الكويت ، وتسلمت العمل أول يناير ١٩٧٦ ، بعد أن استأذنت في ذلك الرئيس السادات .

ظهور عثمان أحمد عثمان وأحاديث عن عبد الناصر

لم يكن ذكر جمال عبد الناصر يرد كثيرا في الاحاديث بين الرئيس السادات وبيني ، اقصد أن ذكره كان يتردد في مجال وقائع أو مواقف تاريخية سابقة يرويها السادات ويأتي فيها ذكر عبد الناصر . وهي كثيرة بالطبع ولكني لا اذكر مناسبات كثيرة تناول فيها السادات ، شخص ، عبد الناصر بالتعليق .

وأول مناسبة اذكرها الآن جاء فيها على لسان السادات ذكر عبد الناصر في واقعة تتصل بعلاقتهما ، كانت في زمن سابق بكثير . كانت سنة ١٩٦٠ فيما اذكر . وكنت قد سافرت ضمن وفد مع السادات ، رئيس مجلس الأمة ، الى « كوناكري » عاصمة غينيا لتهنئة الرئيس "سيكوتوري" بالاستقلال وحضور أول مؤتمر لحزبه بعد ذلك الاستقلال . وفي طريق العودة ، لم تكن هناك اية طائرات الى كوناكري إلا عن طريق باريس ، حيث كان الفرنسيون يعاملون المصريين معاملة الاعداء ، فذكرى تأميم القناة وحرب السويس قريبتان وثورة الجزائر – وهو الأهم – على اشدها ، ومصر هي مصدر السلاح والمال والتدريب والدعاية للثورة ، فكانوا يعتبرون كل مصري شرا مستطيرا . لدرجة أنهم اغلقوا على الوفد المصري غرفة في مطار اورلي ليس فيها الا بضعة مقاعد ، حيث قضينا الوقت بين الطائرة الآتية من القاهرة وبين الطائرة المتجهة من باريس الى كوناكري . وقالوا لنا انه ليس مسموحا للمصريين بالتجول في المطار ، رغم انه كان معنا رجل يحتل منصب رئيس مجلس الامة ويحمل بالطبع جواز سفر دبلوماسيا .

واذكر اننا في العودة ركبنا طائرة لشركة "بان امريكان" وكان ذلك في عصر المحركات وليس النفاثات . وكانت الرحلة تبدأ من كوناكري فتدور حول الشاطىء الافريقي الغربي كله ، تتوقف في "دكار" ثم "باريس" وتستغرق الرحلة حوالي ١٢ ساعة . ودعاني الرئيس السادات الى الجلوس بجواره في رحلة العودة وكانت تلك أول مرة تدور بيننا – بحكم الوقت – أحاديث طويلة . وكانت اغلب احاديثه عن ذكريات قيام الثورة وما بعدها وما

يتصل بها من أحداث وأشخاص مما لا أتذكره الآن . ولكنني اذكر بوضوح انه تحدث باسهاب عن جو مجلس قيادة الثورة بعد استتاب الأمر له . ومشاكل المجلس مع محمد نجيب ومشاكله هو شخصيا معه والكراهية المتبادلة بينهما .

وأخذ يروى كيف كان أصغر قرار لابد أن يناقش في المجلس . وبالتالى فكل جلسة من المجلس لابد أن تستمر من الغروب الى الصباح . واحيانا كان المجلس - كما قال لى - يجتمع ١٦ ساعة متوالية . وقال لى :

- لم يعد الوضع محتملا بالنسبة لى . وذات يوم صحت فيهم قائلا إنه لم يسمع في حياته عن ثورة يقودها مجلس ويتناقش بهذا الشكل وتدار باخذ الاصوات ! وانتم لا يجمع بينكم لا فكر واحد ولا خلفية واحدة . انما الذى أعرفه أن اى ثورة لابد أن يكون لها قائد حتى ولو كان يعاونه عشرة مجالس . وقائد هذه الثورة هو جمال عبد الناصر . هو قائد هذه الثورة من الالف الي الياء . ومناقشاتكم له بهذه الطريقة سوف تؤدى الي الشلل واضاعة الوقت . واذا كنتم لا تقبلون حل المجلس من الآن واعطاء عبد الناصر سلطة كاملة ، على ان يجمعنا ويستشيرنا هو عندما يشاء فانا شخصيا زهقت من هذا الجدل البيزنطي المستمر . ولن احضر جلسات المجلس بعد الآن . أما صوتي فانني ساكتب الآن توكيلا أعطيه لجمال عبد الناصر ، فيحسب صوتي اتوماتيكيا معه عند اخذ الاصوات على أى موضوع . وفعلا - استمر السادات قائلا لى - انه امسك ورقة وكتب عليها هذا التوكيل واعطاها لعبد الناصر وقال له : ضع هذا التوكيل دائما فى جيبك .

وخلال الرحلة الطويلة سألته الى اين هو ذاهب بعد باريس . وقلت له : انني شخصيا جعلت أحد القادة الجدد في غينيا يحضر لى تأشيرة بدخول باريس والبقاء فيها اسبوعا . وقال لى السادات : انني أريد أن أقضى اسبوعا في مكان لا أسمع فيه بعد اقامتنا في كوناكرى كلمة واحدة من كلمات "استعمار" و"امبريالية" و"سود وبيض" و"تفرقة عنصرية" وأنا ذاهب الى النمسا ، إن النمسا أجمل مكان في نظرى . وريف النمسا والطبيعة الغنية الخضراء هناك كأنها علاج بالنسبة لى !

والطريف ، انه بعد خمسة عشر عاما من هذا الحديث ، عندما ظهر "كرايسكي" على مسرح قضية الشرق الأوسط في السبعينيات ، وتعددت رحلات السادات بكثرة الي النمسا على اعتبار ان كرايسكي يهودى معاد للصهيونية ويتوسط بيننا وبين اسرائيل ، كنت أروى لاصدقائي تلك القصة واسالهم متفكها : يا ترى هل يسافر السادات حقا لانه يعتقد في فائدة "كرايسكي" أم أن حب السادات للنمسا هو الذى وضع كرايكسي على خريطة الشرق الأوسط ؟

●●●

أعود من هذا الاستطراد الي ما كنت قد بدأت فيه من اسلوب السادات في الحديث معي عن عبد الناصر . اتحدث الآن عن سنتي ٧٥ ، ٧٦ . كانت الحملة المنظمة ضد عبد الناصر والثورة قد بدأت . ولكنها لم تكن قد وصلت الى ما وصلت اليه بعد ذلك من انحدار . وكان السادات يتحدث معي عن عبد الناصر بتحفظ ، فهو يعرف رأيي في هذه القضية ، كنت احيانا انتقد عبدالناصر ، فيقول لي : لماذا إذن لاتكتب ذلك ؟ ، وكنت أقول له : سأكتبه فيما بعد ، أما لو كتبته الآن فسيبدو جزءا من حملة التشويه ! ولكنه كان أحيانا قليلة - فيما اذكر - يحب أن يقارن بين نفسه وبين عبد الناصر .

كنا في حديقة بيت الجيزة تحت الشجرة المعتادة وامامه مائدة عليها جهاز راديو وكان قد ادلى قبل ذلك بأيام بحديث الى الصحفي اللبناني المرحوم سليم اللوزي صاحب مجلة "الحوادث" وكانت الصحف اللبنانية ايامها تشن حملات عنيفة على السادات ، ونشر سليم اللوزي في حديث السادات قوله له : انا لم اقرأ الصحف اللبنانية منذ ستة اشهر .

وجاء ذكر هذه الجملة ، وقلت له ضاحكا : لابد ان سليم اللوزي قد اغتاظ جدا .

وقال لي السادات : انا لم اقصد أن اغيظه او اغيظ الصحافة اللبنانية ! ولكني فعلا لم أقرأ صحيفة لبنانية واحدة منذ ستة أشهر ولا أعرف ماذا تقول . وبدت على وجهي الدهشة ، ففي ذلك الوقت كانت الصحافة اللبنانية قدْ أحرزت لنفسها مكانة مرموقة ومؤثرة في العالم العربي كله . ورأى السادات الدهشة المرتسمة على وجهي ، فاستطرد قائلا :

- امال ايه اللي موّت عبد الناصر ؟ كان بعد ما يشتغل ١٨ ساعة في اليوم ويجي ينام ، مش يسمع موسيقى ، او يأخذ حاجة مهدئة ، كان منبه انهم يحطوا له جنب السرير كل الجرائد العربية المليانة شتيمة فيه ، كان يقرا السم الهاري ده قبل ما ينام ! وطبعا ده موش نوم . وتاني حاجة موتته "المدعوق ده" واشار بيده الى جهاز الراديو . ثم استطرد قائلا : كان حافظ مواعيد نشرات الاخبار بتاعة العالم كله . سواء كان لوحده او قاعد معانا ، كل شوية يفتح الراديو ويقول : لما نسمع اخبار لندن ! لما نسمع اخبار دمشق ! لما نسمع بغداد ! لما نسمع موسكو ! لما نسمع صوت امريكا ! انا بقه على عكسه تماما . لما يقولولي ان جرائد بيروت بتهاجمك اقول لهم مش عايز اشوفها ! طيب ما انا عارف انا بعمل ايه وهم بيقولوا عليّ ايه ! ايه الفائدة بقى اني اضيع وقتي واحرق دمي واقرأ الكلام الفارغ اللي بيقولوه .

ويذكرني ذلك بمقارنة مشابهة . كانت تلك المرة في استراحته في مدينة الاسماعيلية سنة ١٩٧٦ وكالعادة ، ابلغني السفير المصري في الكويت

انني مطلوب فورا من الرئيس فى القاهرة . وفي القاهرة قال لي مكتب الرئيس انه ينتظرني في الاسماعيلية وانه يقترح على ان ارتب نفسي على قضاء يومين أو ثلاثة هناك ، وقد رتبوا لى مكانا في استراحة هيئة قناة السويس ، وبالتالي عليّ أن آخذ حقيبة صغيرة فيها بعض الملابس .

كان عيد العمال فى أول مايو قد اقترب . وكنت اعرف أن الرئيس السادات قد استدعاني لكي اكتب له الخطاب الذى سوف يلقيه في هذه المناسبة . وخلال اليوم السابق على سفرى ، علمت من زملائى بالصحف ان هناك حركة قلق بين العمال وهناك اضرابات صغيرة ، ولكن ثمة حادثين كانا هامين : اضراب عمال مصنع فى دمياط واحراقهم المصنع وتوجههم الى بيت رئيس مجلس الادارة وهجومهم على البيت والقاء مافيه في الشارع . والحادث الثاني كان صداما كبيراً بين الشرطة والعمال فى احد المواقع في الاسكندرية . وكنت قد اهتممت بذلك لأن مناسبة الخطاب الذي سأكتبه للرئيس هو عيد العمال .

وصلت الى استراحة شركة قناة السويس بالاسماعيلية ومع الغروب صحبوني الى بيت الرئيس للحديث معه قبل تناول العشاء بوقت كاف .

وقابلني السادات بالبيجامة والروب وهو في حالة راحة وهدوء بال ، وبعد الاحاديث العادية ، ذكر انه استدعاني لكي اكتب له خطاب عيد العمال وهى فرصة لكي استريح يومين في الاسماعيلية واتعرف على هدوئها وخضرتها وجمالها .

وسألت الرئيس كالعادة هل لديه اشياء محددة يريد أن يقولها في خطاب أول مايو . وكان السادات كثيرا ما يقول لى حتى بصدد أخطر الخطابات : تصرف أنت ! وسأقرأ الخطاب بعد ذلك . وقلت له انني سمعت قولاً عن قلاقل عمالية ، وإنني افضل ان نجد طريقة للاشارة اليها ولو تلميحا بطريقة تجعل العمال يشعرون ان الرئيس مدرك ومتابع لمشاكلهم ، بصرف النظر عن أى وعود ليست فى حسابات الحكومه . اذ ليس مفيدا ان يشعر العمال ان اصواتهم لا تصل الى مسامع رئيس الدولة أو لا يهتم بها .

وقال لى السادات : طبعا ! انت قاعد في الكويت وبتسمع الاشاعات اللى بينشروها علينا بره . القاعدة العمالية سليمة وليست هناك اى مشكلة ! وكررت على الرئيس انني سمعت من القاهرة لا من الخارج عن اضطرابات ومشاكل عمالية لا يجوز تجاهلها ، وقال لى السادات :

– انت قصدك على حكاية دمياط وحكاية اسكندرية ؟ دى مش مشاكل . اللى حصل في دمياط سببه ان رئيس مجلس الادارة (....) ميعرفش يتصرف ، واللى حصل فى الاسكندرية شغب شوية عيال . وعلشان تعرف انها حاجات تافهة انا بقولك انى ولا سمعت عنها إلا بعد اسبوع تقريبا .

ومرة اخرى ظهرت الدهشة على وجهى ، واستطرد السادات قائلا :

– انا لما قلت مرة ان عبد الناصر كان زى الوتر المشدود ، متوترا دائما وينشر التوتر حوله ، افتكرونى بهاجم عبد الناصر . لكن هوه كان كده

صحيح ! لازم يتابع اهيف حاجة تحصل . اذا قامت حريقة في كام كيس قطن في شونة بنك التسليف في قرية كذا ، لازم يصحوه من النوم وسط الليل ! وينزل من حجرة نومه الى مكتبه في الدور اللي تحت ويبتدي يضرب تليفونات . تليفون للمحافظ ! وتليفون للمطافي ! وتليفون للعمدة ! وتليفون للشرطة ! وبعدين ما يصدقهمش فيضرب تليفون لمصطفى امين في "اخبار اليوم" ولهيكل في "الاهرام" علشان يشوف معلومات الجرائد زي معلومات الادارة ولا لأ ! ويفضل كده كأنه بيقود معركة ستالنجراد لحد وش الصبح ! لما يقولوله ان الحريقة انطفت ! هو ده شغل رئيس جمهورية ورئيس دولة عنده مسئوليات محلية وعربية وعالمية ؟ أنا طريقتي غير كده ، انا عامل مؤسسات . وكل واحد يشيل مسئولياته . وفيه رئيس وزارة وفيه وزراء ومحافظون . وفي يوم محدد لكل اسبوع يجيء لي ممدوح سالم ــ كان وقتها رئيسا للوزراء ــ ويديني تقرير عن الحالة العامة في البلد . وأنا ماسمعتش حكاية دمياط وحكاية الاسكندرية إلا لما جالي ممدوح في ميعاده الاسبوعي وحكى لي ضمن التقرير عن البلد ، لأنها حوادث مش مهمة وتدخل في اختصاصه .

كانت مقارنة صريحة للغاية . ولا اقارن هنا بين طريقة الرئيسين . ولكن المؤكد في تقديري ان المبالغة في كل طريقة خطأ . مبالغة أي رئيس دولة في تتبع التفاصيل بالصورة الكاريكاتيرية التي رسمها السادات ، أو المبالغة في عدم متابعة المشاكل الداخلية بالدرجة الكافية .

لكنها كما قلت مقارنة صريحة جدا من الرئيس السادات . فلا اكاد اذكر انني رأيته يوما جالسا في مكتبه . ولا اكاد اذكر انني رأيته يوما وامامه في الحديقة أو في الصالون اى أوراق أو ملفات انما كان يدير الدولة كلها بالتليفون فقط . وكنت ذاهبا إليه ذات مرة في المعمورة ، واستبقاني مدير مكتبه فوزي عبد الحافظ في غرفته فترة ، اذ كان هناك وزير جديد اتى ليحلف اليمين لأنه كان في الخارج وأظن انه الوزير عبدالفتاح عبدالله ، وطلب إليّ فوزي عبد الحافظ ان انبه الرئيس الى كذا وكيت . وكانت أشياء هامة تتعلق ــ ان لم اكن مخطئا ــ بأحداث عربية تهم مصر . وسألت فوزي عبد الحافظ دهشا : هل توقفت عن اعداد النشرة اليومية التي تقدم للرئيس من أيام عبد الناصر صباح كل يوم وفيها أهم الأنباء ؟ وقال لي فوزي عبد الحافظ : إزاي ؟ احنا بنعمل النشرة كل يوم وأحسن من الاول ! وقام واخرج لي كمية من هذه النشرات للتدليل على انه وجهازه يقومان بواجبهما . ثم استطرد قائلا : لكن انت عارف الرئيس من زمان « مالوش خلق علي القراية » . ودلوقت بقيت مشاغله كثيرة جدا ، انا باحطله التقرير على "الكمودينو" جنب السرير كل يوم . لكن يفضلوا يزيدوا لحد ما يبقوا عشرين تقرير والرئيس مافتحهمش فيقول لي : شيلهم بقى ! لازم الحاجات اللي فيهم بقيت قديمة . فآخذ النشرات وابدأ من اليوم التالي في وضع النشرات اليومية الجديدة !

في تلك الايام التي قضيتها في الاسماعيلية لم يكن معنا الا المهندس عثمان احمد عثمان . كنا نقضي الصباح في الحديث ، ونتغدى معاً ثم يذهب كل منا الى مكانه للراحة بعد الغداء ونلتقى ثانيا حوالي الساعة السادسة أو السابعة عصرا حيث نستأنف الاحاديث ونتناول العشاء ونتصرف ، أو انصرف انا على الاقل . مرة واحدة فقط خرجنا عن هذا الروتين ، إذ قال لى الرئيس إنه سيأخذنى صباح غد معه فى جولة بالهليكوبتر سوف تعجبنى بصفة خاصة ، وبالفعل ركبت الهليكوبتر صباح اليوم التالى مع الرئيس والمهندس عثمان احمد عثمان وبعض كبار الموظفين ولما حلقت بنا الهليكوبتر قال لى الرئيس : انت فاكر مقالاتك عن رسم خريطة لمصر ؟ وضرورة التوسع والخروج من الوادى والدلتا ؟ وفاكر كلامك عن التعمير وتسكين المنطقة الاستراتيجية بين قناة السويس ومحافظة الشرقية ؟ الكلام ده مبقاش كلام جرائد . احنا ابتدأنا فيه فعلا .

وأخذت الهليكوبتر تقترب بنا من الارض وتحلق فوق منطقة قالوا لى ان اسمها الصالحية . وان أول عملية استصلاح واستزراع واقامة مجتمع جديد ستكون هنا ، وكان المهندس عثمان أحمد عثمان وكبار الموظفين يشرحون لنا بالتفصيل افكارهم المقبلة عن هذا المشروع .

إن من اهم ما خرجت به من هذه الايام فى الاسماعيلية ، هى العلاقة الجديدة بين السادات والمهندس عثمان احمد عثمان . كانت هذه العلاقة قد بدأت تنتشر ويتحدث عنها الناس ، وان كانت لم تكن قد توثقت بعد ، فقد لاحظت انه مازالت هناك درجة من "التكليف" بينهما . ولكن اتضح لى بسرعة ان السادات قد اصبح شديد الانجذاب الى شخص عثمان احمد عثمان . كان اذا تأخر دقائق عن موعدنا فى اللقاء صباحا أو مساء ، اخذ السادات يسأل ويتساءل اين عثمان وما الذى اخره فى لهفة ملحوظة ، كمن يسأل عن شخص صار لا غنى له عنه . وقدرت ان السادات قد نما فى نفسه تعلق شديد بشخص عثمان . وهذا امر معروف فى العلاقات الانسانية حين يشعر واحد منا بهذه الجاذبية نحو شخص من اصدقائه وكأنه توأم له ويحس اذا غاب ان شيئا ما ينقصه واقتنعت بأن المهندس عثمان احمد عثمان سيكون له شأن كبير فى حياة السادات .

واذكر انني ذات ليلة بعد ذلك بفترة كنت مدعوا الى العشاء بين عدد قليل لدى الدكتور محمد عبدالوهاب وزوجته الفنانة السيدة فاتن حمامة ، وكالعادة انتحى الرجال جانبا بعض الوقت وكان فيهم وزراء سابقون ولاحقون ومهندسون مرموقون ، وجاء ذكر علاقة عثمان احمد عثمان بالسادات وما يتردد حولها من شائعات . فبعض الناس يقولون انها علاقة مليونير برئيس يحب المال ، وبعض الناس يتحدثون عن انباء تتردد حول مصاهرة مقبلة بين ابنة الرئيس وابن عثمان احمد عثمان ، واخر يقول إن هذا المشروع قد فشل ولابد أن تفتر العلاقة بين الاثنين بسبب ذلك .. الخ .

وقلت لهم : اسمعوا ! لقد انفردت بالاثنين بضعة ايام منذ فترة وأحب أن اقول لكم إن هذه العلاقة اكثر كثيرا من علاقة فلوس او علاقة نسب . لقد لاحظت بوضوح ان السادات ينظر الى عثمان كأنه قد عثر على توأمه وشقيق روحه . اننا أمام شخصين تربطهما علاقة كأنها نابعة من اعماق نفسية متشابهة تماما أو متكاملة الى اقصى حد . وبالتالي فمهما حدث فالسادات لن يستغني عن وجود عثمان معه بعد الآن ، لأنه وجد فيه شيئا يكمله وأعملوا حسابكم على كده !

ولم يلق التحليل النفسي والوجداني الذى شرحته قبولا لدى الحاضرين . لكن تطور علاقة الرجلين بعد ذلك بالشكل الذى صار معروفا ، حتى صار الاسم الشعبي للدولة هو « الدولة العثمانية » قد أثبت فيما أعتقد ماتوقعته ، ومهما قيل بعد ذلك عن تطورات هذه العلاقة وتشعبها ، فانني أعتقد ان مالمحته يقى هو المفتاح الحقيقي في تفسير هذه العلاقة .

تبقي واقعة صغيرة من وقائع تلك الأيام في الاسماعيلية ، اكدت لى وقتها هذا المعنى السابق . فالسادات كان سيلقى خطاب عيد العمال في السويس . ولما لم يكن لدى الدولة شيء سياسي أو عمالي جديد يقال . فقد ركزت الخطاب على الاشادة بدور عمال مصر منذ هزيمة ١٩٦٧ حتى حرب ١٩٧٣ ، من صمودهم في المصانع والموانيء تحت القصف الاسرائيلي المستمر ، إلى استمرارهم في العمل ببسالة لاطفاء حريق خزانات البترول في (الزيتية في السويس) تحت ضرب المدفعية الاسرائيلية ، انتقاما لاغراقنا البارجة الاسرائيلية « إيلات » بعد الهزيمة باسابيع ، وهم يهجمون ببسالة على خزانات البترول المشتعلة بنيران رهيبة (وقد كنت هناك ذلك الفجر ورأيت هذا المنظر) ، انتهاء بدور جميع عمال مصر في بناء حائط الصواريخ المشهور تحت غارات الطائرات الاسرائيلية ٢٤ ساعة في اليوم ، وهو جهد اشتركت فيه ـ كما ذكرت في مشروع الخطاب ـ كل شركات المقاولات العامة والخاصة وكل العمال من أنحاء القطر المصرى .

وبعد أن عدت من الاسماعيلية ، استمعت الى الرئيس السادات وهو يلقى هذا الخطاب ـ لم يغير حرفا واحدا فيه ، لم يقدم كلمة ولم يؤخر اخرى ـ ولكنه غيَّر شيئا واحدا فقط : ففي الحديث عن مشاركة كل العمال من خلال كل شركات المقاولات في بناء حائط الصواريخ ، غيَّر الرئيس هذه الجملة وقصر الفضل فيها على ذكر شركة المقاولين العرب وعمال المقاولين العرب (عثمان احمد عثمان) وساعتها أكدت لى هذه الملاحظة العابرة المكانة غير العادية التى صارت لعثمان احمد عثمان لدى السادات .

رواية السادات عن دخول سوريا إلى لبنان :

كنت في احدى زياراتي للقاهرة ، وقابلت الرئيس السادات ..

كانت الحرب الأهلية في لبنان [١٩٧٦] قد بدأت تأخذ شكلا رهيبا مروعا . وقلت للرئيس السادات أن على الدول العربية ان تفعل شيئا . وناقشنا اوضاع البلاد العربية بهذا الخصوص . وقلت له ان مصر عليها على اية حال واجب ادبي يجب القيام به .

ويبادرني قائلا : ماذا نستطيع ان نفعل في لبنان ؟ هل افعل مثل عبدالناصر ، ارسل رجال مخابرات واجند ميشيليات وادفع اموالا ؟

قلت له : بالطبع لا .. فالظروف تغيرت تماما ...

قال : اذن ؟ اصدر بيانا باستنكار مايحدث وادعو الى وقف القتال ؟ اتفضل اكتب اى بيان وسوف اوقع عليه فورا ! الكل يصدر بيانات :

قلت له : حتى ولو توقف الأمر عند اصدار بيان فقط فلا بأس بذلك . لأن مصر هى الدولة الوحيدة التى لامطمع لها ولا وكلاء فى لبنان . وليست متهمة بموالاة فريق دون فريق . ولكن عندى اقتراحا آخر : ان تقف وتدعو الى عقد مؤتمر قمة مصغر ، تحضره مصر وسوريا والسعودية والعراق والاردن والكويت .. فورا « فى دمشق » ! ..

قال لي : .. رغم الحملات التى تشنها عليّ صحافة دمشق ؟

- نعم فانت حين تدعو الى الاجتماع فى دمشق بالذات ، فانك تضرب بذلك مثلا على تجاوزك عن حقك في سبيل المصلحة القومية فيخجل غيرك من عدم تلبية الدعوة . ستبدو انت كبيرا . ثانيا فان وضع سوريا ازاء لبنان وضع خاص بلا جدال . فى دمشق تكونون على مقربة من الاقتتال الدائر . واذا اردتم استدعاء احد الاطراف ولابد من ذلك ، فالدعوة سهلة : رئيس الجمهورية سليمان فرنجية ، ابو عمار ، كمال جنبلاط ، كميل شمعون .. الى آخره ..

كان تقديرى ان هذه الدول المقترحة لديها قوة ضغط كافية على الفئات المتحاربة فى لبنان . وقلت له ان فلسطين ضاعت واخشى ان تستفيد اسرائيل من الموقف وتضيع لبنان . وكيف يمكن للرأى العام العربى ان يصدق ان زعماءه قادرون على اعادة الأراضى المحتلة اذا كانوا غير قادرين على منع ضياع لبنان ؟ وان الضغط على كميل شمعون او كمال جنبلاط اصعب من الضغط على جولدا مائير ...

وظل السادات يحاورنى طويلا فى هذا الأمر ، وانا الح عليه بمداومة الجدل بشكل غير مألوف حتى قال لي كانه ضاق ذرعا :

- طيب .. مادام بتلح كده .. احب اقولك ان الموضوع حسم !

- ازاى ياريس ؟

- الجيش السورى سيدخل لبنان خلال ٤٨ ساعة !

ـ مستحيل باريس ؛ والوضع الداخلي ؟ .. ورد فعل اسرائيل ؟

ـ جيرالد فورد (الرئيس الامريكي في ذلك الوقت وكان وزير خارجيته هو كيسنجر ايضا) طلب من حافظ الاسد ان يدخل الجيش السوري لبنان لانقاذ الموقف ، لانه لايوجد حل آخر ، وحتى لا يحدث رد فعل اسرائيلي يلخبط الدنيا ...

ـ وعلى اى اساس سيتم هذا الدخول ؟

ـ رتبت امريكا مع سليمان فرنجية انه كرئيس للدولة يطلب القوات السورية .. وامريكا ابلغت اسرائيل وابلغت الأردن بما سوف يحدث حتى لايفهم احد دخول الجيش السوري على غير حقيقته !

وعندما كررت دهشتي وارتيابي ، قال لي : انت قاعد معانا في مصر لحد امتى ؟

ـ لآخر الاسبوع .

ـ طيب اذا لم يدخل الجيش السوري لبنان بعد ٤٨ ساعة ، تعالى الي هنا في البيت بدون موعد وحاسبني على هذا الكلام .

وبعد ٤٨ ساعة ، دخل الجيش السوري لبنان ...

إعلان قيام الأحزاب :

بناء على الاستدعاء التقليدى عن طريق السفير المصرى في الكويت السفير عزالعرب امين ، ذهبت الى القاهرة .

كان موعدى مع السادات وقت الغروب في استراحة القناطر

وكانت الانتخابات التى اجرتها وزارة ممدوح سالم وخاضتها « المنابر » لأول مرة قد انتهت بشكل مقبول عموما من الرأى العام .

ويوم موعدى مع السادات كان اليوم الذى جرت فيه صباحا انتخابات الاعادة في الدوائر التى لم يفز فيها احد اول مرة بالاغلبية المطلقة .

وحين ذهبت الى السادات قال لي انه طلبني لكي اكتب له الخطاب الذى سوف يلقيه في جلسة افتتاح البرلمان الجديد .

ولم يكن هناك مجال لمناقشات طويلة عما سوف يرد في الخطاب بوجه عام . الا نقطة واحدة ادت الى نشوب الجدل والنقاش بيننا الى مابعد منتصف الليل . قال لي السادات : انه سعيد عموما بالانتخابات . وانه يعتقد ان تجربة المنابر الثلاثة [اليمين والوسط واليسار] قد نجحت . وانه يريد ان يعلن في جلسة افتتاح البرلمان قراره بان تتحول المنابر الثلاثة الى احزاب . وقال في تبرير ذلك ان المنابر الثلاثة قد خاضت الانتخابات على انها احزاب بالفعل وقدمت للناخبين برامج مختلفة وتصارعت على هذا الاساس فلم يبق الا اعلان تغيير اسمها لتكون عندنا حياة برلمانية حزبية .

وقلت للرئيس : ان هذه خطوة عظيمة . ولكن هناك مشكلة بسيطة وهى ان الدستور لاينص على وجود احزاب . والحل البسيط هو ان يعلن الرئيس فى خطاب الافتتاح هذا الرأى وان يطلب فى الوقت نفسه ان تجتمع اللجنة التشريعية فى البرلمان على الفور لاعداد مشروع التعديل الدستورى اللازم لقيام الاحزاب .

ولم يوافق السادات على هذا الرأى تصورت اول الامر انه يريد ان يكون له تاريخيا فضل اعادة الحياة الحزبية . ولذلك قلت له بلباقة ان اعلانه ذلك سيحفظ له هذا الفضل وانه هو الذى سيطلب هذا الاجراء الدستورى الذى لابد منه . ولكننى شعرت بعد ذلك من شدة مقاومة السادات لهذا الراى المنطقى بأنه لايريد ان يفتح باب التعديل فى الدستور ولو « لليلة واحدة ولمادة واحدة » كما قلت له خلال المناقشة الطويلة .

والغريب ان السادات اخذ يؤكد لى ان الدستور ليس خاليا فقط من اى مادة تحول دون قيام الاحزاب ، بل ان فيه نصا ينطوى على معنى السماح بقيام احزاب . ولما انكرت ذلك صفق بيديه مستدعيا احد العاملين وطلب منه ان يصعد الى غرفة النوم ويأتى منها بنسخة الدستور الموجودة فيها . وجاءت نسخة الدستور وقرأ لى السادات مادة لا انكرها الان ولكنها فى مكان ما من الدستور ولم اجد لها اى علاقة بالاحزاب ولاحتى تنظيم السلطة التشريعية . ولذلك كان طبيعيا ان لااوافق السادات على ماذهب اليه فى هذا الشأن .

وبعد مناقشات مضنية كان محور حججى فيها هو : لماذا الاعتراض على ان يطلب الرئيس فى خطابه ان تنعقد اللجنة التشريعية فورا وتعد فى نفس اليوم المادة المطلوبة والتى لن يعترض عليها احد بالتأكيد بل سوف تقابل بالترحيب .

واذكر اننى قلت فيما قلت للسادات : ان خطابا للرئيس ولو تحت قبة البرلمان لايقيم حقا دستوريا غير موجود . وان ممدوح سالم رئيس الوزراء ورئيس « منبر مصر » لو اعلن تحويله الى « حزب مصر » فان من حق اى مواطن ان يقوده الى النيابة العامة ! وان ممدوح سالم لايستطيع ان يدافع عن نفسه وحزبه مستندا الى خطاب رئيس الدولة ولو القاه تحت قبة البرلمان وصفق له النواب حتى الصباح !!

وفى مرحلة اخرى من الجدل ، قلت للسادات : سوف افترض اننى على خطأ ، وان الدستور يسمح بقيام احزاب ، فأين ياريس النص فى هذا الدستور على تحديد عدد الاحزاب بثلاثة فقط ؟ واين النص الذى يسمح لى بتكوين حزب رابع او يمنعنى من ذلك ؟! اننى متمسك ياريس فانه لابد من تعديل دستورى ينص على كل ذلك ، او بتعديل اسرع وابسط ينص فقط

على حق تكوين الاحزاب ، وقانون ينظم القواعد الخاصة بذلك .

وانهى الرئيس السادات الحوار الطويل بعد منتصف الليل بان قال لي : ياحمد ، لازم تكون عرفت طريقتي ! طريقتي ان اعلن قراري وبعد كده نشوف اذا كان عايز تعديل ، نعمل تعديل ، واذا كان عايز قانون نعمل قانون . لاني لو قعدت ادرس في كل قرار علشان يطلع مايخرش المية ، يبقى عمري ما حاطلع قرارات !!

وقال : كفاية اعلن في الخطاب قيام الاحزاب ، وبعد كده نشوف ايه اللي يحتاجه الموقف .

وقد ثبت في يقيني وقتها ان السادات لايريد ان يلمس حكاية « الثلاثة احزاب فقط » وان اي نص دستوري سوف يفتح الباب امام احزاب اخرى وتيارات لايريدها . وتجددت مناقشة قديمة بيننا عن رايي في ان تحديد التنظيمات السياسية بثلاثة ـ يمين ويسار ووسط ـ هو تحديد تعسفي ، لايتم بقانون ولكن يتم عبر نضج الحركة السياسية ... الخ

واذكر من تلك الجلسة اننا ونحن في حمى النقاش ، وقد نزل الليل ، ان المهندس سيد مرعي رئيس مجلس الشعب ، وصل هو وزوجته بدون سابق موعد . وجلس معنا بضع دقائق ثم استأذن سيد مرعي في الصعود هو وزوجته الى الطابق الاعلى للجلوس مع حفيدهما الجديد ، وهو السبب الذي جاءا من اجله ، واذكر ان السيدة جيهان السادات كانت متغيبة عن القطر في رحلة الى أسيا .

وبعد ساعتين تقريبا نزل المهندس سيد مرعي وزوجته ، وابدى دهشته من اننا مازلنا نتناقش . ودعاه السادات الى البقاء اذا اراد . وفعلا انصرفت السيدة حرم المهندس سيد مرعي وبقي هو .

كان السادات يجلس على مقعده « الهزاز » مواجها لي ، وسحب سيد مرعي مقعدا الى يسار السادات . ورغم ان المناقشة كانت تدور حول صميم الدستور ، فان المهندس سيد مرعي لم يشترك في المناقشة بكلمة واحدة . ولكنه كان يهز رأسه من حين الى آخر بما يعني انه يؤيدني فيما اقول .

وكان المفروض ان تكون نتائج انتخابات الاعادة قد بدأت في الظهور وكان السادات كل نصف ساعة يطلب من سيد مرعي ان يسأل بالتليفون عن نتيجة سيدة مرشحة في احدى دوائر الاسكندرية ـ لااذكر اسمها الآن ـ وهل نجحت ام لا . وتكرر هذا عدة مرات .. ودهشت من اهتمام السادات بهذه المرشحة . وفي صباح اليوم التالي اسرعت الى الصحف لأجد انها كانت مرشحة ضد مرشح من الاخوان هو الاستاذ عادل عيد !

وقرب منتصف الليل ، نهض سيد مرعي واقفا ، وقال : انا بقى حاروح ، الظاهر انكما ستتناقشان حتى الصباح .

مناقشة فى الكويت :
من هـو ديفـيد ؟

كان ذلك على الأغلب في سنة ١٩٧٦ . كنت أقيم في الكويت حيث توليت رئاسة تحرير مجلة العربي ، بعد استقالتي من رئاسة تحرير الأهرام ، وبناء على نصيحة الأطباء لي بالبعد عن جو التوتر النفسي والضغط العصبي سنة أو سنتين . وكان السادات قد اشترط عليّ قبل قبولي هذا العرض أن أستمر في كتابة مقالي الأسبوعي في جريدة "الأهرام" بعنوان "حديث الأحد" . وقال السادات في تبرير ذلك أن خروج محمد حسنين هيكل من الأهرام احدث ضجة وانه لا يريد ان يحدث خروجي وانقطاعي عن الكتابة في الأهرام ضجة أخرى والضجة الأولى لم تهدأ بعد . وان استمراري في الكتابة سوف يعني انني لست مهاجرا ولا ممنوعا من الكتابة . ويومها رحبت بذلك قائلا للرئيس : ان "حديث الأحد" ينشر منذ سنوات في الأهرام وفي الكويت وفي غيرهما من البلاد العربية وان هذا الوضع سوف يستمر واقعيا دون تغيير .

وكان الرئيس السادات يطلبني من الكويت في مناسبات معينة اما لكتابة خطاب هام له أو للتشاور في بعض الأمور كما جاء أو سيجيء في هذه الأحاديث .

وفي تلك السنة كانت علاقات السادات بدول البترول حميمة جدا . يزور حكامها ويزورونه باستمرار . ويلبون طلباته لمساعدات مالية بشكل أو بآخر . وأعلن عن زيارة للسادات في الكويت ، أظن انها كانت آخر زيارة ، ضمن جولة في بعض دول شبه الجزيرة . وقبل قدومه كانت الهمهمات قد بدأت ترتفع في دول الخليج عن طلبات مصر المالية التي تأتي في أوقاتا مفاجئة غير معروفة مقدما . وهمهمات أخرى عن سوء استخدام هذه المساعدات في مصر ، بين ضياعها في تسديد نفقات استهلاكية . وبين احاديث متصاعدة عن قصص من الفساد بدأت تطفو على السطح . وبالتالي فقد شعرت أن الجو ليس مهيئا لزيارة ناجحة .

وعلمت من بعض الأصدقاء من الخبراء الاقتصاديين ان ثمة اقتراحا ، مصدره الكويت بالذات ، بأن تتفق دول الخليج على تكوين نوع من "الصندوق" لمساعدة مصر ، تكون الالتزامات فيه واضحة ومحددة والاتفاق منه تحكمه درجة من الانضباط .

ودعاني السفير كما يدعو عادة بعض البارزين من أبناء الجالية المصرية في الكويت الى حضور استقبال الرئيس السادات في المطار . وهناك وقفت في صف أبناء الجالية المصرية فترة وصافحني الرئيس عندما وصل اليّ : وقال لي انه يريد أن يراني الليلة بعد العشاء الرسمي ، قبل أن يسافر في اليوم التالي .

كان السادات قد جاء مع وفد كبير من شتى الوزراء البارزين اذكر منهم المهندس عثمان احمد عثمان والدكتور اسماعيل فهمي والدكتور ابراهيم حلمي عبدالرحمن ولم يكد الاستقبال الرسمي يتم حتى جريت من الصف الذي كنت واقفا فيه الى ان عثرت على أول مسئول كبير وكان الدكتور ابراهيم حلمي عبدالرحمن بالذات .

وقلت له في ايجاز لا مفر منه والناس تركب سياراتهم للانصراف : لا يوجد "كاش" هذه المرة ! انما يوجد "صندوق" سوف تطرح فكرته عليكم . فرد عليّ الدكتور ابراهيم حلمي عبدالرحمن وهو يركب السيارة : لقد سمعنا اقتراح الصندوق لاول مرة في الرياض . فالأمر اذن متفق عليه .

وكان السادات قد سجل حديثا تليفزيونيا مع الصحفي الكويتي المعروف الأستاذ أحمد الجار الله صاحب جريدة "السياسة" لكي يذاع يوم وصوله ، بقصد شرح موقف مصر الاقتصادي . وكان حديثا غاية في عدم التوفيق . فقد كان السادات وقتها يكرر في أحاديثه وخطبه جمل من نوع : أن اقتصاد مصر تحت الصفر ! ان مصر ليس في عروقها نقطة دم واحدة باقية ! بل قال في هذا الحديث وفي غيره : ان مصر حاربت لانها أفلست ولم يعد في جيبها قرش واحد !!

ومما زاد في سوء الظروف في تلك الزيارة أن الحملة الشرسة ضد ثورة ٢٣ يوليو وضد جمال عبدالناصر كانت قد وصلت في مصر الى أقصاها . وكان هذا يلقى اشمئزازا شديدا من الرأى العام والصحافة في البلاد العربية بوجه عام . وكان الاعتقاد الشائع ـ وهو في تقديري صحيح تماما ـ أن السادات هو مخطط وموجه هذه الحملة ، وانه يسخر صفحات الاعلام المصرى لحزب الانتقام من الثورة ومن جمال عبدالناصر . وكان كلما اشتدت الحملة وبدأت تحدث رد فعل مضاد ، انتهز مناسبة في احدى خطبه ليعلن انه أمين على اسم عبد الناصر وسمعته وعائلته ولكن بطريقة لا يخفى على أحد أنها تمثيلية على طريقة خطبة انطونيو المشهورة "ولكن

بروتس رجل نبيل" وقد صارت عبارة "الله يرحمه" كلما ذكر جمال عبدالناصر نكتة شائعة اذ كان كل من يسمعها يفهمها على أنها تعنى العكس تماما .

وكانت احدى قمم تلك الحملة هى اتهام جمال عبدالناصر بأنه اختلس عشرة ملايين دولار ! كانت قرضا من الملك سعود لمصر . وقد كتبت مقالا في الاهرام تعليقا على الكتاب الذى احتوى على هذا الاتهام والذى نشر في الصحف على اوسع نطاق ولكن المقال منع من النشر ، اذ صدر من أجله قرار من النائب العام بعدم نشر أى شىء عن الموضوع ، وقد كان المقال حول الموضوع وبعنوان "بعيدا عن تحقيق النيابة" ، وليس فى صميم الموضوع الذى تحقق فيه النيابة . واستطرادا حول هذا الموضوع ، أمر السادات بتشكيل لجنة لبحث الموضوع تحت ضغط الرأى العام ، وحين تم التقرير الذى أكد براءة عبدالناصر من هذا الاتهام السخيف الرخيص ، كان السادات يلقى خطابا فى البرلمان ، فأعلن ان التقرير يبرىء عبد الناصر وانه يودع التقرير امانة مجلس الشعب (!) ولم ينشر التقرير على الناس . فتلك كانت طريقته فى بقاء الشبهة تحوم فى الفضاء !.

لذلك – وتلك مصادفة أخرى – كان مجلس الامة الكويتى سوف يصدق يومها على آخر اتفاقية تكمل انسحاب الشركة الانجليزية التى كانت تحتكر بترول الكويت وتسليمها آخر مابقى من نصيب لها الى حكومة الكويت .

وانتهز نواب البرلمان الكويتى من كل الاتجاهات الفرصة ، ليردد كل منهم فى تعليقه على نجاح الكويت فى المفاوضات وفى امتلاك بترولها كله ، انه لابد فى هذه المناسبة من ذكر جمال عبد الناصر الذى كان اول من قال "بترول العرب للعرب !" فى وقت كان يبدو فيه هذا الكلام حديث خرافه وفى كفاحه الطويل لتكسير أنياب الأسد البريطانى مما جعل انجلترا تغير سياستها وتسلم على مائدة المفاوضات مالم يكن احد يستطيع ان يحدثها فيه . وكان جزء من هذه الخطابات مقصود به أن يسمع عنه انور السادات .

وفى الليل اقيمت للسادات مأدبة عشاء رسمية ، كنت مدعوا اليها مع مئات من الشخصيات الكويتية والمصرية . وعندما صافحنى السادات مرة أخرى بين الحاضرين قال لى : انا فى انتظارك فى الاستراحة بعد العشاء مباشرة .

وحدث حادث غريب مفاجىء . اذ تقدم الى السادات احد كبار القوم من الكويتيين وقال له على مسمع من الموجودين المحيطين . ياسيادة الرئيس ، نحن لا نقبل أن يقال فى مصر أن جمال عبدالناصر قد اختلس عشرة ملايين جنيه وانا شخصيا ، ويشهد كل الأخوان الواقفين ، كنت ضد

جمال عبدالناصر ، وكانت ضد حرب اليمن بالذات . ولكن أن يقال ان جمال عبدالناصر الذى كانت خزائن مصر كلها فى يديه ، وخزائن العرب اذا شاء ، قد اختلس عشرة ملايين دولار فهذا عار على الأمة العربية كلها ، التى كان جمال عبدالناصر ـ شئنا أم أبينا ـ رمزا لها فى العالم كله . وانتى أطلب من سيادتك أن تقول لنا أى مبلغ ترون أنه فى ذمة جمال عبدالناصر للخزانة المصرية ، وسوف ندعو الشعب الكويتى للتبرع به وتسديده عنه . وسيجمع الشعب الكويتى أى مبلغ فى أقل من ٢٤ ساعة .

واستطرادا أخير حول حكاية العشرة ملايين دولار ، فقد كان رئيس اللجنة الذى أختير لفحص الموضوع وتقديم التقرير هو المرحوم الدكتور على الجريتلى أحد انبغ خبراء ووزراء مصر الاقتصاديين وأكثرهم نزاهة وسمعة دولية . وقد استقال من منصب وزير الاقتصاد من حكومة الثورة فى موعد مبكر هو سنة ١٩٥٧ ولم يقبل من وقتها رغم تكرر المناسبات أى عرض للعودة الى السلطة . وأكتفى بعالم الاقتصاد الخاص والبنوك الدولية .

وقد قابلت الصديق الكبير الدكتور على الجريتلى مرة بعد حكاية التقرير "وايداعه مجلس الشعب" فسألته عن التقرير وقال لى الدكتور الجريتلى : اننى لم أسمح لأحد فى اللجنة ان يشاركنى فى العمل وقد قمت شخصيا بمتابعة كل الموضوع حتى الذهاب بنفسى الى مكتب أصغر موظف فى وزارة الخزانة والاقتصاد لفحص كل ملف بنفسى . وقد كانت هذه أول مهمة أقبلها من الدولة الرسمية منذ سنة ١٩٥٧ . **وقد قبلتها لاننى كنت واثقا من النتيجةToo Proud Tobe Corrupled ، فقد كان عبد الناصر أكثر كبرياء من أن يقبل بأى افساد له » .**

ثم استطرد الدكتور على الجريتلى قائلا : بعد موت عبدالناصر بسنة تقريبا كنت فى مقابلة مع رئيس البنوك السويسرية واذا به يقول لى أن المخابرات الامريكية والمخابرات الاسرائيلية قد "هلكتنا" شهورا طويلة . وسألته لماذا ؟ فقال لى الرجل السويسرى : لقد حاولوا بأى طريقة العثور على أى حساب باسم جمال عبدالناصر فلم يجدوا .

" المهم ، أننى لم أكد اشعر بحركة الضيوف المؤذنة بانتهاء العشاء الرسمى ، حتى أسرعت خارجا وانطلقت بالسيارة الى استراحة قصر "دسمان" الصغيرة التى كان ينزل فيها السادات .

صعدت الى الطابق الثانى وادخلنى فوزى عبدالحافظ الى غرفة نوم السادات ووجدت أنه قد عاد مبكرا ولبس البيجاما والروب ، وكان جالسا على مقعد وثير يحاول تشغيل التليفزيون بالموجه الصغير فى يده . وبعد أن تصافحنا وجلسنا وكرر السادات سروره بأنه يجدنى فى صحة

جيدة ، بادرته قائلا : أرأيت ياريس رد فعل حكاية العشرة ملايين دولار بتاعة عبدالناصر ؟.

وقال السادات : نعم رأيت ، هنا وفى الرياض ، بل اننى رأيت وأنا فى القاهرة . فالشيخ جابر الأحمد مثلا (ولى العهد ورئيس الوزراء فى ذلك الوقت وأمير الكويت حاليا) صديق قديم لى . وهو أيضا لم يكن يحب جمال عبدالناصر ويعترض على سياساته الاقتصادية بالذات . ولكنه ما ان قرأ هذه الحكاية حتى أرسل لى خطابا يقول لى فيه ان عبدالناصر كان رمزا للعرب جميعا ، وقد عرفنا العالم عن طريق عبدالناصر ، ولا يجوز أن يقال عنه اليوم ومن مصر هذا الكلام الغير قابل للتصديق . ولكن ، ماذا أفعل وقد أصدر "فلان" كتابا فيه هذه القصة . صدقنى أننى لم أعرف عن الكتاب الا بعد أن نشرته أخبار اليوم بمنشيتات ضخمة على صفحات كاملة .

وقلت له : ولكن ، لو سمح بنشر مقالى ردا على ذلك فى الأهرام ، لكان اسهل على الناس أن يصدقوا أن الدولة ليس لها يد فى الموضوع وأنها محايدة حقا .

وقال لى : أصل "فلان" ده قلبه أسود ! أنا لم أكن أتصور أن قلبه اسود بالشكل ده ! انا ناوى لما أروح مصر فى أول خطبة حابهدله وامسح به الأرض .

وصدقت السادات ، وجزعت . وأخذت أقول له أنه من الخطأ الكبير أن يفعل ذلك بل انه ليس من حقه كرئيس دولة أن ينزل بثقله وسلطانه على مواطن بذاته "أحنا ياريس فى بلد اذا الناس فيه عرفوا أن فلان مغضوب عليه من رئيس الدولة ، ماحدش يكلمه " لو العسكرى الواقف فى الشارع سمع أن محمد افندى مغضوب عليه من الدولة ، وشافه قدامه ، يضربه على قفاه ! فاذا سأله الناس : ليه ضربت الراجل ده ؟ يقول : مش ده محمد افندى المغضوب عليه من الحكومة ؟ وضحك السادات ضحكة عريضة ، وقال لى أنه طبعا سيتكلم عن الموضوع ليس بالشكل الذى أتصوره".

وانتقلت فورا ، متخذا موقف الهجوم من الرئيس ، فقلت له أن القاموس الذى يستخدمه فى خطاباته وخصوصا قبل جولاته العربية لن يأتى لمصر بمليم ! فاذا قال رئيس الدولة أن بلده مفلس واقتصاده تحت الصفر وليس فى عروقه قطرة دم واحدة بل انه حارب لهذا السبب ، فان أحدا لن يساعد بلدا بهذا الشكل ، يعنى ياريس لو رحت لممول كبير مهما كان صاحبى وقلت له أنا عدمان وصدمان ومفلس فهو لن يعطينى مساعدة يعتد بها ، ولكنه سيعطينى صدقة على الأكثر ولا يقابلنى بعد ذلك . فى حين أننى لو

قلت له مثلا أن عندى قطعة أرض فى مكان كويس ونفسى الاقى شريك يساعدنى باقامة عمارة استثمارية فوق الأرض ففي هذه الحالة سوف يساعدنى على الفور .

واستطردت أقول للرئيس أن مصر رغم كل شيء اقتصادها له قاعدة متينة ومتكاملة (كان ذلك قبل ماحدث بعد ذلك بسنوات من تراكم الديون وشلل الصناعة والانتاج .. الخ) وانه أسلم اقتصاد فى المنطقة لا يعتمد على مورد واحد بل ان فيه كل عناصر النهوض السريع : زراعة ، قاعدة صناعية لا مثيل لها فى بلد مثلنا فى العالم الثالث ، وطبقة جديدة كاملة من الخبراء والفنيين والعمال المهرة وسوق استهلاكية كبيرة .. الخ ولا ينقصنا الا حُسن التدبير والادارة .

ورد علىّ السادات :

كلامك ده سمعته بالضبط من دافيد . أصل أنا جبت دافيد مرة من أمريكا . وطلبت منه أن يبقى فى مصر مدة وينكش فى كل الاقتصاد المصرى ويقول لى رأيه وأمرت كل الجهات فى مصر انها تضع تحت يده اى بيانات يطلبها . وفعلا ، وبعد اسبوعين تقريبا ، جانى دافيد وقال لى : "ياريس اقتصادك سليم . وفيه امكانيات هائلة . بس الغربال بتاعك فيه خروم واسعة لازم تتسد" . أصل دافيد ده صاحبى وانا اعرفه واثق فيه . انا قصدى دافيد روكفلر صاحب بنك تشيز مانهاتن ولما باروح امريكا باروح العزبة بتاعته وباختلط بيه هو وعائلته روكفلر أصل الامريكان دول "ولاد بلد زينا" ماعندهمش شكليات ويزيلوا التكليف مع الواحد بسرعة . مش زى الاوربيين اللى لسه معتقدين بالرسميات والشكليات ».

والطريف اننى سمعت بعد ذلك من أحد أعضاء الوفد المصرى أن الرئيس السادات فى جلسة المباحثات مع الوفد الكويتى ، أكثر من الاستشهاد بما يقوله "دافيد" ومن ذكر اسم دافيد . وفهم الجميع انه يقصد دافيد روكفلر . واذا بأمير الكويت السابق المرحوم الشيخ صباح السالم يرد عليه قائلا : ياريس ! احنا برضه عندنا عشرين دافيد ! بس اسمهم حسن وعلى وعبدالله !!.

وبعد ان كنت أحدث السادات عن التأثير السيىء لخطبه والتى قلت له بصراحة انها تصور مصر على أنها قد اصبحت خرابة ، سألنى السادات عن فيلم مصرى كان يعرض وقتها فى الكويت ويبدو أنه سمع من غيرى انه

يسيء الى سمعة مصر وهو فيلم "الكرنك" وانه يظهر مصر كلها فاسدة ومنحلة رجالا ونساء وقلت له اننى لم أر الفيلم ولم أسمع شيئا من ذلك .

وكان المفاجئة الكبرى بالنسبة لى ، بعد أن عاد السادات الى القاهرة أن ألقى خطابا عنيفا هاجم فيه الصحف تمهيدا لحركة تغيير أجراها بعد ذلك في قيادتها ، واذا به يقول في خطابه المذاع الذي سمعته وانا في الكويت انه عندما كان في الكويت قال له "صحفي مصرى معروفٌ : ان الصحافة المصرية تظهر مصر على أنها خرابة !! وانه لذلك يجب اجراء تعديلات واسعة فيها او شيء من هذا القبيل" .

أي أن ماوصفت به خطاباته بالذات ، أخذه ونسبه اليَّ على أننى نسبته الى الصحافة وهو الأمر غير الصحيح على الاطلاق !!.

وفهم بعض الكتاب بالطبع أننى المقصود وكتبوا يهاجموننى بدون ذكر الاسم . ولم اغضب منهم . فقد وجدت أنه من الطبيعى أن يصدقوا كلام رئيس الدولة . ولهم العذر . ومن يومها وهؤلاء الكتاب يهاجموننى بمناسبة وبدون مناسبة ، ولا أجد مبررا لتحاملهم عليَّ الا انهم صدقوا كلام رئيس الدولة الذي لم أعرف وقتها كيف أكذبه .



قصة معمر القذافي

كنت في الكويت ، عندما استدعاني الرئيس السادات للحضور الى القاهرة فوراً بسبب كان من اعجب الاسباب حين لقيت الرئيس وعرفته ، وكانت علاقتنا بالرئيس معمر القذافي .

وكما هو معروف ، فقد كان الاتفاق الثلاثي بين مصر وسوريا وليبيا مناورة سياسية لا غير ، وسرعان ما اصبح الاتفاق وكأن ليس له وجود .

واسجل هنا انه كان هناك في الدوائر الرسمية المصرية والدوائر المحيطة بها على الدوام ، تيار يعادي القذافي ويشك في نواياه ويدعو الى معاملته بجفاء وعدم الاستماع الى اية رغبة يبديها او الى اي وعد يعد به لإنه في رأيه سيء النية . وتيار اخر يرى ان القذافي يخلق بالفعل كثيراً من المشاكل وان العلاقات معه معرضة دائما للتقلبات المزاجية غير المفهومة ، ولكنه رغم كل شيء شاب حسن القصد وامكانيات مساهمته في العمل العربي تنطوي على مزايا اقتصادية وجغرافية واستراتيجية هائلة . وكنت شخصياً من هذا التيار الثاني .

وكان من اكثر ماجعل القذافي يخسر في الدوائر المصرية وازاء الرأى العام المصرى هجومه الاذاعى العنيف على حرب اكتوبر ، ومن اليوم الاول للحرب والقوات المصرية فى اوج القتال العنيف ضد الجيش الاسرائيلى .

ومن امثلة هذا الاثر ، ان الاستاذ عبدالعزيز حسين وزير الدولة الكويتى المعروف فى ذلك الوقت كان من اول من جاءوا الى مصر بعد الحرب وطلب زيارة الجبهة والقناة وخط بارليف الذى اقتحمته واستولت عليه القوات المصرية فى سيناء . ولأن الاستاذ عبدالعزيز حسين صديق كبير وعزيز ، فقد رافقته فى هذه الزيارة التى نظمتها القوات المسلحة كما كان معنا المهندس عثمان احمد عثمان ، وبعد الزيارة جلسنا فى استراحة الضباط لتناول الغداء فى ضيافتها وكان المضيف هو المرحوم اللواء احمد بدوى الذى كان مازال قائداً للجيش الثالث الميدانى . وبين الاحاديث عن ايام الحرب وذكرياتها ، تكلم اللواء احمد بدوى فجأة مهاجما الاذاعة العربية التى كانت تتهم حرب اكتوبر بأنها تمثيلية وبأنها خيانة . وتحدث بحرارة وعنف عن شعوره وشعور ضباطه وهم فى غمرة القتال بعد العبور الى سيناء اذ تلتقط اجهزتهم هذه الاذاعات ، حتى اغرورقت عينا الضابط الشديد الصرامة احمد بدوى بالدموع . وشعرنا ان ثمة سوء تفاهم ما . ثم تبين ان اللواء احمد بدوى لم يلتقط اسم ولقب الوزير الكويتى عبدالعزيز حسين جيداً وفهم انه وزير ليبى . فأبدى اعتذاره فى الحال وقال انه يقصد

الاذاعة الليبية بالذات وانه لم يقصد أحدا آخر من الاخوة العرب .

وكما هو معروف ، عندما اعلن السادات بعد نهاية الحرب عن عقد جلسة في البرلمان لتقديم الاوسمة لقادة الجيوش ارسل القذافي يطلب حضور الجلسة والمساهمة فيها والمشاركة في تكريم ابطال القوات المسلحة المصرية .

في تلك الليلة دار جدل عنيف في الدوائر المصرية بين من يرى قبول هذا الطلب لان فيه اعتذارا كافياً من العقيد القذافي وفرصة لجمع الصفوف مرة اخرى فوق انه دليل على حسن النية ، وفريق اخر يرى ضرورة رفض هذا الطلب ومنع القذافي من حضور الجلسة لانه لا يمكن ان يؤتمن ولابد ان له من وراء ذلك اغراضا اخرى . ويجب ان اسجل انني في تلك الليلة شعرت لاول مرة ان هناك تياراً في مصر لا يحاسب القذافي على تصرفاته فحسب بل يريد من حيث المبدأ والهدف النهائي قطع كل مابين مصر والقذافي نهائياً . وانتهى الاخذ والرد عند منتصف الليل بقبول الطلب والترحيب بحضور القذافي جلسة البرلمان .

هكذا مضت الايام فيما بعد بين السادات والقذافي في صعود وهبوط .

ولما وصلت الى القاهرة وذهبت للقاء السادات في استراحة الهرم هذه المرة كان عنده اللواء احمد عبدالسلام توفيق مدير المخابرات العامة في ذلك الوقت والملحق العسكري المصري في ليبيا الذي كان قادماً لتوه من طرابلس .

واخذ الاثنان يعرضان اخر ما لديهم من اخبار عن ليبيا وكلها تسير في اتجاه المشاكل التي يثيرها القذافي لمصر والمؤامرات التي يديرها . وبعد ان قال الرجلان كل مالديهم من معلومات جديدة ، انصرفا ، واستبقاني الرئيس السادات .

ولما صرنا بمفردنا قال لي الرئيس السادات انه قد ضاق ذرعاً بتقلبات القذافي ، وانه قد تأكد له انه يبطن غير ما يظهر ، وانه قد وصل معه الى نقطة اللا عودة وانه قرر أن يعلن ذلك بشن حملة صحفية شاملة عليه . وهو لا يريدها حملة غوغائية مما تقوم به الصحف المصرية احياناً ، وانه استدعاني من الكويت ، لكي يضع تحت يده كل المعلومات والأوراق الخاصة بالعلاقات المصرية - الليبية ، وهو يريدني أن أقوم أنا بكتابة سلسلة من المقالات التي تنطوي على هذا الهجوم الشامل خصوصاً وانني لست متهماً بمعاداة القذافي مقدماً .

ولما ابديت دهشتي من استدعائي من الكويت لهذا السبب ، اراد السادات فيما اظن اغرائي بأيام عبدالناصر عندما كان محمد حسنين هيكل يتولى كتابة حملة ما في مقالات تنشر في الاهرام وتذيعها موجات الاذاعة المصرية وتنقلها عشرات الصحف القومية !!

وكالعادة عندما يثار بيننا موضوع القذافي ، بدأت احاول اقناع السادات ببذل كل الجهود لتجاوز الازمة وعدم اتخاذ قرار القطيعة النهائية التي يدفعه اليها البعض ، متهماً في ذلك اجنحة ذات ميول أمريكية معروفة ، وأن مصر بصفتها الدولة الاكبر والانضج عليها احياناً ان تتحمل الاخرين .

وكان السادات يروي لي احياناً بعض ازعاجات القذافي له . مثل يوم كان فيه مريضاً في فراشه في قريته "ميت ابو الكوم" وهبط عليه عبدالسلام جلود دون استئذان قائلاً له : ان القذافي سيلقي غداً خطابه في ذكرى الفاتح من سبتمبر وانه يريد ان يعلن في خطابه قيام الوحدة الاندماجية بين مصر وليبيا ، وانه - اي عبدالسلام جلود - جاء فجأة ليحصل على موافقة السادات والعودة بها فوراً الى طرابلس !

او يوم كان رؤساء الدول العربية والاسلامية ذاهبين الى المؤتمر الاسلامي في باكستان . وكانت هناك قطيعة بين القذافي والملك فيصل . واقترح السادات على القذافي ان يمر عليه في القاهرة ثم يذهبان معاً الى جدة ، ويقومان باداء العمرة معاً في مكة ، قبل التوجه الى باكستان .

وكان قصده من ذلك ان يخلق مناسبة يلتقي فيها القذافي بالملك فيصل ويزيل مابينهما من جفاء قبل اللقاء في القمة الاسلامية . وتحمس القذافي للفكرة . ولكن - يقول السادات - انهما اذ كانا داخل الكعبة المشرفة في الظلام الدامس والتي لا يفتح بابها الا لأكبر الزوار ، والكل يرفع كفيه بالدعاء ، اذا بالقذافي يمسك باحدى يدي السادات ويجذبه بشدة ويضع القذافي يد السادات في يده ويد شخص ثالث لا يتبينه السادات في الظلام ، ويقول القذافي للسادات : لنتعاهد هنا على تحرير فلسطين ! لنقسم بالله العظيم ان نفعل كذا وكيت ! وكلام كثير من هذا النوع يؤمن عليه السادات والشخص الثالث .

قال لي السادات : فلما خرجنا من الكعبة المشرفة سألت القذافي : "ايه اللي عملته ده يامعمر ؟ مين الراجل الثالث اللي حطيت ايدي في ايده ؟" فقال لي القذافي : "ده ياريس ممثل فتح في السعودية" . فقلت له : "طيب مش كنت تقول لي ؟! افرض كان طلع ممثل الجبهة الشعبية !!"

كانت حكايات السادات عن القذافي من هذا النوع كثيرة . اما هذه

المرة ، القصة التي جعلته يقرر القطيعة النهائية مع القذافي فقد كانت من النوع الجاد الخطير : كانت ليبيا قد ارسلت الى مصر طائرات ميراج تكون تحت تصرف القوات المسلحة المصرية اذا قامت الحرب . ولم تستخدم هذه الطائرات في الحرب . ولكن اسرائيل كانت لاتزال في سيناء بعد وقف اطلاق النار وفك الاشتباك ، وهي تماطل بشكل سافر في الانسحاب ومصر تتصرف وتتسلح على اساس أن مواجهة ثانية او حركة غادرة من اسرائيل امر وارد . والقذافي ارسل فجأة يطلب سحب طائرات الميراج من مكانها في مصر ، ويلح في ذلك بشكل متواصل ، رغم كل المحاولات المصرية لاقناعه بتأجيل هذا الطلب .

وناقشت السادات طويلا في ان مصر يجب ان تكون اكثر صبراً . واننا لم نستنفد الوسائل لاقناع القذافي او لاحراجه حتى لا يصر على سحب هذه الطائرات . وكنت في نفس الوقت غير مستعد للقيام بهذه المهمة وهي شن الحملة الشاملة على القذافي ، حتى لو كان مخطئاً في هذه الحالة ، فقد كنت أشعر إن ثمة ايد اجنبية تعمل على تدهور الموقف نهائيا بين مصر وليبيا . واذا كنت ارى هذا في مصر فلابد ان هناك مثله في ليبيا . والمرء يستطيع ان يؤلف مجلدات عن نشاطات الاجهزة الاجنبية واصدقائها وعملائها المحليين في التأثير على قرارات الحكام العرب دون ان يشعروا بذلك .

وفي نهاية المناقشة التي طالت ، قال لي السادات : طيب ، انا حاقول لممدوح سالم (كان لايزال وزيراً للداخلية) يبعث لك كل الاوراق الخاصة بعلاقتنا مع ليبيا ، سياسية ودبلوماسية وعسكرية ، وكل المراسلات اللي بيننا وبينهم . وانت اقعد افحص كل الاوراق في البيت وزي ماانت عاوز ، وشوف بعد كده اذا كنت حاتوافق على رأيي ولا عندك رأي تاني .

وهذا ماكان . ارسل لي السيد ممدوح سالم كمية ضخمة من الاوراق الخاصة بليبيا فيها التقارير الخاصة وفيها جلسات مباحثات ، وفيها رسائل متبادلة بين الرئيسين او بين جهات مختلفة في الحكومتين . وقد لفت نظري ان يكون هذا الموضوع الهام بحذافيره عند السيد ممدوح سالم وهو مازال نائبا لرئيس الوزراء ووزيراً للداخلية . وكان هذا مؤشراً قوياً على تزايد نفوذ ممدوح سالم وتزايد اعتماد السادات عليه .

وقد عكفت بالفعل على قراءة كل هذه الاوراق . وكان فيها كل عجيب وغريب . وكانت هذه اول مرة اجد فيها بين يدى هذه الكمية من المراسلات الرسمية بين دولتين على اعلى مستوى . وعلى اكبر درجة من السرية . وقد كان اول رد فعل لي هو الدهشة الشديدة من تفاهة تلك المراسلات العليا !!

وسألت نفسي : هل يمكن ان يكون مايدور وراء الكواليس بين الدول على هذا القدر من عدم الدقة وعدم التحديد والعبارات الانشائية والهيافة اللهم الا في حالات قليلة جداً ، مثل المراسلات الخاصة بالطائرات الثمانية والاربعين ؟ ان ماتنشره الصحف العلنية من اخبار ومعلومات وتعليقات وتصريحات اهم وادق من هذا كله ! وهل هذا هو شأن كل الدول ام شأن بلادنا العربية وحدها ؟!

وذهبت الى السادات بهذا الانطباع . وقلت له بصراحة أن من يقرأ هذه الاوراق لا يجد فيها اكثر ممن يقرأ البيانات العلنية وخطب المناسبات . فلم اجد في كل هذه الاوراق مايحدد العلاقات بين الدولتين تحديداً واضحاً في اى مجال من المجالات سياسيا او عسكريا أواقتصادياً . وقد كنت اظن ان مايدور بين المسئولين بعيداً عن العلانية تكون فيه درجة أعلى من الواقعية والمصارحة ومايريده حقاً كل طرف ، ومايستطيعه ، بعيداً عن لغة الامنيات والشعارات غير المحددة .

وكنت احمل - بناء على هذه المقدمة - إقتراحا محدداً : ان يبعث الرئيس السادات الى الرئيس القذافى رسالة مفصلة شاملة ، تنسخ كل ماسبقها ، وتحاول ان تواجه الاسئلة الحقيقية والجوهرية المتعلقة بعلاقات البلدين . وأن تحدد فيها مصر موافقتها تحديداً قاطعاً ، وتعلق على المواقف الليبية تعليقاً واضحاً وقاطعاً ايضاً . فيكون هناك اساس جدى لاول مرة للمناقشة المحددة ، بين دولتين كل دولة لها تصور وسياسات ومصالح ، وبعيداً عن عبارات "الاخوة" و "الاشقاء" و "التضامن" و "التضحية" وما الى ذلك من العبارات التى تصلح للخطب والبيانات فحسب ، ومن الهزل ان تملأ المراسلات "السرية" بين الدول .

وقلت للسادات : سنعرض على القذافى بشكل واقعى جداً كل مالدينا . وستنتهى الى تخييره فى علاقته مع مصر بين كافة انواع العلاقات ، ابتداء من الوحدة ، الى الكونفدرالية ، الى التحالف ، الى المشروعات الاقتصادية المشتركة الى مجرد علاقات حسن الجوار . هذا مع تحديد ما تقبله مصر وما لا تقبله بالنسبة لكل وضع من هذه الاوضاع .

وابديت بالطبع استعدادى ، اذا وافق الرئيس ، لكتابة مشروع هذه الرسالة ، وكنت اعتقد ان هذا الاقتراح يؤدى ، من ناحية ، الى تأجيل انفجار الخلاف والقطيعة العلنية ، ومن ناحية اخرى ربما يؤدى الى بداية اخذ ورد بين البلدين يقوم على اساس الواقع والنوايا الحقيقية لا على اساس الشعارات والامنيات .

ووافق الرئيس السادات . وعكفت اياماً على كتابة هذه الرسالة التى تعرضت لكل قضايا الماضى والحاضر والمستقبل بين مصر وليبيا بشكل موضوعى تماماً . ووافق الرئيس السادات عليها . وامر بطباعتها وارسالها بسرعة .

وقبل ان اترك القاهرة علمت ان السادات بدلاً من ان يرسلها مع من يسلمها للعقيد القذافى ، ارسلها مع من يسلم نسخة منها الى كل عضو من اعضاء مجلس الثورة الليبى . وبعد ان كان مطلع الرسالة موجهاً الى "الاخ الرئيس معمر القذافى" ، تم تغيير هذا المطلع الى "الاخوة اعضاء مجلس قيادة الثورة" . وقد اثار هذا غضب القذافى وهياجه الى آخر الحدود . وعندما سألت السادات بعد ذلك لماذا فعل هذا وهو يعرف انه سوف يثير القذافى ، قال لى : ان القذافى لا يروى لأعضاء مجلس الثورة الحقيقة . وانه يبلغهم مايناسبه ابلاغهم فقط ، وانه اراد ان يعرف زملاء القذافى لاول مرة الحقائق كاملة .

واذكر ان السادات كان يضحك من اعماقه وهو يروى كيف ان القذافى ارسل رجاله بسرعة يجمعون هذه الوثيقة من اعضاء مجلس الثورة . قبل ان تتسرب الى غيرهم بل حتى قبل ان يقرأها بعضهم .

وقد انقطعت علاقتى بالموضوع الليبى بعد ذلك تماماً . وبعد شهور ، اذ كنت خارج مصر ، قرأت الرسالة منشورة بكاملها وبابراز شديد فى كل الصحف المصرية فى يوم واحد ، وكانت الهيئة العامة للاستعلامات قد طبعتها فى كراسة صغيرة لتوزيعها فى ليبيا بالذات . واستنتجت من ذلك ان الامور لابد انها تدهورت مرة أخرى بين السادات والقذافى ، بشكل نهائى واخير .

●●●

« ترزية قوانين » لعلاج
« انتفاضة الحرامية »

كنت وقتها في الكويت .. يناير ١٩٧٧ . وانفجرت في الصحف والإذاعات الكويتية والعالمية أنباء المظاهرات العنيفة التى اجتاحت مصر ، والتي صكت لها الصحافة العالمية بعد ذلك الاسم الذى مازالت تعرف به حتى الآن وهو : «The FOOD RIOTS» اى «مظاهرات الخبز» .

كان الرئيس السادات بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ مباشرة قد بدأ يعزف معزوفتين كان لهما اثر كبير في التمهيد لمرحلة السلام المقبلة مع اسرائيل ، التى بدأت بمباحثات الكيلو ١٠١ الشهيرة وفك الاشتباك الأول مع اسرائيل ثم فك الاشتباك الثانى .

المعزوفة الأولى : أن عصر الحروب قد انتهى وأن حرب ١٩٧٣ هي آخر الحروب .

والمعزوفة الثانية : أنه مع بزوغ عصر السلام فان الرخاء أت عن قريب . وما كانت تنفقه مصر على السلاح والجيوش سوف تنفقه لتحقيق عصر الرخاء والرفاهية .

وكان لهاتين النغمتين البارعتين ـ ولا أشك فى أن السادات كان يصدقهما فعلا ـ كان لهما أثر كبير فى تهيؤ الناس إلى تقبل عملية السلام والاسراع نحوها . وكان ذلك ايضا ـ للتاريخ ـ شعور معظم الحكام العرب . كل النظم التى تصورت ان حرب ١٩٧٣ كما ادارها السادات اى بقصد الوصول الى السلام لا إلى الانتصار هى الطريق الذى سيخلصهم به السادات اخيرا من صداع وآلام وتضحيات القضية الفلسطينية .

وانتشرت البعثات الاقتصادية المصرية فى انحاء العالم تحصل على القروض السخية بعد ان اعطتها امريكا الضوء الأخضر . وانهالت التبرعات العربية لاعادة تعمير مدن قناة السويس ومساعدة مصر اقتصاديا بوجه عام .

ولكن مجىء اسرائيل الى مائدة الصلح لم يأت بسرعة كما توقع البعض .. ومرت اكثر من ثلاث سنوات بلا تقدم حتى كاد الناس ينسون نصر اكتوبر .

كانت مانشيتات الصحف المصرية تصدر كل صباح بأضخم حجم تعلن عن تبرعات بآلاف ومئات ملايين الدولارات أو بتسهيلات وقروض من هذه الدولة الغربية او تلك ايضا بآلاف أو مئات ملايين الدولارات . كل هذا تبشير للناس بأن الرخاء على الأبواب . بل وراح الرئيس السادات يحدد أعواما لهذا الرخاء .

في تلك الفترة ، وكنت فيها رئيسا لتحرير جريدة «الاهرام» كنت أرى الرئيس السادات كثيرا في مختلف الأماكن والاستراحات . كنا نتناقش كثيرا حول هذه الحالة النفسية التي ينشرها الاعلام وسياسة الدولة بين الناس والتي لم اكن مستريحا الى عواقبها .

كانت خلاصة حججي التي تتكرر في مناقشات طويلة مفصلة مع الرئيس السادات هي ان هذه الأموال والدعايات عن آلاف الملايين تعلق الجماهير بآمال لن تتحقق في وقت قريب ، فالناس تظن ان هذه الأموال ستتحول الى منّ وسلوى في شهور . في حين ان اقامة اى مشروع واحد للتنمية يستغرق سنوات .. واذكر انني في إحدى المرات كنت ذاهبا اليه بالسيارة من القاهرة الى الاسكندرية وفي يدي نسخة من مجلة «تايم» الامريكية المعروفة اسلي نفسي بقراءة ابوابها المتنوعة .. وبالصدفة وجدت فيها موضوعا عن الفنادق ووقفت عند جملة تقول : ان معدل الوقت الذى يستغرقه بناء فندق في ألمانيا الغربية هو ثلاثون شهرا .. وعندما وصلت الى الرئيس وسألني عما بيدي قلت له : المجلة يا ريس تقول ان بناء فندق في المانيا الغربية يستغرق سنتين ونصف السنة ، أى انه في مصر يستغرق خمس سنوات !!

وهذا الكلام عن فندق لا عن مصنع او استصلاح أراض .. ومصر بلد كبير وبناء فندق فيه من ناحية أثره الاقتصادى يساوى افتتاح مطعم فول في لبنان مثلا ! .

وانطلقت اشرح له وجهة نظري المفصلة في ذلك الوقت : إن الشعب المصري فخور بنفسه وبجيشه بعد حرب ١٩٧٣ وبعد مثل هذه الحرب تكون الشعوب في اقصى حالاتها استعدادا للتضحية وربط الأحزمة على البطون . هكذا فعلت كل دولة اوربية بعد الحرب العالمية ، منتصرة كانت أو مهزومة .. البدء بعد الحرب للبناء والتقشف . ثم يأتي الرخاء القائم على اساس متين . وهذه الأموال والمساعدات والقروض والتسهيلات خير لنا ان نقول للشعب اننا سنوجهها للانتاج خلال السنوات الثلاث الأولى بعد الحرب ثم يبدأ الانفراج .

ولكن السادات لم يقبل مني هذا المنطق مرة واحدة ، رغم اننا تناقشنا فيه مرارا وتكرارا .. كنت أرى وقتها ان ردود السادات عليّ تعني ببساطة انه شديد التفاؤل ، وان المشاكل ستحل بسهولة اكثر . وان دول الغرب ودول النفط ستغرقنا دائما بمزيد

من المال . وانه متسرع في اقناع الناس بحقيقة الرخاء الذى بدأ يهطل بعد معاناة الحرب والفترة التى سبقتها .

ولكنني الآن حين استرجع مناقشات أخرى جرت بعد ذلك ، خصوصا مع الانفتاح ، أقول لنفسى لعل الرئيس السادات كان يفكر فى نوع آخر سريع من الرخاء ، يقوم على تحويل مصر من دولة انتاج الى دولة خدمات .

ولم يكن الرئيس السادات على معرفة كبيرة بالمسائل الاقتصادية ولاأقصد بذلك ان كل رئيس يجب ان يكون رجل اقتصاد ، ولكنه كان اميل الى أخذ المسائل الاقتصادية ببساطة مبالغ فيها والى عقد مقارنات مظهرية لا أساس لها على الاطلاق . ولا أنسى رد الرئيس السادات عليَّ يوم ذلك النقاش حول اقامة المناطق الحرة الثلاث قال لي بالحرف الواحد :

يا أحمد أنا برضه باحس ساعات انك مش راضى تفهمنى !

انني انتظر الوقت المناسب لأعلن مصر كلها منطقة حرة ! ألم تسمع عن سنغافورة ، وهونج كونج ؟ وذهلت طبعا .

المهم .. ان أحداث مظاهرات الخبز في مصر كانت زلزالا عنيفا في كل العالم وفى العالم العربى بالطبع ، الذى قلق على مسيرة السلام والذى لم يفهم ان معاناة الشعب المصرى الاقتصادية زادت بعد الحرب ولم تنقص ، وان الأموال التى هطلت على مصر لم تأخذ طريقها الطبيعى .. وان الناس بدأت تتضجر من انفجار الفوارق الاجتماعية والثروات السريعة ، رغم انها كانت في بدايتها .

وتوقعت ان يستدعيني الرئيس السادات الى القاهرة .. وبعد اسبوع تقريبا اتصل بى السفير المصرى فى الكويت عز العرب امين وطلب إليّ ان اتوجه الى القاهرة فى اليوم التالى باستدعاء من الرئيس .

وصلت الى القاهرة .. وتعمدت ألا أبلغ مباشرة عن وصولى كالعادة ، حتى اكسب يومين او ثلاثة ايام ، ألم خلالها بحقيقة ما حدث فى مصر .. وادركت انها كانت انتفاضة شعبية حقيقية ، وليست انتفاضة حرامية كما حاول السادات ان يسميها .

وعرفت ان المظاهرات اندلعت بطول القطر كله من الاسكندرية الى أسوان ، حيث كان الرئيس السادات هناك بعد ان ودع الرئيس تيتو ، وبقى ينتظر وصول جلالة الملك حسين وانه راى من استراحته على الضفة الأخرى من النيل اسوان كلها وكأنها تحترق ، فقد اشعل الناس النيران في اقواس النصر التي كانت تغطي كورنيش اسوان .. وجاءوا بمكبرات الصوت يهتفون بها باقذع العبارات .

وعلمت ان الموقف فى القطر بوجه عام كان خطيرا ، حيث عجزت الشرطة عن مواجهته ، كذلك لم تكف اجهزة إطفاء الحرائق .. وبالتالى انسحبت الدولة واقعيا من الشارع

المصرى . هوجمت اقسام الشرطة فى القاهرة وفى الاقاليم باعداد اكبر من قدرتها . واحرقت بيوت بعض المحافظين .

وقالت القاهرة لكل اقليم : اعتمدوا على انفسكم .. ليس لدينا جندى شرطة ولا عربة اطفاء تسعفكم بها ! وسمعت ان السيد ممدوح سالم رئيس الوزراء اتصل بالمشير عبد الغنى الجمسى نائب رئيس الوزراء والقائد العام للقوات المسلحة وطلب إليه انزال الجيش وقال المشير الجمسى للسيد ممدوح سالم .. صفتى هنا أننى قائد عام للقوات المسلحة ولا بد أن اتلقى الأمر بذلك من القائد الأعلى وهو رئيس الجمهورية .

واستقر الرأى : على ان يصدر الرئيس بيانا فوريا فى الاذاعة بسحب قرارات رفع الأسعار التى اشعلت الانتفاضة لأن الناس فى حالة هياج وتوتر شديدين .. وانه بعد ذلك مباشرة يمكن انزال قوات الجيش بدون ذخيرة لاسترداد هيبة الدولة وتهدئة الجماهير ونصحها بالانصراف فى سلام .. وهذا ما حدث : اعلن قرار رئيس الجمهورية بسحب قرارات رفع الأسعار التى اتخذتها الوزارة وهلل الناس فى الشوارع ونزلت القوات المسلحة ـ وقد هبط الليل على البلاد ـ تنصح الناس بالتفرق بهدوء والناس يهللون ويرحبون بالجنود والدبابات .

أبلغت مكتب الرئيس بوجودى .. وحددوا لى موعدا معه الساعة الحادية عشرة صباح اليوم التالى فى استراحة القناطر .

كنت طول الطريق لا أعرف كيف سأواجه هذا الموقف مع الرئيس .. وكنت من معرفتى بشخصيته استطيع ان اتصور مدى ثورته وألمه لطعنة أصابته فى كبريائه بهذا الشكل بعد ان وضع على رأسه اكاليل غار حرب ١٩٧٣ .

وفى الساعة الحادية عشرة بالضبط كنت أصافحه على مدخل استراحة القناطر كان يوم شتاء شديد البرودة ودخل بى الرئيس السادات وانا أسير خلفه ، وهو يتجول فى الاستراحة الواسعة باحثا عن حجرة مشمسة دافئة «لأننا سنتحدث طويلا» .. وبعد ان جلسنا شرح لى جانبا من قصة «انتفاضة الحرامية» .

وحاولت معه محاولة غريبة فى أول الأمر .. حاولت قبل ان نخوض فى النقاش ان اكسر حدة غضبه وجيشان عواطفه بالفكاهة وباثارة موقف كوميدى .

وقلت بلهجة دهشة و «استعباط» شديد : غريبة ! اننى مندهش جدا ان أرى سيادتك غاضبا من المظاهرات بهذا الشكل .

ـ وماذا كنت تتصور ؟

ـ ان المظاهرات يا ريس لا تحدث إلا فى البلاد المتقدمة ! هل

سمعنا عن مظاهرة قامت فى اوغندا عند عيدى أمين ؟ او فى بلاد مثلها ؟ هذه المظاهرات تحدث في فرنسا ضد ديجول أو فى المانيا أو فى ايطاليا .. فالأمر حقيقة لا يستدعى كل هذا الغضب ! .

ولم يعجب الرئيس بكلامى ولم يرتح له .. وقال لى : انك لا تعرف كل ما حدث !! لقد حاولوا مهاجمة بيتى فى الجيزة وكادوا يصلون اليه ! .. لقد كانت زوجات الوزراء والكبراء يصرخن فى بيوتهن فزعا ويحاولن الاستغاثة بأى مخلوق ، خوفا من اقتحام الغوغاء البيوت على العائلات .. ان ما كانت تهتف به الغوغاء فى الشوارع كان غاية فى البذاءة !!

وحاولت تكرار الحيلة مع الرئيس مرة اخرى .. حيلة اطفاء الغضب وتغيير مزاجه .. تمهيدا لامكان نقاش هادىء .. فقاطعته قائلا : سيادتك تقول دائما ان شعب مصر اعرق شعب منذ سبعة آلاف سنة ، وبيننا وبين بعض ، أليس هو ايضا من ابذأ شعوب العالم ؟ أيمكن ان يمشى واحد منا عشر خطوات فى أى شارع دون ان يسمع ابذأ الألفاظ على السنة الناس ؟ اننا حين نريد ان نمدح شخصا نقول عنه .. ده ابن كلب شاطر .. !

كنت أقول ذلك ضاحكا ومحاولا المرح .. ولكننى مرة اخرى اصطدمت بجدار صخرى من الرفض لأى تخفيف فى مثل هذا الموقف .

وكان لا مفر من المواجهة بالرئيس ، وهو كما توقعت يطلب إلىّ ان اكتب خطابا له يوجهه الى الجماهير .. وانا اخالف كل ما يريد ان يقوله على خط مستقيم ، ولا اريد ان اشارك فى ذلك .

وبدأت المناقشات الصاخبة حينا والهادئة حينا آخر .. حتى منتصف الليل لم يتخللها إلا شرب القهوة .. لم يتخللها اى غداء لأن الرئيس السادات فى روتينه اليومى لا يتناول وجبة الغداء فى كثير من الحالات . كان موقفه ببساطة انه يريد انتهاج سياسة بالغة العنف من الردع والشدة وكان يقول إن الشيوعيين هم الذين افتعلوا المظاهرات ضده .. ويريدون ان يسموها انتفاضة شعبية . ولما قلت له اننى فهمت ان احدا من الشيوعيين لم يقبض عليه فى المظاهرات ، وإنما أخذت الشرطة بعضهم من منازلهم .. قال لى : ماهى دى شطارتهم .. يولعوا الحريقة ويجروا على بيوتهم ويسيبوا الباقى للحرامية والأوباش .. قلت له : يبقوا شطار .. فالقضاء لن يتمكن من اثبات التهمة عليهم .. وشطارة البوليس ان يقبض عليهم فى المظاهرات .. المحاكم يا ريس ستبرىء كل الذين ترى انهم متهمون .. وأنا اقول ذلك كمحقق سابق .

وقال السادات : إن المسألة على اى حال صارت اكبر من معرفة من الفاعل او توفر الادلة القضائية ضده ، ان ما حدث لا يمكن ان اسمح بتكراره مهما حدث .. ولو لجأت الى الحديد والنار ، وأنا أريد أن اتحدث بذلك وبصراحة للناس على شاشة

التليفزيون وان أصدر قوانين رادعة حتى ولو لم يسبق لها مثيل » .

كانت وجهة نظرى والنصيحة التى قدمتها له فى تفصيل طويل جدا مختلفة تماما .

قلت له : اننى أرى الناس مبسوطة بعد كل ما حدث ! ماحدث كان مؤسفا ولكن المواطنين العاديين - كما رأيتهم - مسرورون لإلغاء رفع الأسعار .. وشاعرون بانهم قد كسبوا مطلبا شعبيا .

وهمَّ بمقاطعتى .. عند هذه النقطة فقلت له : اسمح لى سيادتك لحظة واحدة .. أنا أعرف كمراقب عن بعد ان تفكير الدولة منذ بدء الثورة يرفض الاستجابة لضغط جماهيرى .. ويعتبر ذلك هزيمة له ..

وانه لو تركت الجماهير تفرح بنجاح ضغطها فسوف تعتاد على ذلك ويغريها هذا بالضغط كلما أرادت شيئا . اعرف هذا يا ريس . ولكن اسمح لى أن اقول ان الثورة مر عليها خمس وعشرون سنة وان الظروف تسمح بأن تستجيب الحكومة ولو مرة لضغط الجماهير .. ان الناس فرحانة لهذا المعنى قبل كل شيء .. فيها ايه لو تركنا لهم فرصتهم ؟ .. ثم ان سيادتك لم يصدر عنك فى كل هذه الأزمة إلا قرار الغاء رفع الأسعار .. وحقيقة أرى ان الناس نسوا ذلك .. ولكن اسمح لى أن اقول ان قياداتك لا تفكر دائما تفكيرا سياسيا صحيحا .. فقد قرأت فى الصحف من يومين ان بعض نواب المعارضة قدموا استجوابا لمناقشة احداث ١٨ و١٩ يناير .. صحيح ان من حق الحكومة طلب التأجيل لمدة تصل إلى اربعة اسابيع .. لكن الحكومة «الشاطرة» احيانا تفاجيء المعارضة باستعدادها للمناقشة فورا .

ولو حدث هذا لانتهى الأمر ونسى الناس آلام «الخناقة» ، كلها ولكن الدكتور فؤاد محيى الدين ممثل الحكومة فى مجلس الشعب طلب تأجيل المناقشة ثلاثة أو أربعة اسابيع ؛ ان معنى هذا ان تنكأ الجروح وتعود المشاجرات والذكريات الأليمة الى أذهان الناس بعد أربعة اسابيع ! وبعد ان نسوها وفرحوا بالاستجابة لهم والغاء رفع الأسعار .. هل هذه مثلا سياسة ذكية .. ؟ أليس الأحسن ان نتصرف وكأن الأحداث قد أصبحت وراءنا ؟

وقاطعنى السادات قائلا : هل هذا حدث ؟ قلت له .. هذا هو المنشور فى الصحف .

ورفع سماعة التليفون وطلب المهندس سيد مرعى رئيس مجلس الشعب فى ذلك الوقت وهاجم بشدة تصرف فؤاد محيى الدين وطلب إلى سيد مرعى ان يتصرف بحيث «لا يرى هذا الاستجواب النور ابدا مهما حدث» !

وقلت للرئيس السادات : لنعترف هنا بأن القرارات الاقتصادية ، والطريقة التى أعلنت بها ، كانت خطأ اقتصاديا هائلا .. اسمح لى يا

سيادة الرئيس ان اقول لك ان بعض وزرائك «خواجات» وكأنهم لا يعيشون في مصر !.. انهم في بيوتهم في الزمالك يقررون رفع سعر البوتاجاز وكأنهم يتصورون ان الشعب المصرى مازال يستخدم البابور «البريموس» « وجاز أبو خروف» .. متصورين ان البوتاجاز مازال مقصورا على اهل الزمالك .. انهم فعلا خواجات لأنهم لايعرفون ان كل قدرة فول وكل قرص طعمية يأكله الناس ينضج الآن على البوتاجاز !! وان رفع سعر البوتاجاز يؤدى إلى رفع سعر سندوتش الطعمية في اللحظة نفسها الى الضعف .. انهم لا يعرفون بعض اهم ما قامت به الثورة .. المصانع الحربية ياريس انتجت في يوم من الأيام جهاز بوتاجاز له شعلتان ويباع للناس بعشرة جنيهات وعلى عشرة اقساط ! جنيه واحد كل شهر ! ان الشغالة التي في بيتنا ترفض العريس - اذا لم يشتر لها ثلاجة وبوتاجازا وسخانا كهربائيا من انتاج المصانع الحربية ! اطلب الآن يا ريس من كل مباحث الدولة ان تعثر في القاهرة كلها على «بابور «بريموس» واحد .

وهنا دخل السفرجي حاملا لي فنجان قهوة .. وكان الرئيس السادات يطلب لي فنجان قهوة ويطلب لنفسه شايا أو ينسونا أو ما إليه ..

وسألت السفرجي : على اى شيء تطبخ يا اسطى في بيتك ؟

فرد قائلا : على فرن بوتاجاز صغير ..

قلت له : وجيرانك .. وأقاربك ؟

فرد قائلا : نفس الشيء

قلت له : ودكان الفول والطعمية في حارتكم .. ماذا يستعمل ؟

فرد قائلا : البوتاجاز برضه .

انني لا استطيع ان اتذكر بأمانة كل ما دار بيننا من احاديث استغرقت اكثر من اثنتي عشرة ساعة . ولكن الرئيس السادات كان احيانا يثور خصوصا اذا تذكر المظاهرات . واحيانا يستمع اليّ في صبر عجيب .. وكنت قد وصلت الى اقتناع داخلي : ان السادات لن يرى وجهي بعد هذا اليوم العاصف . وتصرفت على هذا الأساس .

قلت له مثلا : ما حكاية «المجموعة الاقتصادية» التي تعزى اليها القرارات ؟ هل هي حزب مستقل عن الدولة ؟ هل هم خبراء اجانب ؟ هناك شيء اسمه مسئولية وزارية ! وما حدث لم يكن يستدعي قمع الناس بل استقالة الوزارة كلها !

ولكن ألا تتذكر يا سيادة الرئيس ما فعله ديجول بعد ثورة باريس عليه سنة ١٩٦٨ ؟

وسألني ماذا تقصد ؟!

قلت له : في كل دستور في العالم ، حتى في النظام الرياسى مثل دستورنا ودستور فرنسا - الذي اعرف ان سيادتك تأثرت به ، هناك حيلة

دستورية سواء كانت مكتوبة أو غير مكتوبة : هذه الحيلة تقول ان الرئيس ليس مسئولا !! والناس كلها تعرف ان الرئيس مثلك او مثل ديجول هو المسئول عن كل كبيرة وصغيرة .. بل ان ديجول وهو رئيس الدولة يرأس مجلس الوزراء بانتظام .. هذه الحيلة الدستورية لها حكمة !

انه لا يجوز كلما تأزم موقف سياسى فى البلد ان يهتز رأس الدولة . فحيلة انه غير مسئول تجيز له ان يكون المخرج من المأزق هو استقالة رئيس الوزراء ومجلس الوزراء ، بهذا المعنى استقال جورج بومبيدو بعد احداث باريس الدامية رغم انها حدثت بسبب سياسات ديجول . وعين ديجول كوف دى مورفيل رئيسا للوزارة الجديدة لتنفيس الأزمة وإراحة الرأى العام .. ولم يلق بومبيدو للكلاب . بل احتفظ به قريبا منه ، وكان يرسله فى مهمات شرفية مرموقة بحيث انه حين استقال ديجول كان بومبيدو نفسه هو مرشح الديجوليين الذى خلف ديجول فى رياسة الجمهورية .

كنا وحدنا طيلة اليوم دون اى مقاطعة . مرة واحدة جاء السفرجى وهمس فى اذن الرئيس بأن الضيوف وصلوا . وحاولت أن انتهز الفرصة واستأذن فى الانصراف ، هاربا بجلدى فى الواقع من يوم عاصف شمل فى اتساعه كل الآراء والاتجاهات السياسية والاقتصادية وكل المشاكل الداخلية والخارجية .. وكان الشقاق بينى وبين الرئيس عظيما

وقال لى الرئيس : كلا . خمس دقائق وأعود اليك .. ابق انت هنا فى هذه الحجرة التى دخلتها الشمس ..

وخرج الرئيس واغلق باب الحجرة وراءه . ولم أقاوم فضولى ونظرت من النافذة فوجدت طائرة هليكوبتر نزل منها اثنان .. هما السيد ممدوح سالم رئيس الوزراء ، والسيد اسماعيل فهمى نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية الذى كان له وقتها نفوذ اكبر بكثير من منصبه .. ووقف السادات يتحدث اليهما حوالى عشر دقائق ثم عادوا الى الهليكوبتر التى انطلقت عائدة وعاد السادات الى الحجرة التى كنت انتظره فيها .

كانت خلاصة الرأى السياسى الذى يتجه اليه فكر السادات ومستشاريه هو : انه لابد من الضرب بشدة وبلا هوادة .

وكانت خلاصة فكرتى التى قضيت الساعات اشرحها وادافع عنها انه شخصيا لم يمسسه من الأزمة شىء مباشر اذا تغاضينا عن المظاهرات والهتافات التى محاها قراره الشخصى بالغاء قرار رفع الاسعار . وانه بالرغم من مأساوية ماحدث . فإن الطريق الأسلم هو ان يتصرف على ان العاصفة قد مرت واصبحت وراءه ، وانه يجب أن يحشد عددا اكبر من الطاقات لوضع سياسة اقتصادية اكثر تماسكا وواقعية واقترابا من مشاعر الناس . ثم يتقدم بهذه السياسة الجديدة الى الشعب ، مهما كان فيها من قرارات ضرورية قاسية وسوف نقف جميعا معه ضد مقومات الانهيار الاقتصادى وسوف يتقبل الشعب هذا الاسلوب إذا رأى فى السياسة

الجديدة ملامح العدل ، ولكنه بالتالي كما نصحته .. لايجوز له ان يظهر على التليفزيون ويخاطب الناس قبل أن يتم كل هذا ، فيكون حديثه منصبا على الحاضر والمستقبل لا على ماحدث وانتهى ، ومن غير ان ينسى لأنه اذا أصر على ان يتحدث الى الناس هذا الاسبوع فإنه لن يتحدث بالطبيعة الا مدافعا عن اجراءات خاطئة ، وإلا مذكرا الناس بوقائع مريرة .. الأمر الذى سيجدد النزاع على الماضى ، ولن ينتج عن ذلك اى خير للوضع السياسى فى البلاد . واضفت الى ذلك بالطبع انّ الدخول فى طريق قرارات القمع (ولم يكن الرئيس السادات قد اشار الى ما فى ذهنه فى هذا المجال من قرارات محددة) .. لن يؤدى إلا الى المزيد من القمع والانقسام السياسى والوطنى ، فى لحظة حرجة من مواجهتنا لاسرائيل .. تريد فيها ان تتعلل بأى علة تفوّت بها علينا قطف اى ثمار لحرب اكتوبر وما تلاها من جهود سياسية .

حول منتصف الليل كان التعب قد بلغ بى وبالرئيس حدا هائلا ، وقد اختلفنا واقعيا حول كل شىء .. حتى انه كان احيانا يقول لى : ساتركك تتمدد وتستريح فى الحجرة نصف ساعة وأعود اليك .

وكان الرئيس السادات قد ادرك بوضوح اننى لن اشارك بكتابة مشروع خطاب فيما تصورت أنهم مقدمون عليه . وسكت طويلا ثم قال لى فى لهجة رقيقة ومجاملة : طيب يا أحمد ، تقدر تروح تستريح واعتبر انك لاصلة لك بهذا الموضوع كله !

وودعنى – لدهشتى – فى مجاملة شديدة ، وان كنت أيضا قد حملتها على محمل الوداع الذى لا لقاء بعده .

قبل مرور اسبوع ، ظهر الرئيس السادات على التليفزيون .. آخذا بالنصيحة الأخرى ، فهاجم «انتفاضة الحرامية» بشدة بالغة واعلن عن القوانين الاستثنائية العجيبة التى أجرى عليها استفتاء ، اعجب وأغرب .

وفى الصباح التالى اتصل بى المهندس سيد مرعى وطلب إلىَّ الذهاب فورا إلى منزله .. وذهبت اليه فقال لى : ما هذا الذى فعلته ؟ ما هذه القوانين التى ما انزل الله بها من سلطان ؟ هل هذا معقول ؟

كان غاضبا ومنزعجا .. وقلت له اننى سمعت الخطاب من التليفزيون مثله .

فقال لى : نحن ياسيدى نعرف انك استُدعيت من الكويت وانك قضيت مع الرئيس يوما كاملا ، وانك لابد صاحب هذا الكلام او مشترك فيه .. وقد كنت انا ومصطفى خليل نتحدث فى ذلك بعد الخطاب مستغربين !

وشرحت للمهندس سيد مرعى بإيجاز اننى قاومت كل هذا الاتجاه بأقصى ما استطيع .

وقال لي سيد مرعي : إذن من تظنه كتب هذه القوانين والاستفتاءات ؟

قلت له : لا اعرف على الاطلاق وانا أشد منك دهشة .. قال لي : الم تسمع انها جاءت من مكتب اسماعيل فهمي ؟

وقلت للمهندس سيد مرعي قطعا لا أرجو أن تصدق ما سأقوله لك . انك إذا رأيت قطعة من الاثاث تستطيع ان تعرف اذا كان من صنعها نجارا او أحد الذين لا صلة لهم بالتجارة .. هذه القوانين لايمكن ان يكون قد كتبها احد دارسي القانون . اللهم الا اذا كان الرئيس قد عثر على ترزى قوانين مستعد لتفصيل اى شيء .

وأخذت أشرح له ما في مشروعات القوانين ومشروع الاستفتاء من مخالفات دستورية لا يقبلها عقل تلميذ في السنة الأولى في كلية الحقوق .

واستمع المهندس سيد مرعي الى ما قلته له من شروح قانونية مذهولا .. واكتفى بأن ضرب كفا بكف ، بعد ان قلت له انني مسافر غدا الى الكويت .. وارجو ألا يطلبني احد بعد ذلك ، فأنا غير متفائل على الإطلاق ..

●●●

المذبحة السياسية
التى لم تتم

إلى آخر يوم رأيت فيه السادات ، كان لايزعجه ويثير أعصابه ذكر أى شىء كذكر مظاهرات الخبز ، التى كان يشعر وكأن شعبيته التى تبدى بها على العالم بعد حرب أكتوبر قد مسحتها هذه المظاهرات وكأنها نوع من سحب الثقة الشعبية به أمام هذا العالم . وفى تقديرى ان هذه المظاهرات قد تركت أكبر الأثر فى حياة السادات ابتداء من انتهاجه سياسة القمع بشدة ، إلى قراره بالذهاب إلى القدس والحصول على أى صلح بأى ثمن ، الى وضعه « ٩٩٪ من أوراق اللعب فى يد امريكا » كما كان يقول بعد ذلك فى عبارته الشهيرة ، واخيرا فى انحيازه فى الداخل كليا ونهائيا ضد الفئات الشعبية ، بل لقد أصبح من يومها يكره مدينة القاهرة ، مدينة الذين كان يصفهم بـ « الافنديات » و « الاراذل » قاصدا بذلك المدينة التى تعج بالمثقفين والطلبة والعمال والموظفين وكل المتحذلقين وطوال الألسنة ! . فصار يقضى حياته متنقلا بين الاستراحات المختلفة خارج القاهرة ، حتى بيته فى الجيزة لم يعد يتردد عليه الا لماما .

وكان قد مر على مظاهرات الخبز بضعة أشهر فيما أظن ، وكنت فى القاهرة فى احدى زياراتى قادما من الكويت ، ورأيت على شاشة التليفزيون اجتماعا يحضره أنور السادات ويشهده ـ لا أذكر ـ إن كان الاتحاد الاشتراكى أو أى جمهور آخر وكان الاجتماع على ما أتذكر فى قاعة الاتحاد الاشتراكى . وتمثل توتر السادات فى الجلسة من اللحظات الأولى ، واشتباكاته مع بعض الأعضاء ، خصوصا مع عضو يسارى ، ربما كان المرحوم قبارى عبدالله نائب قصر النيل ـ إن لم أكن مخطئا ـ أعطاه السادات الكلمة . وقبل ان يفتح العضو فمه ، سأله السادات : قل لى أولا ، وقبل أن تتكلم ، هل كانت مظاهرات الطعام انتفاضة شعبية أو انتفاضة حرامية ؟ ، وأحرج العضو وحاول أن يقول شيئا من نوع أن الأمر يحتاج

الى شرح ، والسادات يقاطعه كل لحظة قائلا له : لا لف ولا دوران ، قل لى أولا هل كانت انتفاضة شعبية ـ كما يقول البعض ـ أم انتفاضة حرامية ؟ .
وطال الموقف على هذا المنوال العجيب ، وانتهى بعدم تمكن العضو من الكلام ! .

وكان السادات كما ذكرت سابقا ، يلقى مسئولية الأحداث على الشيوعيين وهو في الواقع يقصد كل الماركسيين واليساريين والناصريين والأفندية والمتحذلقين والأراذل من غير « سكان القرية » الذين بدأ تغزله بهم يتزايد ، حتى تمنى يوما ـ فى أحد خطاباته ـ أن تصبح القاهرة « قرية كبيرة » ! وقد تحولت بعد ذلك بالفعل ، على هذا النحو الرهيب الذى نراه الآن ! .

وتحدث السادات بعد ذلك فى هذا الاجتماع حديثا طويلا بالغ الخطورة فقد جمع كل خصومه السابقين تحت عنوان خطير هو انهم كفرة وملحدون ويدعون إلى المبادىء الهدامة الى آخر المعزوفة المعروفة . ثم قال ما معناه إن هؤلاء لايجوز أن يكون لهم مكان في المجتمع ، خصوصا فى الأماكن التى تؤثر على الشباب ، مثل الصحافة والاعلام والتدريس فى الجامعات والمدارس إلى آخره ! . وقال إنه يجب أن تصدر القوانين التى تخرج هؤلاء من هذه المواقع ومن غيرها ، وأعلن انه سيرسل خطابا بهذا المعنى إلى ممدوح سالم رئيس الوزراء وخطابا مماثلا الى سيد مرعى رئيس مجلس الشعب ، لتتعاون السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية على إصدار هذه القوانين بسرعة .

ارتعدت فرائصى لما تصورت اننا مقبلون عليه . فهذه هى المكارثية المخيفة التى عرفتها أمريكا فى الخمسينيات ، وهذه هى محاكم التفتيش التى كانت تحكم على من تشاء بالكفر والهرطقة فى القرون الوسطى ، دعك من هذا الرفض الرسمى لكل مايسمى حرية فكر ، أو عقيدة ، أو حتى حرية ضمير ! . ولكننى قلت لنفسى ماكنت أقوله أحيانا لأصدقائى من أن السادات كثيرا مايقوم « بفرقعة » الكرباج دون الاقدام على استعماله استعمالا حقيقيا .

وبعد أيام ، اتصل بى موظف من رئاسة الجمهورية ، وقال لى إن الرئيس فى الاسكندرية ، وأنه أرسل أوراقا لتوصيلها إلىّ إذا كنت فى القاهرة .

وبعد قليل ، جاءنى ظرف مغلق من مكتب السادات ، وفتحته واذ بى أجد فيه مشروع خطاب صادر من السادات الى المهندس سيد مرعى بوصفه رئيسا لمجلس الشعب ، وكان الخطاب مكتوبا على الآلة الكاتبة . على الورق الخاص برئيس الجمهورية ، وعليه تعديلات وتأشيرات وتوجيهات عرفت على الفور انها بخط أنور السادات نفسه ، ولعله عرف بوجودى فى

القاهرة ، فكتب على ورقة مرفقة مامعناه : يحول إلى مشروع الخطاب لابداء الرأى .

وقرأت الخطاب ، وياالهول ما قرأت ! إنه مشروع الخطاب الذى تحدث عنه الرئيس في التليفزيون ! والذى يطلب فيه إصدار قانون بالمعنى السابق . ومع أنى لم اعتد على الاحتفاظ بأى أوراق طيلة حياتى ، إلا أن هذا الخطاب بالذات وجدته فى حوزتى منذ شهور قليلة ، ونصه كالآتى :

السيد المهندس سيد مرعي

رئيس مجلس الشعب

تحية طيبة وبعد

فقد كان في مقدمة الأهداف التى وضعتها نصب عينى منذ شرفنى الشعب بتحميلى المسئولية ، إعادة بناء المجتمع المصرى ، على أسس أهمها تنشئة الفرد في مناخ صحى قويم ، لتكون دعامته الأولى التمسك بالقيم الروحية التى جعلت مجتمعنا العظيم نموذجا فريدا فى التماسك والتضامن الاجتماعي والتكافل ، والتحلى بالاخلاقيات المصرية ، التى أصبحت تشكل حجر الزاوية فى البنيان الاجتماعى عبر القرون ، ولم تزدها السنون إلا رسوخا واستقرارا فى ضمير شعبنا العريق .

وكانت حرب العاشر من رمضان المجيدة قمة شامخة على طريق إعادة بناء الانسان العربي ، فقد كانت حربا تحريرية بكل معنى الكلمة . إذ إن مداها لم يقتصر على تحرير الأرض ، وإنما تعداه إلى جانب أهم من ذلك واخطر ، وهو تحرير الانسان من الخوف ومن المفاهيم الخاطئة والتمزق الذى يعصف به من الداخل .

ومن الطبيعى أن تكون تلك العملية مستمرة متصلة ، لأن التطور الاجتماعي لايقف عند حد ، كما أن التغيير السريع أصبح من السمات البارزة لهذا العصر بحيث أصبح متعينا أن نتحقق دائما من أن عملنا فى هذا الاتجاه قادر على الوفاء بالهدف .

كل هذا يتطلب ـ اول مايتطلب ـ أن تكون عملية تنشئة الفرد قائمة على أسس سليمة ، سواء من حيث الأشخاص القائمون بها الممسكون بخيوط التأثير عليها ، أو من ناحية محتواها ومضمونها ، أى القيم والمبادىء التى تغرس فى النفوس فى شتى مراحل العمر ، لأنها هى التى تشكل رؤية الانسان للكون ولموقعه منه ورسالته فى الحياة .

وقد انعقد إجماع هذه الأمة ـ التى لايمكن أن تجتمع على ضلال ـ على أن العلم والايمان هما الركيزة الأساسية للمجتمع المصرى ، لأنه بغير هذا الايمان الواعي ، القائم على تبين الوجهة التى يأخذها ، أو الهدف الذى يسعى اليه ، ودروس التاريخ وعبره تنبئنا بان الحضارات التى بادت

وطواها النسيان هي تلك التي خلت من القيم الروحية وقنعت بالتطور المادي وحده .

(هنا أضاف السادات في الهامش بخط يده : دولة العلم والايمان وخطورة العلم بلا إيمان مما نراه في حضارة الغرب من حولنا ، وأن الايمان بلا علم تخلف عن منجزات العصر .. إلخ ، والقيم الروحية والقيم المادية) .

ولذلك فقد عني الدستور المصري بالنص في وثيقة اعلانه على أن شعب مصر مؤمن بتراثه الروحي الخالد ، مطمئن الى إيمانه العميق ، معتز بشرف الانسان وانسانيته ، ولم يكن ايراد هذا النص لمجرد تحصيل الحاصل ، وإنما جاء نتيجة طبيعية ومنطقية لحرص الانسان المصري على ترسيخ هذا المفهوم واستقراره في الاذهان .

وإزاء هذا كله ، يكون ضروريا الا تفسح الدولة مجالات التأثير على تنشئة الفرد وتربيته علميا وسياسيا وثقافيا إلا لعناصر تتحلى بتلك الصفات التي تؤمن بأنها العمود الفقري للمجتمع ، وفي مقدمتها الايمان بالله وبالقيم الروحية والاخلاقية المصرية ، والاقتناع الأصيل بأن « صيغة تحالف قوى الشعب العاملة ليست سبيلا للصراع الاجتماعي نحو التطور الاجتماعي » حسبما جاء في وثيقة إعلان الدستور .

كل هذا يجعل من المتعين عليّ وقد عهد اليّ الشعب بمسئولية الحفاظ على مقدساته وتراثه الحضاري ، أن أحمي شعبنا ، وبالذات شبابنا الذي لايزال يمر بمرحلة الانصهار والتكوين ، من تسلط العناصر التي تريد أن تفرض عليه مفاهيم وأساليب غير تلك التي ارتضيناها فيصلا بين الحق والباطل ومعيارا للتمييز بين الصواب والخطأ ، لاننا اذا اعطينا هذه العناصر الفرصة لاستغلال الامكانيات المتاحة امامها للتأثير في النشء على هذا النحو المخرب ، فإننا نكون مقصرين في أداء الأمانة التي عهد بها الشعب الينا ، وهو أمر لا أقبله ، خاصة بعد التجارب المريرة التي مازالت ماثلة في أذهاننا .

(بجوار الفقرة الأخيرة ، كتب السادات في الهامش بخط يده : « إعادة صياغة يذكر فيها اليسار المادي واليمين المتحجر الذي لايتورع عن استغلال الدين ، ويذكر في هذا أحداث ١٨ و ١٩ يناير عن اليسار وجماعة التكفير عن اليمين ») .

لكل هذا ، فقد طلبت إلى رئيس مجلس الوزراء ان تتقدم الحكومة بمشروع قانون ينظره المجلس في إطاره الدستوري السليم ، بحيث ينتهي من نظره في دورة الانعقاد الحالية ، بهدف تنقية مناخ الوظائف المتصلة بالاعلام والثقافة والتعليم ، والتأثير الجماهيري الرسمي وغير الرسمي من العناصر التي تروج لمعتقدات أو مفاهيم تتعارض مع إيماننا بالله وقيمنا

الروحية وتراثنا التاريخي او تثير فتنة الصراع الطبقي أو استغلال الدين أو تحرض على المساس بالوحدة الوطنية ، بحيث لايتولى هذه الوظائف إلا من يدعو ـ عن إيمان ـ الى ترسيخ هذه القيم والمعتقدات والمبادىء التي حفظت لشعبنا شخصيته ومقوماته عبر آلاف السنين ، حتى تستقر في النفوس والاذهان ، ولايبقى هناك مجال لنشر القلق او الشك او التمزق ، أو النيل من الانتصار الكبير الذي حققه ابناؤنا البواسل في تلك الأيام المجيدة من أكتوبر ، يوم ان عبروا بالأمة كلها من الهزيمة الى النصر بالايمان بالله ، فكان اسم الله على السنتهم ، وكان الايمان به يملأ قلوبهم العامرة ، فلا يعقل بعد كل هذا ان نأتمن عناصر تقف من هذا الايمان موقف العداء على عقول ابنائنا وافئدتهم وأخلاقياتهم . وإلا كان معنى هذا اننا نتغاضى عن تخريب الضمير الجماعي للأمة ، وذلك موقف لايمكن ان نأخذه ، وفاء لحق الله والوطن . (وكتب السادات في الهامش هنا : اعادة صياغة تذكر كل هذه المعاني على ان يصدر في التشريع أيضا الضمانات اللازمة لتحقيق هذا الهدف) .

والله الموفق والمستعان .

محمد أنور السادات

وقع هذا الخطاب على نفسي وقوع الصاعقة ! فالأمر إذن جد خطير ، ونحن مقبلون على مواجهة رهيبة ورجعة هائلة الى الوراء في حياة مصر السياسية . إنها فعلا محاكم التفتيش ، ستقام لادانة كل من يعارض السادات في أي شيء وإدانته ، بماذا ؟ بالكفر والإلحاد ! ، سواء كان هذا الكفر « يساريا » أو « يمينيا » ... لقد أصبحت مدركا تماما ان فكرتي الأولى عن السادات قبل ان أعرفه هي الصحيحة . وهي انه في تكوينه الحقيقي وخلفيته منذ مطلع الشباب « فاشستي كامل » ، وان مايدفعه الى الأخذ ببعض صور ليبرالية شكلية هو الحاجة الى التقرب إلى الغرب ، ومن الرئيس الأمريكي كارتر بالذات ، الذي نصحه بذلك لكي يقطع الطريق على خصوم السادات في الصحافة الأمريكية ، ويسهل بذلك مهمة كارتر في الضغط على إسرائيل . فانا الآن مسوق الى مواجهة أخرى عنيفة معه ، ليس إزاء التصرف في موقف سياسي عابر ، ولكن ازاء ماصرت متأكدا من انه اقتناعاته الشخصية العميقة .

وكان من كلمني من رئاسة الجمهورية قد ابلغني ان الرئيس سوف يتصل بي بعد يوم أو يومين تليفونيا من الاسكندرية .

وقضيت يومين « كالدائخ » الذي وقعت على رأسه صخرة هائلة . ماذا افعل ؟ هل اتغافل واسافر قبل ان يتصل بي السادات ؟ ، هل يمكن تجنب مواجهة شخصية أخرى معه ، ستكون عنيفة هذه المرة ، استنتاجا من

العنف الذى رأيته عليه على شاشة التليفزيون ؟

وأخيرا وجدت انه لامفر من مواجهة الموقف بكل صراحة . واذكر انني قلت لنفسى : إن السادات فى حاله الراهنة أشبه باللورى الضخم المتدفع بسرعة هائلة . ولا مجال لوقف هذا اللورى إلا ان أنام بعرض الطريق على الارض ، وبعد ذلك اما ان يتوقف اللورى وينزل السائق ويكون ثمة مجال للتفاهم ، وإما ان يندفع اللورى ويدوس النائم على الأرض . وينتهى الأمر .

وبعد يومين فعلا ، كنت افتح باب البيت وقت الغروب فى طريقى الى الخروج ، حين دق جرس التليفون وقال لى المتكلم ان الرئيس سوف يتصل بى خلال ساعة ، وان علىّ أن انتظر بجوار التليفون حتى يخرج من عنده من ضيوف .

وانتظرت هذه الساعة بجوار التليفون ، احاول أن ارتب افكارى ، واحاول ان اجد الحجج التى قد تكون أكثر اقناعا للسادات من غيرها .

وكان من الأساليب التى اتبعها مع السادات كثيرا لاعطى نفسى حرية أكثر فى الحديث مع رئيس الدولة ، ان أبدأ معارضتى له فى شىء سيصدمه قائلا : من أشار عليك ياريس بهذا الرأى ؟ ثم اندفع مهاجما « الشخص المزعوم » الذى افترضت انه قال له هذا الرأى أو ذاك .

ودق التليفون ، وجاء صوت السادات من الاسكندرية قويا واضحا ، وبعد السؤال عن الصحة ، سألنى اذا ماكنت قد قرأت الاوراق التى ارسلها الىّ ، فقلت له : قرأتها ياريس ، ومن ساعتها وانا كالدائخ ، غير قادر على ان افيق من الذهول ، وسألنى لماذا ؟

إننى لا أذكر كل ماقلته ، فقد اندفعت بلا وعى فى حديث متدفق عنيف يملأ صفحات طويلة لو حاولت ان اتذكره كله . وكان السادات يسمعنى صامتا تماما ، حتى كنت اتخيل احيانا ان الخط قد انقطع ، فأسأل : سامعنى ياريس ؟ فيرد فى اقتضاب : ايوه ، معاك ياأحمد .

من الذى أشار عليك ياريس بهذه الحكاية ؟ لقد سمعتك تشير اليها فى التليفزيون ، ولكننى حملتها على محمل التهديد والتخويف فقط ! ان الاسلام منذ الف وأربعمائة سنة ــ حسب معلوماتى ــ لم تحكم فيه اى سلطة مدنية أو قضائية على إنسان واحد بأنه كافر وملحد إلا فى حالات نادرة وفى مراحل شديدة الظلام ! ويجب ان تصدقنى أنه مهما حدث فلن يصدر قانون بهذا المعنى . واذا صدر قانون يعطى محكمة أو لجنة حق الحكم بأن فلاناً ماحد وغير مسلم ، فلن يوجد شخص واحد ينطق بهذا الحكم !

ثم لو افترضنا مثلا ان هناك كاتبا كتب ونشر عشرة مؤلفات يقول فيها

إنه ملحد ، فإنه سوف يجيء الى المحكمة أو لجنة التطهير ، حاملا فى جيبه مصحفا صغيرا ، اذا اخرجه من جيبه وقال لمن يحاكمونه : نعم ، كنت ملحدا ، ولكنى الآن امنت ، ووضع يده على المصحف وقال : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله » فإنه لم يوجد ـ منذ أول الاسلام ولن يوجد حتى آخر الدهر ـ من يستطيع أن يقول لهذا الرجل : نحن لانصدقك ، ونحكم بأنك كافر ! . ان الذين اشاروا عليك بهذه القوانين ليست لديهم اية فكرة عن الاسلام ولا روحه ولا تعاليمه ولا سوابقه !

وبصراحة ، اسمح لى أن اقول لك إننى أعتقد أن من أشاروا عليك بذلك « خواجات » لايعرفون ديننا ويخرجونك أنت شخصيا عن الاسلام بجهل هائل منهم ! إن هذه قوانين « سالا زار » ومن اليهم ، لأن الكاثوليكية عرفت هذه الاشياء التى لم يعرفها الاسلام قط . ثم إننى لا أعرف رد الفعل الرهيب الذى سيكون لحركة التطهير التى ستشمل الآلاف بهذا الشكل .

ومن المثقفين والصحفيين واساتذة الجامعات بالذات ! لا أعرف رد فعل هذا فى الصحف الأمريكية بالذات ، يكفى أن يذكر كاتب صهيونى كلمة « المكارثية » حتى تفقد تماما الصورة التى كسبتها امام الرأى العام الأمريكى . وجيمى كارتر بصفة خاصة ، يحاول ان يجعل رأس ماله استخدام ورقة « حقوق الانسان » وانت بهذا سوف تحرجه تماما وسوف تجعله غير قادر على الدفاع عنك بأى طريقة ! . ان هذا الخطاب يجب ألا يصل إلى مجلس الشعب ولا إلى مجلس الوزراء ، بل ويجب الا يتسرب إلى يد مخلوق !

. اندفعت بحماسة وعنف فى كلام كثير حول هذه المعانى ، حتى شعرت بالاجهاد الشديد وبانتهاء طاقتى على مواصلة الكلام . ولم اسمع ردا ولا تعقيبا للحظات قصيرة . فقلت : أنا آسف ياريس ، أنا اشعر اننى كنت مندفعا ولا أذكر كل ماقلت . واشعر اننى استعملت عبارات غير لائقة . ولكن أؤكد لك ان هذا هو اجتهادى الصميم .

وفوجئت بالرئيس السادات يرد على قائلا بعد صمت غير طويل : بالعكس يااحمد ، أنا متشكر على الكلام اللى قلته لى ، وانت ماغلطتش فى حقى . امال انا بأبعت لك الحاجات دى ليه ؟ . أنا متشكر تانى يااحمد . وانسى الموضوع تماما وانا ح انساه ، واعتبر الورق اللى عندك كأنه ماجالكش .

وشعرت ان موجة سوداء قد انقشعت ، واننى استطيع ان اتنفس .

ومن اللافت للنظر ان السادات اضاف بخط يده « جماعات التكفير والهجرة » الى الاخرين ليبدو متوازنا .

ولو صدر هذا القانون وطبق ، فانه ماكان لكى يصبح مجرد « تطهير »

عادى بل هو PURGE بالمعنى الهتلرى ، يزيح من فوق مسرح الحياة المصرية العامة ، وإلى الابد ، شريحة باكملها من المجتمع المصرى بعشرات الالاف .. الأمر الذى كان سيعد أخطر ما أقدم عليه السادات .

وقد تعمدت أن اضغط بشدة على رد فعل مثل هذا القانون فى الصحافة الأمريكية ، التى كانت تهم السادات فى الدرجة الأولى ، وبالنسبة لموقف كارتر شخصيا ، الذى كان ينصح السادات دائما بضرورة الاحتفاظ بدرجة من الليبرالية فى مصر . وقد شعرت أن تذكيره بحكاية « المكارثية » ووقعها فى أمريكا قد أزعجه بصفة خاصة .

وكانت فى مصر وقتها صحفية أمريكية صديقة للسادات وأسرته ، وكانت ذاهبة لعمل حديث صحفى معه ، وحرضتها على أن تسأله عن تصريحاته فى التليفزيون ، وعما إذا كانت نوعا من المكارثية إذ لم أكن واثقا من أن السادات قد عدل حقا عن مشروعه ، و... و... وعادت الصحفية الأمريكية الصديقة وأسمعتنى « شريط التسجيل » للحديث ، لاسمع ثورة السادات الهائلة عليها عندما سألته هذا السؤال ، وبعد ذلك أصدر السادات أمرا بألا يرى ولاترى زوجته هذه الصحفية « صديقة الأسرة » نهائيا .

اننى اعتقد ، دون مبالغة ، اننى حلت بين السادات وبين ارتكاب غلطة قاتلة وإن كان قد عاد الى بعضها حين أصدر قوانين « العيب » وما اليها ..

وحقيقة ، لست أدرى من كان يشير عليه احيانا بهذه « المهالك »

ان هذه المرافعة تذكرنى بواقعة سابقة ، وقعت قبلها بسنوات .

فقد استدعانى مرة الى الاسكندرية ، وقال لى : انه قرر التصديق على الحكم الذى أصدرته المحكمة ، بالاعدام على المتهمين فى قضية « الفنية العسكرية » ، اى « صالح سرية وجماعته » الذين حاولوا الاستيلاء بالقوة على الكلية تمهيدا لمحاولة انقلاب ساذجة ، سقط فيها ١٧ قتيلا ..

ثم قال لى انه يريد أن يقوم بعمل جديد ! انه يريد ان يظهر على شاشة التليفزيون ويلقى خطابا يشرح فيه للناس لماذا قرر التصديق على حكم الاعدام ..

ويومها أيضا قلت له فزعا : من اشار عليك ياريس بذلك ؟ هذه مشورة سيئة النية إلى آخر الحدود !

وكان منطقى كما قلته له : لقد تمت المحاكمة .. واصدرت المحكمة الحكم بالاعدام ، واحيلت الأوراق الى المفتى الذى صدق على الحكم ، وانت قررت أن تمارس اختصاصك وتصدق بدورك عليه . فلماذا تريد أن تخرج على الناس وتلقى خطابا تشرح فيه « حيثياتك » لتنفيذ الاعدام ؟! اننى ياريس لست مستعدا لأن اكتب حرفا واحدا من هذا الخطاب !! وانصح بكل شدة ألا تفعل ذلك ! إن مثل هذا التصرف من شأنه أن يجعل

بيتك - شخصيا - وبينهم « دما »! وكأنك صاحب قرار الاعدام فى البداية ، وقبل أى محاكمة ! من ينصحك نصائح تحفر بيتك وبين فئات من الناس حفرة واسعة ؟! متى كان الحاكم يقف ويدافع عن قرار أليم حزين ، مهما كانت الظروف .. يكفى ان تمارس اختصاصك وكفى .

وكان منطقه : ان الناس تنسى ! لقد نسى الناس ان مافعله هؤلاء أدى إلى قتل سبعة عشر شابا بريئا !

وقلت له ان الصحف ستنشر نبأ الاعدام ، وتنشر بالضرورة أصل الحكاية وعدد ضحايا المحاولة وأجزاء من منطوق حكم المحكمة التى تشير إلى ذلك .. وهذا كاف ! أما أن تظهر بشخصك على الشاشة لتشرح أسبابك لتوقيع عقوبة الاعدام فإنك بذلك تعطى الأمر طابعا « شخصيا » ، وأن لديك سببا فوق أسباب القانون ، ودورا فوق دور النيابة والقضاء والمفتى ..

ويومها أيضا .. شعر السادات وكأنه كان سيقدم على غلطة ضخمة .. فعدل عن قراره الذى أحضرنى من القاهرة إلى الاسكندرية بسببه ، وشكرنى على هذا الرأى .

كالعادة ، اتصل بى السفير المصرى فى الكويت ، وأخطرنى بأن الرئيس السادات يطلبنى فى القاهرة .

وبعد ايام كنت لديه ذات صباح فى استراحة المعمورة ، وقال لى : ان ٢٣ يوليو هذه السنة (١٩٧٧) سيصادف مرور ربع قرن على ثورة ١٩٥٢ . وقال أيضا إنها ستكون بهذه المناسبة آخر مرة نحتفل فيها بذكرى الثورة على نطاق واسع ، ولذلك طلبت إليك الحضور لكى تكتب خطابا خاصا بهذه المناسبة التى لن تتكرر بعد ذلك .

قلت له : فى هذه الحالة فاننى اعتقد ان خطاب ٢٣ يوليو لايجوز أن يكون تكرارا للخطاب السنوى التقليدى الذى ينصب أساسا على استعراض أحداث الثورة واسترجاعا لها . فهل ياترى هناك فى الجو السياسى شيء جديد نبرزه فى هذه المناسبة ؟

كان قد مر على حرب ٧٣ سنوات بلا نتيجة من النتائج المتوقعة ، وقد حدثت حوادث ١٨ ، ١٩ يناير بآثارها القاتمة التى بددت أسطورة الرخاء الذى سيهبط بعد الحرب بسرعة ، وانقضت الجوارح تنهش خيرات الانفتاح ..

- قال : لاتوجد اخبار هامة لافتة للنظر وأقترح ان تقضى الليلة هنا (أى فى الاسكندرية) فى فندق فلسطين ربما يخطر لك بين اليوم والغد فكرة ما .

قلت له : سيكون هناك بالتأكيد جزء عن تاريخ الثورة وأرى ان يكون

هناك تركيز على فكرة الانتقال من « الشرعية الثورية » الى « الشرعية الدستورية » ، وكنت أنا الذى شرح له قبل سنوات أهمية هذه الفكرة ، ووضعت هذه الصيغة فى خطاباته رداً على الذين يتجادلون عبثاً فى حكاية « الثورة » أو « الانقلاب » والذين يتجاهلون أن « الثورة » حدث استثنائى ولكنه يحدث فى حياة أى شعب من الشعوب ، حين يستحيل التقدم بغير ذلك ـ وإن الانتقال إلى حياة دستورية تعددية ليس حكماً ضد الثورة ، ولكنه استئناف للحياة الطبيعية بعد مرحلة استثنائية كان لابد منها ، وأن للثورات « شرعية » وقوانين داخلية » ...

ثم قلت له : ولكن حبذا لو فكرنا فى شيء آخر يكون جديداً ويكون مناسباً لانقضاء ربع قرن على الثورة والانتقال الى مرحلة جديدة . وحبذا لو كان هذا الشيء الجديد متصلاً بالمستقبل حيث أننا ننتقل الى مرحلة جديدة .

واخذت أسأله وأحاول إثارة مخيلته عن أى تصورات للمرحلة الجديدة . وكان يقول مامعناه إن المرحلة الجديدة قد بدأت بالفعل بالبرلمان والاحزاب .

وخطرت لى فكرة ، وتوقعت ألا تلقى لديه قبولا . ولكنى قلت له : ما رأى سيادتك لو أعلنت بمناسبة مرور ربع قرن وبدء الانتقال تدريجيا إلى الشرعية الدستورية « عفوا شاملا » ؟! ونظر إلىّ فى دهشة من بوغت بشيء غير متوقع ، ثم سألنى : ماذا تقصد بحكاية « العفو الشامل » ؟

قلت له : اى ان تقول للناس جميعا على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم « اذهبوا فانتم الطلقاء » !

ـ يعنى ايه ؟

ـ يعنى ياريس احداث الثورات فى كل زمان ومكان تمتلىء بالمعارك والصراعات والاجتهادات ، وتقع فيها مصادمات عنيفة من وحى اجتهاد اللحظة وعدم وضوح الرؤية فى الغبار الكثيف الذى يقترن بأى ثورة من هدم وبناء ، ويدخل الناس السجون ويخرجون منها ، وتتهاوى المقاعد ، وتتبدل الأدوار ، وتسقط ابنية اجتماعية بأكملها ويقوم غيرها ، الى آخره . والساحة المصرية حالياً ـ كأى ساحة بعد اى ثورة ـ مليئة بالضحايا والجراح وتاريخ الصدامات والتقلبات التى كان لامفر منها . ومرور ربع قرن فرصة مناسبة ، لأن نمحو اثر هذا كله ، ونعلن اننا جميعا ـ أصبنا أو اخطأنا ـ يجب ان نبدأ من جديد ، ومن النقطة التى وصلنا اليها ، وفى مواجهة الموقف العصيب الذى نحن فيه ، فحرب ١٩٧٣ مضت عليها أربع سنوات ولم تتحرك إسرائيل خطوة واحدة الى الوراء منذ فك الاشتباك ، ومظاهرات يناير لبدت الجو بالغيوم ، وأرضنا مازالت محتلة و « العفو الشامل » هنا معناه إنهاء كل اثر لأى قرار عزل او سجن ، او أى عمل آخر

وقع في الساحة السياسية من يوليو ١٩٥٢ إلى يوليو ١٩٧٧ .

وشعرت ان السادات يستمع اليّ مليا وفي اهتمام شديد . ومضيت ادافع عن هذه الفكرة بحرارة . فالثورة قد انجزت أهم انجازاتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية . واحسن تصرف بعد ان اعلنا الانتقال من « الشرعية الثورية » الى « الشرعية الدستورية » ان نعطى المصريين جميعا فرصة البدء من جديد على قدم المساواة . كلنا اجتهدنا واصبنا واخطانا بحكم تكويناتنا وخلفياتنا ومواقعنا ، وانطوت ملحمة الصراع ، وجيوش اسرائيل مازالت تحتل سيناء .

وقال لى السادات . إن الفكرة تستحق البحث . ولكنها « حكاية كبيرة » وبعد أن كان المفروض أن اتركه قبل الظهر ، قال لى : ستأتى معي الى « استراحة المنتزه » لنستأنف الحديث ونتغدى معي هناك .

ولم اكن قد سمعت عن « استراحة المنتزه » هذه ، وخرجنا لاجدهم وقد جاءوا للسادات بسيارة « نصر » طراز جديد صغير ، ركبها جالسا امام عجلة القيادة ، وجلست بجواره ، وانطلق بالسيارة عابرا منطقة المعمورة ثم من الباب الجانبى الى حديقة قصر المنتزه حتى وقف وسيارات الحرس وراءنا على صخرة مرتفعة عن مستوى الأرض ومطلة على البحر مباشرة ، ونزلنا من السيارة وليس حولنا شيء .

حتى اتجه إلى فتحة فى الأرض نزلنا منها على سلم الى حيث وجدت مكانا غاية فى الجمال : بحيرة طبيعية محفورة في الصخر في حجم حمام سباحة متوسط ، وحولها ثلاثة مبان أو أجنحة منفصلة ، جلسنا فى أحدها وكانت سيدات العائلة يجلسن في مبنى آخر . كل هذا محفور تحت إحدى صخور شاطيء المنتزة .

وطلب السادات القهوة والشاى ، وعاد ينفث الدخان فى غليونه من جديد ، وطلب إليّ أن أعيد شرح الفكرة عليه . كان واضحا ان الفكرة قد اعجبته ، وبدأ يديرها فى ذهنه ، ربما لانها تعطيه فرصة موقف تاريخى من المواقف التى كان مغرما بها ، وفاجأنى بأول سؤال عن فكرة « العفو الشامل » من ناحية تطبيقه العملى ، فقد كان أول سؤال فاجأنى به هو :

ــ معنى كده ان على صبرى يطلع من السجن ؟!

كنت أتوقع أن يثير فى وجهى قضية المعتقلين على ذمة قضية مظاهرات الطعام التى كان يثيره ذكرها . وفوجئت تماما بهذا الاستفسار الأول .

وقلت له : طبعا ! وفيها إيه ياريس ؟ لاتؤاخذنى إذا رجعنا الى موضوع قديم ، فحكاية ١٥ مايو دون تفاصيل لا خيانة عظمى ولا حاجة . كانت صراعا سياسيا وقد كسبته أنت .

والذين حاكمتهم الثورة ، من الضباط بتهمة محاولة الانقلاب ، ــ وكانت

محاولات حقيقية - كثيرون ، وقد اعفى عنهم وهم اما طلقاء واما يشغلون مناصب هامة ! ثم انني كنت أتناول طعام العشاء فى القاهرة أول امس مع بعض الاصدقاء في مطعم « اليوتيون » في شارع ٢٦ يوليو في قلب القاهرة . واذ بي اجد على المائدة المجاورة شعراوى جمعة وعبدالمحسن أبوالنور ، اللذين سجنا في القضية نفسها وأطلق سراحهما ، يتناولان العشاء . وقد تصافحنا وتعانقنا ولم يلتفت إلينا احد ! .

وسكت السادات قليلا يتفكر ، ثم قال : وبتوع التكفير والهجرة اللى قتلوا الشيخ الذهبي ؟

قلت له : هذه مسألة في يد القضاء . وأظن أن من تثبت عليه تهمة ارتكاب القتل لاينطبق عليه عادة العفو السياسى الشامل .

وعاد الى تفكره من جديد . ثم سألنى مرة أخرى :

- والعيال بتوع ١٨ و١٩ يناير ؟ اللى كل ماتمسكهم تقولوا لنا أطلقوا سراحهم ، حتى اصبحوا يتصورون اننا نطلق سراحهم عن ضعف ؟

وقلت للرئيس السادات : بصراحة ، انا لم أتوقع أن تسألنى الا عن هؤلاء ! وسيادتك تعرف رأيى . انهم جميعا سيحصلون على احكام بالبراءة من القضاء . وانت حين تسبق ذلك وتطلق سراحهم ضمن « العفو الشامل » ستكون صاحب فضل ، ثم ان المناسبة هى مناسبة مرور ربع قرن على الثورة ، وضمن عفو يشمل كل الفئات والاتجاهات والقضايا القديمة والجديدة . فليس في ذلك اى مظهر ضعف .

وبعد تفكير عميق من جانبه ، قال لي : ما رأيك لو جعلنا العفو يشمل الفترة بين قرار اعلان سقوط دستور ١٩٢٣ وإعلان قيام الدستور الدائم الحالى ؟

كان واضحا ان السادات موافق من حيث المبدأ على فكرة العفو الشامل ، ولكنه يحاول الا يجعلها شاملة لكل الفترة بين ١٩٥٢ و١٩٧٧ ، ويحاول ان يجد تاريخين آخرين بحيث يُخرج اشخاصا بعينهم أو فئات بعينها من دائرة الذين يشملهم العفو الشامل .

وقلت له إن أهم عنصر في « العفو الشامل » هو أن يشمل فترة تاريخية كاملة ، وأن يحمل في شموله معنى فتح صفحة جديدة حقا بالنسبة لكل الفئات . وفى تقديرى ان هذا العفو الشامل اذا اقترن بأى تحديدات تؤدى الى استثناء فئات أو اشخاص ما ، فسوف يفسد وقع هذا العفو الشامل لدى الرأى العام ، ولن يحمل معنى نهاية حقبة تاريخية من الزمن ، وبدء حقبة جديدة حقا . وقلت له فيما اذكر : بعد كل ثورة تأتى مرحلة تحدث فيها « مصالحة وطنية » حقة بالمعنى الوطنى والقومى مع بقاء التيارات والاختلافات فى الاتجاهات بالطبع . أى أن تعود المشاركة السياسية حقا

للجميع ، وفي تقديري أن هذا وقت مناسب لان تبدأ فيه هذه المصالحة الوطنية بشكل حقيقي .

ومع الغروب ، كان واضحا لي أن الرئيس السادات قد انشرح صدره للاقتراح بالفعل ، بل وصار متحمسا له ، إذ كرر لي شكره على الاقتراح قائلا : « إن مشوارك من الكويت برضه جه بفايدة » .

وعدت إلى القاهرة ، وأرسلت الخطاب كاملا ومكتوبا على الآلة الكاتبة ، وفي ختام الخطاب بضع فقرات أذكر أنها تحدثت عن انه « اليوم قد دارت دورة كاملة من دورات الزمن » وكلام حول هذا المعنى ينتهي بالسطور القليلة الحاسمة التي تعلن عن قرار العفو الشامل .

بعد عودتي إلى القاهرة بيوم أو يومين ، اتصل بي المهندس سيد مرعي ، وذهبت إليه في بيته في الزمالك . وكانت العلاقة بين السادات وسيد مرعي رغم المصاهرة بينهما تمر بفترات من الاقتراب الشديد وبفترات من التباعد والبرود . وكان سيد مرعي في مثل هذه الفترات يكون في قلب السلطة ، دون أن يكون على معرفة بما يجري ، تتناسب مع وضعه .

وقال لي سيد مرعي انه يعرف ان الرئيس طلبني من الكويت وانني كنت لديه بالاسكندرية لاعداد خطاب ٢٣ يوليو المقبل . وسألني هل هناك أخبار هامة في هذا الخطاب ؟ . وقلت له : ابدا ، باستثناء انه سيكون اخر خطاب عن ٢٣ يوليو بمناسبة مرور ربع قرن على الثورة .

ولم يصدق المهندس سيد مرعي قولي فيما يبدو ، إذ راح يضغط بالاسئلة على ماسوف يكون في الخطاب من أخبار جديدة ، وان المناسبة تستدعي من باب أولى أن تكون هناك أخبار جديدة هامة . ولم أكن أريد أن أذكر أي شيء عن موضوع العفو الشامل الذي سيعلن في الخطاب ، لا لسبب معين ، إلا السلوك الطبيعي ، وهو انه ليس من حقي ان اذيع أي شيء عن أي خطاب قبل ان يلقيه صاحبه . ولكنني ، تحت احراج لباقة سيد مرعي ، وجدت نفسي اقول بشكل غير محدد : اظن ان الرئيس يفكر في نوع من العفو الشامل .

وفوجئت بالمهندس سيد مرعي الذي يتميز بهدوء اعصابه وحنكته وابتسامته الدائمة ، فوجئت به يتجهم وجهه ويسألني بانفعال شديد لم أعرفه في المهندس سيد مرعي لا من قبل ولامن بعد « يعني ايه عفو شامل » وطلب الاتصال بممدوح سالم . ولاشك انه انتبه الى انه من الاصوب ان لايتحدث مع ممدوح سالم في حضوري . فانصرفت .

وفي يوم القاء السادات الخطاب ٢٣ يوليو جلست امام التليفزيون استمع الى الخطاب . واخذ السادات يلقي الخطاب بحذافيره ، حتى وصل الى الجزء الأخير والقى « مقدمة الختام ايضا بحذافيرها « لقد تمت اليوم دورة كاملة من دورات الزمن .. الخ » ثم انهى خطابه دون ان يقرأ الاسطر

الثلاثة الأخيرة ، التي تعلن عن العفو الشامل !! وهكذا ضاعت في تقديري فرصة مواتية ، لتبديد الغيوم الثقيلة من التوتر التي تظلل البلاد ، منذ حوادث ١٨ / ١٩ يناير كما قلت للسادات في الاسكندرية وانا اقنعه بقضية اعلان العفو الشامل والمصالحة الوطنية الحقيقية !

وتذكرني حكاية (آخر احتفال بـ ٢٣ يوليو) بواقعة حدثت قبل ذلك في السنة نفسها . فقد علمت ان تعليمات سرية ارسلت الى سفرائنا والى ملحقينا العسكريين في الخارج تقول انه تقرر تغيير عيد مصر القومي الى ٦ أكتوبر والغاء ٢٣ يوليو . وانه تمهيدا لذلك على السفراء هذه السنة ان يُقيموا احتفالا صغيرا (كوكتيل محدود بالنهار كما حدث فعلا في بعض السفارات) وان يقيم الملحق العسكري الاحتفال الكبير يوم ٦ أكتوبر . كما علمت ان هذه التعليمات اثارت غضب بعض السفراء ، الذين صمموا على اقامة احتفال ٢٣ يوليو بالحجم المعتاد ، وأنها في بعض العواصم أثارت مشاكل وخلافات بين السفراء والملحقين العسكريين . ومر يوم ٢٣ يوليو في حالة ارتباك شديد وقد تصرفت كل سفارة بالشكل الذي املاه عليها اجتهادها الخاص .

وذهبت الى المرحوم المشير احمد اسماعيل القائد العام للقوات المسلحة في ذلك الوقت وكانت علاقتي به حميمة وتتسم بالصراحة الكاملة ، وسألته عن هذا الموضوع . وقال لي المرحوم المشير أحمد اسماعيل بصراحته ورجولته المعتادة ، نعم هذا صحيح . وقد حدث بعد ان ارسلت التعليمات دون أن أعرف وجاءتني استفسارات من الملحقين العسكريين . ذهبت بعدها الى الرئيس السادات ، وقلت له انني اعتقد ان ٢٣ يوليو هو عيد مصر القومي والدول لاتغير عيدها القومي كل بضع سنوات . وان يوم ٦ أكتوبر قد سبق واتفقنا على ان يكون هو يوم الجيش المصري ، واحتفلنا به بضع سنوات على هذا الأساس . وكل جيش في العالم له عيد قومي وهذا أفضل تاريخ يجب أن يبقى عيدا قوميا للجيش المصري .

وقال لي المشير أحمد اسماعيل : ان الرئيس السادات وافقه على ذلك ، وأمر بالغاء التعليمات السابقة وان ما حدث لن يتكرر مرة اخرى .

●●●

بين رحلة القدس ومباحثات الاسماعيلية

هذه المرة كنت أنا الذى بادرت الى ركوب الطائرة والذهاب من الكويت الى القاهرة بأمل أن اقابل الرئيس السادات ، ولم أكن أدرى انها ستكون آخر مقابلة لى معه .

كان الرئيس السادات قد فاجأ العالم برحلته الى القدس . وكنا لم نفق بعد من هول الصدمة عندما جلسنا فى بيتى فى الكويت كمئات الملايين فى العالم . حول شاشة التليفزيون نرى بالاقمار الصناعية المشهد الذى لا ينسى لأول طائرة مصرية تهبط فى مطار بن جوريون فى إسرائيل وينزل منها رئيس جمهورية مصر ويستعرض حرس الشرف حاملا الاعلام الاسرائيلية ثم يأخذ فى مصافحة كل الوجوه الاسرائيلية المعروفة لنا : مناحم بيجين وجولدا مائير ، وابا ايبان وموشى ديان ، الى آخره !!

كان المشهد كأنه غير حقيقى ! وشعرت أن هذا الحدث غير العادى بكل المعايير لابد أن له خلفيات عميقة وله نتائج بعيدة ، لا يكفى فيها الاعتماد على مصادر الانباء العادية ، خصوصا أن فى امكانى أن اقابل بطل الحدث التاريخى شخصيا وهو الرئيس انور السادات ..

قد ذكرت فى مقدمة هذا الكتاب اننى لن انسب الى الرئيس السادات الا ماسمعته منه شخصيا . واننى سأوضح للقارىء الفارق بين ما عرفته منه شخصيا وبين ما عرفته من مصادر أخرى ، انصافا للرجل وللتاريخ ، حتى يزن المحللون والقراء الأمور بموازينها المختلفة .

لقد سمعت ـ وأظن أن ماسمعته يحمل فى رأيى صفة اليقين ـ أن الرئيس السادات قبل هذه الزيارة بسنوات دخل عليه السيد حسن التهامى ذات يوم وقال له : ياسيادة الرئيس لقد رأيت لك حلما غريبا ! رأيتك فى المنام تصلى فى المسجد الاقصى بالقدس ! ونحن جميعا حولك وأنا بالذات بجوارك ! والمسجد كله مليء بالمشايخ الذين يلبسون العمائم !

وللسيد حسن التهامي شخصية غريبة .. كان من أول زملاء عبد الناصر في حركة الضباط الأحرار .. وكان مشهورا باستقامته الشديدة وأمانته المطلقة وحدة شخصيته وتدينه . وهو الرجل الذى ذهب الى رجل المخابرات الأمريكية في المعادي بعد الثورة ليتسلم "الهدية" التى أرسلها الرئيس الأمريكي فى ذلك الوقت ايزنهاور ، بعد نجاح إبرام اتفاقية الجلاء مع الانجليز في صورة ثلاثين مليون دولار باسم الرئيس محمد نجيب ، بحجة أن الرئيس الجديد لكل دولة نامية يحتاج الى مصروفات سرية خارج الميزانية الرسمية يستخدمها فى تدعيم وتأمين نظامه .

ورأى جمال عبد الناصر في ذلك شبهة أن امريكا تظن أن ضباط الثورة في مصر من نوع جنرالات الانقلابات العسكرية فى أمريكا اللاتينية .. ففكر أولا فى رفض الهدية باسم مجلس قيادة الثورة .. ثم قرر تسلم الهدية واستخدامها في اقامة شيء ظاهر للعيان ، يعلم أمريكا الدرس ، وكان اختيار حسن التهامي لتسلم هذه الكمية من المال .. واشتهر أنه تشاجر مع الأمريكي في بيته في المعادي لأنه بعد عد الاموال وجد أن الثلاثين مليون دولار ناقصة خمسة عشر دولارا .

وكلف بعد ذلك بتنفيذ اقتراح بناء برج القاهرة بهذا المبلغ .وقد سمعت هذه القصة منه في المرة الوحيدة التى قابلته فيها في فيينا حيث كان أول مندوب لمصر في اللجنة الدولية للطاقة الذرية !! وكان ذلك بعد هذا الحادث بسنوات طويلة .. وكان إرساله الى فيينا نوعا من الإبعاد له فى منفى مريح .

اشتهر عن حسن التهامي أن تدينه انقلب الى "دروشة" شديدة وانه أصبح يعتقد أنه رجل "مكشوف عنه الحجاب" وكان يحدث أن يكون جالسا بين أصدقائه ثم ينهض فجأة ويقول بصوت مرتفع "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته" . أما السبب فهو أن .. « سيدنا الخضر » .. قد مر أمام الجالسين وألقى السلام .. ولكن لا يراه ويرد عليه السلام الا من كشف عنه الحجاب . وكنت أسمع من أهلنا كبار السن أن هذه عادة قديمة جدا فى الريف المصرى يشتهر بها من يعتبرهم أهل القرية من أولياء الله الصالحين المكشوف عنهم الحجاب .

وكان غريبا أن عبد الناصر بعد هذا الابعاد الطويل والقطيعة الكاملة اعاد حسن التهامي من منفاه في فيينا الى منصب مشرف عام أو مدير عام للقصر الجمهوري بعد هزيمة ١٩٦٧ . وقيل وقتها إنه استقدمه ليستخدمه في حركة تطهير عنيفة وقاسية فى كل أجهزة الرئاسة(١) .. ومات عبد الناصر وورث أنور السادات أجهزة الرئاسة وعلى رأسها حسن التهامي ، فقربه اليه بشكل ملحوظ .

المهم أن أنور السادات ضحك طويلا عندما سمع حسن التهامى يروى له ما رآه فى المنام . ولكن على أية حال ربما كانت تلك أول قطرة ماء غير محسوبة وغير جادة فى موج الاحداث الغامضة حتى الآن التى أدت الى رحلة الرئيس السادات الى القدس .

ولعل الكثيرين من أصدقاء الرئيس السادات لاحظوا بعد ذلك - دون معرفة السبب - أن السادات نفسه بدأ يلازم حسن التهامى ويقربه أكثر من المعتاد . وأنه بدأ يقول عنه للناس بشكل جدى « إنه فيه شىء لله ومكشوف عنه الحجاب » . ولم نكن نعرف أن الاتصالات المصرية - الاسرائيلية المباشرة قد بدأت فى المملكة المغربية سرا .. وأن اسرائيل كانت ترسل "موشى ديان" وزير دفاعها وقائدها العسكرى الشهير ممثلا لها فى هذه المباحثات السرية البالغة الدقة والخطورة ، وأن السادات لم يرسل فى مقابل "موشى ديان" إلا حسن التهامى !! ومن يدرى فربما كان هذا الاختيار الغريب راجعا إلى ذلك الحلم الغريب الذى لاشك أن أنور السادات كان أول من دهش لتحققه .

ولكن هذا الحلم لم يكن بالطبع أول الخيط .. ومازالت حقيقة الخطوات التى أدت الى زيارة القدس وحقيقة اللحظة التى ولدت فيها هذه الفكرة فى ذهن السادات بشكل جدى ، مازالت مجهولة رغم كثرة مانشر عن ذلك .. ورغم كثرة ماقاله وكتبه السادات نفسه عن ذلك ، وأشهر ما رواه أن الفكرة خطرت له وهو فى الطائرة عائدا من بوخارست بعد لقاء مع شاوشيسكو الذى كان قد سبق له اللقاء مع مناحم بيجين .

ولعل الشخص الوحيد فى العالم الذى يمكن أن يعرف حقيقة مولد الفكرة لأول مرة بشكل جدى هو السيدة جيهان السادات ، التى ربما تستطيع اذا أرادت أن تجلى تلك النقطة التاريخية الغامضة .

وقد سمعت من مصدر هام أن أول من ألقى بالفكرة أمام الرئيس السادات هو هنرى كيسنجر . وكان كيسنجر قد ترك مناصبه الرسمية مع بدء ادارة الرئيس جيمى كارتر ، ولكن الرئيس السادات ظل على اتصال وتشاور معه طوال الوقت .

أما ماسمعته من الرئيس السادات شخصيا فى ذلك اللقاء الذى أنا بصدد روايته هنا فهو أقل من ذلك : فقد قال لى السادات - وهو يستعرض الجمود الذى خيم على الموقف بعد فك الاشتباك الثانى وماعمد إليه مناحم بيجين رغبة فى تجميد الموقف عند هذا الحد أى بالبقاء على مرمى مدفع من قناة السويس ، وعجز الادارة الأمريكية عن ممارسة أى ضغط جدى - إنه كان يتحدث مرة عبر التليفون مع هنرى كيسنجر حول هذا الموقف ، ومايمكن عمله .. وانه لا يستطيع أن يترك آثار حرب ١٩٧٣ تضيع هباء ..

وان هنري كيسنجر قال له : أمريكا عاجزة ياسيادة الرئيس ! . وليس لديك إلا أن تجد وسيلة لاستخدام قوة ضغط الرأى العام العالمى والأمريكى بالذات بل والإسرائيلي المستعد للسلام ، وتركيز هذا الضغط على بيجين في مقره في القدس ! .

هل توحى هذه العبارة بأن كيسنجر كان فعلا هو أول من اقترح فكرة الذهاب الى القدس بشكل او بآخر ؟. وأن الرئيس السادات لم يشأ أن يقول لي ذلك ؟ أم أنها لا تحمل هذا المعنى ولكنها فقط فتحت طريقا جديدا للتفكير في ذهن السادات ؟ لا استطيع أن أجزم بشيء ، ولكننى اضع الأسئلة أمام القارىء والباحث على السواء .

المهم أن الاتصالات السرية كانت غير مبشرة . وأن اتصالات الرئيس السادات بشخصيات دولية أخرى وسيطة ، من كارتر الى كرايسكى الى شاوشيسكو ، كانت أيضا غير مبشرة . وأن الرئيس السادات بدأ يفكر فعلا فى نقل الضغط بشكل مباشر على بيجين . يوضح ذلك ما كتبه ورواه ونشر وتحقق رسميا من انه اقترح قبل ذلك عقد قمة رؤساء الدول الخمس الدائمة العضوية فى مجلس الامن (أمريكا وروسيا والصين وانجلترا وفرنسا) فى القدس . ولكن أمريكا لم توافق على الاقتراح وبالتالى لم يواصل العمل من أجله حتى فوجىء العالم بخطبته في البرلمان المصرى والتسلسل السريع العجيب عبر التليفزيون الذى ادى الى اقتراحه بأن يدعوه بيجين لزيارة القدس والى تقدم بيجين بالدعوة ، ثم الرحلة ذاتها .

حدثت هذه المشاهد الأخيرة خلال ايام معدودة بسرعة لا أعتقد أنها عفوية ، ومن السذاجة تصديق أن تليفون من المذيعة الامريكية « بربارا والترز » وآخر من المذيع الأمريكى « والتر كرونكايت » حققا الزيارة ، وارجح أن ترتيبات كانت وراءها وتفاهمات أسبق واكثر جدية .

كان يوما لا يمكن ان انساه ...

كان يوم أحد فى شتاء ديسمبر البارد سنة ١٩٧٧ ، وكان مكتب الرئيس السادات بعد أن اتصلت به قد حدد لى موعدا فى الساعة الحادية عشرة صباحا فى استراحة الهرم (التى هدمت بعد ذلك بعد أن تولى الرئيس حسنى مبارك رئاسة الجمهورية) . ولم يكن الوصول اليها فى ذلك اليوم سهلا ؛ فقد كانت تجرى ما أطلق عليها « مباحثات فندق مينا هاوس » لأول مرة بين وفود أمريكية ومصرية واسرائيلية .. وبجوار الفندق يقيم الى جانب مئات الصحفيين المصريين والعالميين مئات من الصحفيين الاسرائيليين الذين جاءوا الى مصر لأول مرة أيضا .

كان طريق الهرم مقفلا قبل الوصول الى الفندق والى منطقة الأهرامات كلها ، والحراسة مشددة بشكل هائل . وكان هناك من ينتظرنى من رجال الأمن ليمر بى عبر المتاريس الى استراحة الرئيس .

واذكر بوضوح أنه كان يوم أحد لأن أول وفد برئاسة مناحم بيجين كان سيأتي الى مصر للمفاوضة بعد يومين اثنين ، أي يوم الثلاثاء التالي .

وصلت الى الاستراحة في الموعد بالضبط . وفوجئت بأن الرئيس ليس وحده كما ــ قيل لي ــ ولا مع سكرتاريته المعتادة ، ولكن هناك حوالي مائة من الصحفيين الاجانب أكثرهم من حملة الكاميرات .

وقابلني الرئيس في ركن من الشرفة المشمسة بحفاوة تنضح بأنه في حالة من السعادة لم أره في مثلها قط . ثم علمت منه سر الزحام بعد أن يئست لأول وهلة من أن أنفرد به ولو للحظة .

كانت مجلة تايم قد قررت اختياره "رجل عام ١٩٧٧" . ومجلة تايم من تقاليدها اختيار رجل العام وتعريفها له ، الرجل الذي ترك أكبر أثر في حياة العالم في تلك السنة إن خيرا وإن شرا » ولأن رجل العام لابد أن تظهر صورته على غلاف مجلة تايم التي تصدر في أول السنة الجديدة ، مع مجموعة من الصور الجديدة الخاصة بها لرجل العام ، فقد ارسلت عددا من أكبر مصوريها لالتقاط مجموعة صور للرئيس السادات . وطلبت المجلة أن تكون الصور في منطقة « ابو الهول والاهرامات » رموز مصر العريقة .. لتجمع بين الماضي والحاضر .

وعندما سألت الرئيس السادات بعد أن شرح لي ذلك ودعاني إلى مصاحبتهم في رحلة التصوير : وهل يرسلون مائة مصور ..؟! رد عليّ قائلا : لقد وصل مصوروهم وعلم بذلك باقي الصحفيين والمصورين الموجودين لمتابعة مباحثات مينا هاوس وطلبوا الحضور أيضا فقلت ليحضروا جميعا ، وإن كانت الأولوية في التصوير ستكون لمجلة تايم .

واعتذرت للرئيس السادات عن عدم مصاحبتهم في رحلة التصوير ، لأنهم كانوا سيسيرون صعودا وهبوطا في مناطق كثيرة حول « أبو الهول والاهرامات » وقلت له انني سأنتظر في الشرفة مع سكرتيره ومدير مكتبه الدائم الوفاء له .. فوزي عبد الحافظ .

ونزل الرئيس السادات سيرا على الاقدام ووراءه وحوله عشرات المصورين من أنحاء العالم وبقيت جالسا مع فوزي عبد الحافظ أمام مائدة صغيرة عليها مجموعة من الأوراق أحضرها معه كالعادة لاقتناص فرصة لعرضها على الرئيس .

وكان فوزي عبد الحافظ يطلب رأيي من حين لآخر في ورقة مما أمامه لا اذكر منها الآن الا موضوعا واحدا .. فقد أعطاني ورقة أنيقة مطبوعا في أعلاها اسم البعثة المصرية الدائمة في الامم المتحدة . أما الخطاب نفسه فهو شخصي .. مكتوب بخط اليد ويحمل توقيع المرحوم الدكتور رشاد رشدي .

كان الدكتور رشاد رشدي يقول للرئيس في خطابه أنه مازال في نيويورك

يشرف على اعداد وترجمة وطبع ما أصبح بعد ذلك كتاب السادات بعنوان "البحث عن الذات" ويذكر الدكتور رشاد رشدى للرئيس انه لم يتفق معه على اهداء يتصدر الكتاب كالعادة فى مثل هذه الكتب فى أوربا وأمريكا .. وانه يرفق مع خطابه كشفا من الاهداءات التى يقترحها ليختار الرئيس منها ما يشاء .

واعطانى فوزى عبد الحافظ الورقة المرفقة وقال لى لماذا لا تضع علامة امام أربعة أو خمسة إهداءات يختار منها الرئيس بدلا من أن يقرأ أكثر من عشرين إهداء ؟

واذكر ان الاهداءات كانت مقسمة الى مجموعات ، كل مجموعة اقتراحات تحت موضوع واحد : اقتراحات باهداءات تتجه الى مصر من نوع : الى مصرنا العزيزة .. الى بلد حضارة ٧ آلاف سنة .. الى القرية التى ولدت فيها ميت أبو الكوم .. الخ

ومجموعة تحت موضوع الاهداءات ذات الطابع الشخصى .. وكلها موجهة الى السيدة جيهان من نوع : الى جيهان .. الى زوجتى وأولادى .. أو الى شريكة حياتى وكفاحى .. الخ . ومجموعة ثالثة موضوعها عالمى النزعة يخاطب السلام العالمى أو الأخوة بين الشعوب الى آخره .. ولست أسجل هنا كل المجموعات ولا كل الاهداءات ولا الاهداءات حرفيا ، ولكن اشير فقط الى موضوعاتها بالتقريب واذكر اننى وضعت علامة امام إهداء من كل مجموعة .

وعاد الرئيس من رحلة التصوير ، وانصرف المصورون . وقال الرئيس ان أمامه مقابلتين قصيرتين ثم يفرغ لى بقية اليوم : كان اللقاء الأول مع الصحفى والكاتب الايطالى المشهور « دينو فريسكو بالدى » وكنت اعرفه من قبل .. والثانى كان رساما كاريكاتيريا أمريكيا عالميا . كنت شديد الاعجاب برسومه الكاريكاتيرية فى شتى الموضوعات الدولية رغم ظهور نزعته الصهيونية واسمه "اورلى" .

انفض المولد .. وخلا السادات لى تماما فى ركن ظليل من شرفة الاستراحة .. لأن الشمس رغم شتاء ديسمبر كانت قاسية .

لم أكن قد رأيت السادات منذ شهور ، وكنت أشعر أن ثمة حواجز قامت بيننا ، وكنت قد رتبت فى ذهنى أن أكسر هذه الحواجز حتى ينطلق فى الكلام على سجيته ، بأن أفهمه أننى لست آتيا لمخاصمته من حيث المبدأ على زيارة لا أعرف مقدماتها ولانتائجها ولا أى شىء عنها .

وكان الرئيس السادات منذ أن ذهب الى القدس يكرر فى كل احاديثه وخطاباته أنه نجح فى "كسر الحاجز النفسى" بين العرب وبين اسرائيل .. أو بين الطرق القديمة والطرق الجديدة لحل المشكلة .

وكان أول ما افتتحت به الحديث مع الرئيس السادات ان قلت له ضاحكا : اسمح لي يا ريس أن أقول انني حاولت كسر هذا الحاجز قبلك بأكثر من عشر سنوات ! ، وأنك يومها وبختني على ذلك توبيخا شديدا !.. ونظر إليَّ الرئيس بدهشة برهة قصيرة ثم انفجر ضاحكا !.

والقصة انني كنت قد أصدرت سنة ١٩٦٥ كتابا اشتهر فى وقتها وأثار نقاشا حادا فى العالم العربى وطبع عدة طبعات متلاحقة بعنوان : "اسرائيليات" كان الكتاب ايامها جديدا على السوق ! فلم يكن العرب يناقشون ابدا اسرائيل من الداخل . وجاء هذا الكتاب ليشرح الأحزاب المختلفة في اسرائيل والتيارات السياسية المتعددة واصولها وجذورها الى آخره ...

ولكن الجزء الأهم فى الكتاب كان هو الخلاصة التى قلت فيها ما معناه : ان الحل لن يكون عسكريا فقط كما يتصور الرأى السائد . وأنه لن تقوم يوما معركة عسكرية واحدة ينهزم فيها العرب والى الأبد ، ويقذف بهم الى الصحراء ، أو تنهزم اسرائيل وتندثر نهائيا ، فنحن العرب لا نحارب اسرائيل الموجودة على الخريطة . ولكننا نحارب أمريكا وأوربا والحضارة الغربية التى ليست اسرائيل سوى خنجرها المغروس فى لحم المنطقة العربية ، وبالتالي فهناك "فجوة حضارية" بيننا وبين الخصم .. وسوف تمر فترات قتال وفترات سكون لزمن طويل ، أطول مما نتصور ، قبل حسم الصراع ، يسبقها تقدم حضارى لابد منه في العالم العربى ، حتى يكون على مستوى أية مواجهة هى فى النهاية مواجهة حضارية .. وأنه الى ذلك الوقت ، ليس المهم هو غزو اسرائيل عسكريا ، ولكن اقامة نوع من "الوضع المتجمد" نحاول خلاله اقامة الحد الأدنى من التوازن الحضارى والاستراتيجى المشار اليه .

هذا الكلام يبدو الآن عاديا ، بصرف النظر عن وجود من يؤيده أو من يخالفه ، ولكنه حتى ساعة ظهور الكتاب سنة ١٩٦٥ كان يبدو غريب الوقع جداً على الآذان العربية ، فالعقل العربى العام كان معلقا بصيغة واحدة ، هى حرب واحدة تنهزم بعدها اسرائيل ، واعتبر البعض أن هذا الكلام ينطوى على دعوة للمهادنة .. ولو لفترة من الوقت ، ولم يعجب البعض القول بأن الصراع ليس عسكريا فحسب وليس صراع جيوش وأسلحة ولكنه صراع عسكرى سياسى اقتصادى تعليمى وتنموى الى آخره . وقرعت الآذان لأول مرة عبارات "التحدى الحضارى" و"الفجوة الحضارية" وذهل لها البعض كأنهم يكتشفون حقيقة جديدة رغم أنها محيطة بهم من كل جانب ، ورفضها البعض على أنها عملية "تيئيس" .

وكان ممن ناقشونى مناقشة عنيفة رافضين هذا المنطق ومستنكرين

له ، أنور السادات رئيس مجلس الشعب في ذلك الوقت ، ومن هنا كانت كلماتي التي افتتحت بها الحديث مع الرئيس السادات ، وكانت قهقهته الضاحكة عندما تذكر القصة . وقال لي : يا أحمد ان الزمن تغير والمفاهيم تغيرت .

وشعرت بأن البداية حققت ما قصدت إليه من إزالة ما قد يكون قد قام من "حاجز نفسي" بيني وبينه .. وكان يومها في غاية من الانشراح والسرور ، يتحدث ويتحرك ويشير وكأنه محمول على سحابة وردية في السماء .

وانطلق يحدثني عن براعة ضربته السياسية ، وذهول أعتى الزعماء العالميين وأن الذين شاهدوه على تليفزيونات العالم يهبط في القدس أكثر ممن شاهدوا أول رجل ينزل على القمر ، وأن الصحف العالمية نشرت إحصاءات بهذا المعنى .. وكان ذلك صحيحا .. (علق عازرا وايزمان بعد ذلك في حديث صحفي حين تأزمت المفاوضات قائلا : هذا صحيح ولكن المشكلة الآن هي إعادة أنور السادات من القمر الى الأرض) ..

ودخلنا تدريجيا في الجد ...

إن ما دار بيننا في ذلك اليوم محفور في ذهني كالنقش على الحجر ، ولكنني لا استطيع أن أسجله هنا بالترتيب نفسه الذي جرى به الحوار ، فالترتيب مختلف ، ولكن لم أسجل هنا الا ما أنا متأكد تماما وبوضوح من انه جرى بيننا .

روى لي الرئيس أكثر ما عرف بعد ذلك ونشر ، عن مقدمات رحلته الى القدس وتطور الفكرة ومولدها . لا أذكر انه قال لي في هذا الموضوع شيئا جديدا مما لم ينشر بعد ذلك ، اللهم الا تلك الفقرة المثيرة للتساؤل عن حديث هنري كيسنجر معه ، والتي أشرت اليها منذ قليل .

وعندما وصل الحديث إلى يوم رحلته إلى القدس ، شن حملة عنيفة غاضبة على الذين بادروا إلى مهاجمته دون أن يعرفوا أي شيء ، وقلت له : اسمح لي أن أدافع عن كل الغاضبين الذين اعرفهم والذين لا أعرفهم !. لقد كانت مفاجأة وصدمة هائلة في حد ذاتها لقد كنت في بيتي في الكويت .. وكان الناس يتصلون ببعضهم البعض ليتجمعوا معا ويشاهدوا معا ، في هذا البيت أو ذاك ، مشهد الزيارة على شاشة التليفزيون ، وطلبت إلى زوجتي ألّا تقبل الحضور الا من عدد قليل من المصريين والمصريات فقط حتى نكون على حريتنا .. معنى ذلك أولا يا ريس أن كل مصري كان يشعر أن المسألة اكبر وأقسى من أن يراها بمفرده في بيته . وفعلا تجمع لدينا عدد من الأصدقاء الأقربين وزوجاتهم .. وجلسنا وشاهدنا مذهولين المشهد الخارق لكل ماهو مألوف ، وأذكر بعد انتهاء نقل مشاهد الزيارة انني تلفت حولي فلم أجد زوجة واحدة من اللائي كن معنا ، ثم اكتشفت أن كل واحدة

انطلقت إلى غرفة أو إلى حمام وأغلقت الباب على نفسها وأخذت تجهش بالبكاء بكاء غزيرا .. لم يكن هذا يا ريس تعليقا سياسيا .. انه رد فعل نفسي طبيعي لشعوب عربية تربت على معان أخرى تماما .. ومن العدل ألا تأخذ كل شخص برد فعله الأول .. هذا رد فعل وطني عاطفي طبيعي .. والشاذ هو غير ذلك .

وهز السادات رأسه موافقا ، وغشيت وجهه سحابة داكنة وقال لي : أتظن أن الأمر كان مختلفا بالنسبة لي ؟ إنك تقول إنكم عندما رأيتموني واقفا على سلم الطائرة وتحت قلوبكم في أقدامكم . أنا كنت في حالة من شبه الغيبوبة والدوار .. ونزلت درجات السلم وكأنني لا أشعر بالدنيا من حولي ، ولم أسترد أعصابي وانتباهي إلا عندما وجدت نفسي أصافح الذين كانوا في استقبالي .

وسكت قليلا ثم استطرد قائلا : انني أفهم هذا ومستعد لأن اقبله من الكثيرين جدا ، ولكن ما رأيك في حافظ الأسد مثلا ؟.. حافظ الأسد أولا ضيَّع علينا شهورا طويلة بعد حرب ١٩٧٣ عندما أخذ يساوم وكأنه بقال يبيع أو يشتري قطعة جبن . ظل شهورا يساوم على متر من هنا وشبر من هناك ، غير فاهم أن الأهم من المتر والشبر هو سرعة التقدم في المفاوضات حول الموضوع الأصلي والحديد لايزال ساخنا بعد حرب ١٩٧٣ .

حافظ الأسد هذا خذلنا بعد يومين من بدء حرب ١٩٧٣ . لم ينفذ الخطة المشتركة المتفق عليها ، واجتياح الجولان كله في يومين ثم طلب وقف إطلاق النار ، وجيشنا مازال في معمعة عبور القنال .. كان يظن انه يمكنه أن يخرج باسترداد أرضه كلها ولنذهب نحن الى الشيطان .. ولكن الاسرائيليين بعد أن نجحوا في تثبيت جبهتهم في سيناء استداروا إليه واستولوا على الجولان كلها واستولوا على أكثر ما كان في أيديهم قبل الحرب .

فقلت له : ولكن سيادتك نفيت ذلك . وقلت علنا إن الروس كذبوا عليك عندما أبلغوك بطلب حافظ الأسد منهم بالتدخل لوقف اطلاق النار .

ورد عليّ قائلا : أنا فعلا "لزقتها" في بريجنيف حتى احتفظ بتحالف حافظ الأسد معنا ، ولكنه فعلا طلب ذلك .

واستطرد السادات قائلا : ليس هذا هو المهم الآن .. ولكنني ذهبت كما تعرف الى حافظ الأسد في دمشق وقلت له انني ذاهب الى القدس .. وشرحت له ما في ذهني وكل حساباتي ، وقد اختلفنا فعلاً .. ولم يوافقني على ذلك . ولكنني قلت له في النهاية طيب يا حافظ .. أنا ذاهب الى القدس ، وتستطيع أن تهاجم ذلك .. ولكنني أطلب إليك ألا تذهب بعيدا في الهجوم علينا ، وبلاش حكايات الخيانة والعمالة والكلام ده .. لأننا

سنريدك .. بعد شهور .. لكى نسلمك الأرض .

وسألت الرئيس ببلاهة حقيقية : أى أرض ياريس سنسلمها لسورية ؟

ورد عليّ : الجولان طبعا !! أم انك تصدق الدعايات التى تقول اننى سأعقد صلحا منفرداً ؟. ومع ذلك فقد ذهب حافظ الأسد يصدر الكلمات المليئة بتهم الخيانة والعمالة وما الى ذلك .

كان هذا الكلام بداية مرحلة من الحديث من اعجب ما يكون . لم يفارقنى خلالها الذهول ، ومازلت أزداد تعجبا كلما تذكرتها ..

فقد بدأ الرئيس السادات يتحدث عن رحلته الى القدس وأحاديثه مع زعماء إسرائيل والنتائج المرتقبة .. معتقدا أن إسرائيل سوف تعيد لنا سيناء وغزة والضفة الغربية والجولان : أى كل ما احتلته سنة ١٩٦٧ . ولم يكن الرئيس السادات يقول ذلك فى شكل "تصريحات" ولم يكن لسابق علاقاتنا فى حاجة الى أن يكذب عليّ .. ولذلك مازلت أعتقد أنه كان يصدق فى كل ما كان يقوله لى .. وكان كلامه هذا يأتى طبيعيا فى سياق الكلام ، جاءت حكاية الجولان مثلا فى هذا السياق الطبيعى وكأنه أمر مفروغ منه .. بالطريقة نفسها ايضا جاء الحديث عن قطاع غزة .. فقد كان يروى لى لقاءه مع وفد جاءه من قطاع غزة وما قاله لهم ! وبنفس البلاهة والذهول سألته .. وغزة كمان ياريس ؟.

أمال إيه ؟

لقد سقطت غزة من الأنباء والأحاديث من مدة طويلة .

كلا ..! اننى سوف أرفع المعاناة فورا عن أهالى غزة وأهالى الضفة الغربية .:

وأدرت فى رأسى بسرعة مناقشة وبحثا حول استعماله تعبير "رفع المعاناة" ماذا تعنى ؟ إنه لم يقل تحريرها ، ولكنه ايضا يستعمل عبارة "رفع المعاناة" كثيرا ومنذ سنوات حتى فى القضايا الداخلية . ثم إن "رفع المعاناة" معناه على أى حال خروج قوات الاحتلال مهما اقترن ذلك بشروط وقيود دولية .

المهم أن الرئيس السادات أعطانى انطباعا لا شبهة فيه عن تفاؤله المطلق . بأن إسرائيل فى مقابل السلام مع مصر سوف تعطيه كل الأراضى المحتلة .

وحين أثرت له بعض الشكوك المنتشرة فى الدوائر العربية ، ضم قبضة يده اليمنى ورفعها فى الفضاء وقال لى : حين أعلن على العالم ما فى يدى هذه سوف أضرب هؤلاء الذين يهاجموننى جميعا بالجزمة القديمة ، ولن يقدروا على فتح أفواههم !!.

وضحكت وقلت مخففا غضبه : لا داعى لذلك يا ريس .. المهم اذا تحقق

هذا أنك ستكون قد انتصرت ومصالحنا مع الدول العربية ليست مصالح عابرة .

ورد عليَّ قائلا : تقصد المساعدات العالية ؟ عندما يعرف الجميع ما حصلت عليه . لن أطلب إلى أحدهم مساعدات بعد الآن ، إنني سأفرض عليهم "الجزية" وسيدفعونها شاكرين .

وبعد وقت طويل فى أخذ ورد حول هذه الامور استجمعت رأيي ونفسي وقررت كعادتي أن أقول له رأيي الصريح في الموقف .

قلت له : يا ريس سيادتك تعرف أنني مثل عجائز الفرح ، كما قلت لي مرة عندما اختلفنا حول الاموال التي ستهطل على مصر سنة ١٩٧٤ .. فاسمح لي ان أقول لك "السيناريو المتشائم" للأحداث ، وهو مع الأسف السيناريو الذى أعتقد فيه .

واستطردت قائلا : لعلك تذكر أنه بعد حرب ١٩٧٣ مباشرة ، كان هناك من قالوا إن الحرب كانت تمثيلية وأن الفصل الأول هو المعركة التى جرت وسيكون الفصل الثاني هو الصلح المتفق عليه مقدما مع أمريكا مؤلفة المسرحية .

- نعم أذكر ..

. المهم أنه ظهر للعدو والصديق أن هذا غير صحيح .. وأنها كانت حربا لا تعرف بها أمريكا ولا اسرائيل .. وكنا نظن جميعا أن فك الاشتباك مراحل سريعة متلاحقة قبل الجلاء الكامل !.. ولكنك جربت كما رويت لي مرارا . قصص تعنت إسرائيل ومراوغتها لمدة أربع سنوات كاملة حتى الآن . وهذا طبيعى ، فقد كان مستحيلا أن تتحرك إسرائيل تحت الضغط المباشر للحرب ، فتضطر محليا وعالميا إلى الانسحاب الذى نريده ، إسرائيل المعتمدة على أمريكا لا تفعل هذا أبدا .. إن الشيء نفسه سيحدث مع زيارة القدس . بصراحة .. أنا لا اعتقد أن الوفد الاسرائيلي القادم لمباحثاتك في الاسماعيلية بعد غد الثلاثاء سوف يعطيك اى شيء على الاطلاق !. إن السيناريو الذى أراه هو أن إسرائيل ستتملص من أى بحث جاد فى السلام ، وهى مازالت تحت ضغط زيارتك المدوية في القدس وآثارها العالمية التي لا شك فيها . إسرائيل سوف تراوغ لا أقل من أربع سنوات أخرى حتى يتبدد الأثر العنيف الطاغى لزيارة القدس ويخف الضغط عليها كما فعلت بعد ١٩٧٣ . إنني أخشى بكل صراحة أن تمر تلك السنوات وتصبح زيارتك للقدس قصة تاريخية فريدة وغريبة ومثيرة ، يتباحث فيها الأكاديميون ، قبل أن تعطينا إسرائيل شبرا واحداً من الأرض .

. قلت هذه المعاني بتفصيل وإسهاب ، وتوقعت أن يغضب الرئيس وتنتهي المقابلة الطويلة بشكل أو بآخر . ولكني فوجئت برد فعله وكأنه

سمع نكتة جديدة وقال لي بكل ود ومرح وارتياح : ياأحمد انت أصلك بعدت عنا ، مش عايز تقعد معنا . ياأحمد الدنيا اتغيرت ، اتغيرت تماما .

واستطرد قائلا : أيام فك الاشتباك كان عندي جنرالات في جيشي يفكرون مثل حافظ الأسد . ويضيعون الوقت في الجدل حول هذا المتر أو هذه "التبة" وكنت أطالبهم بعدم التعطيل لهذه الأمور التافهة . لم يفهموا انني لم أكن افك الاشتباك مع إسرائيل ولكنني كنت أفك الاشتباك مع أمريكا ! بل إنني عندما حاربت لم اكن أحارب الجيش الأسرائيلي بل كنت أحارب لأهز قناعات المؤسسة الأمريكية كلها : الرئاسة والكونجرس والـ « سي . آي . ايه » والبنتاجون . من يريد أن يفك الاشتباك مع امريكا لابد أن يفك الاشتباك مع كل هذه المؤسسات ، ومع رجال الأعمال ايضا .. بل ومع اليهود الأمريكيين .. هذه عملية ضخمة وكبرى ومعقدة ولكن لا أحد في منطقتنا يفهمها .

كان كلام السادات هنا بالغ الأهمية ويدل على قرار بتغيير استراتيجي شامل . وفي هذا السياق روى لي السادات قصة الجسر الجوى الأمريكي الذى كان يصل الي سيناء نفسها خلف خطوط القوات الإسرائيلية مباشرة خلال حرب ١٩٧٣ ليؤكد أن المواجهة مع أمريكا أساسا .

وفي هذا السياق أيضا روى لي الرئيس السادات قصة الثغرة ، أو بمعنى أصح قصة مابعد الثغرة .. قال لي : لقد جاءني هنرى كيسنجر وقال لي بصراحة مباشرة ياسيادة الرئيس نحن نعرف من التصوير الجوى أن القوات التي حشدتها حول الاسرائيليين غرب القناة كافية لدفنهم جميعا حيث هم .. أنت قادر على ذلك عسكريا ، ولكنني ابلغك ان امريكا لن تقبل ذلك . البنتاجون يرى أنه لا يمكن السماح للسلاح السوفييتي بالانتصار على اسرائيل مرتين ، مرة في عبور القناة ، ومرة ثانية في القضاء على الثغرة .. لو أقدمت على الهجوم على الثغرة فسوف تحاربك أمريكا مباشرة . The Pentagon Will Give You a Good beat وأؤكد لك انك لست المقصود من ذلك ، ولكنه الاتحاد السوفييتي .

قال السادات مستطردا : لقد تلقيت اذن انذاراً أمريكيا عسكرياً صريحا ، ولكن كيسنجر أعقبه على الفور بحديث آخر اذ قال لي : ثم انك ماذا تريد في النهاية ؟ الا تريد أن تنسحب اسرائيل من غرب القناة ، وأن تبقى قواتك حيث هي شرق القناة كما كانت يوم وقف اطلاق النار .. وفك الحصار عن الجيش الثالث ؟ سنحقق لك كل ذلك بالمفاوضات ، وهذا تعهد أمريكي رسمي ، وقد مررت بموسكو قبل حضوري ، وهم موافقون .

وختم السادات هذه الواقعة بقوله : هذا ماحدث وهذا ما يلومني عليه دعاة الحرب بالميكروفونات والأحاديث .

ولما كان الشيء بالشيء يذكر ، فقد حدث قبل ذلك بسنوات أن استدعاني الرئيس السادات لأكتب له خطابا لا أذكر مناسبته الآن . وكان قد سبق له أن ألقى بضعة خطابات مرتجلة هاجم فيها الاتحاد السوفييتي بطريقة توحي بالتحرش . وكانت الحجة عدم تعويض مصر عن السلاح الذي فقدته في حرب أكتوبر بالأنواع والكميات المطلوبة .

وعندما أخذنا نتناقش في عناصر الخطاب المطلوب ـ لعله كان لافتتاح احدى الدورات البرلمانية ـ قلت له خلال الحوار انني أعتقد أن حملته على الاتحاد السوفييتي يجب أن تتوقف بعض الوقت ، بعد ماسبق أن ألقاه من خطابات ...

وقاطعني قائلا : انت حتعملي زي كيسنجر؟

وسألت دهشا : ما وجه الشبه بيني وبين كيسنجر ؟

قال : كل مايسمع انني حالقي خطاب ، يبعت يقوللي بلاش تهاجم الاتحاد السوفييتي !!

وضحكت وقلت له : الحمد لله انني اشبه كيسنجر في شيء ما !

كان ذلك في وقت مازالت أمريكا ترى فيه أن ثمة حاجة إلى درجة من تعاون الاتحاد السوفييتي للوصول الى حل لمشكلة السلام في المنطقة وذلك قبل أن تتدهور علاقة السادات بالروس تماما ويتحول موقف أمريكا بالتالي إلى رفض إشراك الروس في أي حل .

وقلت للرئيس إنني لا أعرف دوافع كيسنجر في هذا الطلب إلا أنه في غمرة سياسته الدولية القائمة على "الوفاق" لا يريد المبالغة في إغضاب الروس . أما رأيي فسببه انني أرى أن خطابات السادات المتلاحقة ضد الروس تحمل لهم رسالة معينة ، هي الغضب والاحتجاج . وانه من الطبيعي بعد ذلك أن يعطي الروس بعض الوقت حتى نعرف ردهم ، وعلى ضوء ذلك نتصرف . والا اعتبروا هجومك عليهم شيئا مقصودا لذاته وليس ضغطا من اجل السلاح ..

وقال السادات يومها : أنا باشتمهم بس ! إنما المعاهدة موجودة ، والتسهيلات البحرية موجودة وكل شيء على حاله ...

قلت له : الروس ليسوا مثل الأمريكان ! الأمريكان لا تهمهم الشتيمة . أما الروس فقد يكون إلغاء التسهيلات المعطاة لهم اقل وقعاً عليهم من الشتيمة والهجوم العلني !

وقال لي أن كيسنجر رجل استراتيجي لا نظير له ، لكنه دهش جدا من "حكاية الوفاق" التي يحاول كيسنجر إقامتها وما يريده من ورائها !

(١) منذ شهور نشر السيد عبد الفتاح أبو الفضل كتابا بعنوان ، كنت نائبا لمدير المخابرات ، روى فيه أن لجنة عليا في المخابرات العامة تجمعت لديها قرائن تدل على أن حسن التهامي كان يعمل لحساب المخابرات الأمريكية ، وانه كان يسجل مكالمات لشخصيات هامة في الدولة ... الخ ، وانه بناء على ذلك تقرر إقصاؤه من مكانه في مصر .

كارتر يستعطف السادات !!

كما قلت فانني لاأروى الحديث بتسلسله الذى جرى به ، وإن كنت أحاول تسجيل أهم مادار فيه بدقة وبأقرب مايكون الى هذا التسلسل .

كان يتخلل حديث الرئيس السادات معى طوال هذه الساعات ثقة هائلة منه فى الرئيس الأمريكى جيمى كارتر .

كان واضحا أنه يعتقد اعتقادا جازما ان الرئيس الأمريكى - أى رئيس أمريكى - « إذا » أراد « فعلا » أن يأمر اسرائيل بأى شىء فهو قادر على ذلك . وانه قادر « إذا أراد فعلا » ان يفعل الشىء نفسه مع الدول العربية البترولية فهو قادر على ذلك . وقد جادلته فى حدود هذه القدرة . ولكنه كان يفرق بين أن « يقول » الرئيس الأمريكى لنا أو للعالم شيئا وبين أن « يريد فعلا» أن يفعل هذا الشىء . وكان يعتقد اعتقادا جازما بأن الرئيس جيمى كارتر أصبح « يريد فعلا » أن تنسحب اسرائيل من الأراضى المحتلة كلها ، وان يحل المشكلة الفلسطينية حلا مقبولا فى تقديرى أن كارتر كان يريد فعلا ولكنه لم يكن قادرا ، وبالتالى فلا مجال للشك فى عدم قدرته على ذلك . وكان يسرف فى مدح الصفات الشخصية « للفلاح » الأمريكى جيمى كارتر .. واتجه بالحديث حول جيمى كارتر اتجاها اخر .

كان الرئيس الأمريكى قد بدأ يضعف داخليا فى امريكا ، وهو يواجه الانتخابات النصفية للكونجرس والحكام فى الولايات ، وهى مسألة خطيرة تقرر مدى سلطة الرئيس الأمريكى فى النصف الثانى من رئاسته .. وهنا فاجأنى الرئيس السادات متحدثا بصوت مرتفع وبنبرة فيها مزيج من الغضب والفخر معا قائلا :

كلامك صحيح . ولكن لاتصدق أن الرئاسة الامريكية تفقد سيطرتها على سياسة الدولة أبدا .. ان الدستور الامريكى يجعل الرئيس الأمريكى اقوى حاكم فى العالم . ولكن ، لمعلوماتك أن أهم ورقة تقوى كارتر فى امريكا الان هى نجاح الحل السلمى فى الشرق الأوسط ، اننى انا الذى اساعده فى وضعه الداخلى الامريكى وليس هو الذى يساعدنى هنا .

ومد الرئيس السادات يده الى جيب جاكتته الداخلى ، وأخرج ورقة مطوية ، وقبل أن يفتحها قال لى : سأروى لك هذه القصة ..

ففى المراحل السابقة من الاتصالات بيننا وبين إسرائيل ، عن طريق الامريكان ، تمكن الرئيس كارتر من تجاوز كثير من العقبات التى كانوا يقيمونها . وفى إحدى مقابلاتى معه قال لى : ان اسرائيل تكرر حجة ليس لدى اى رد عليها .. انهم مازالوا غاضبين بشدة لانك ترفض لقاء علنيا مباشرا ورسميا بين

الجانب المصرى والجانب الاسرائيلى .. انهم يكررون ان رفض مصر هذا اللقاء المباشر العلنى امام العالم كله ، وامام الرأى العام المصرى والعربى ، معناه ان مصر ليست جادة فى التوصل إلى سلام حقيقى .. وانها تريد ان تسترد ارضها بدون هذا المقابل .. وإلا فما الذى يجعل مصر تصمم على الاتصالات السرية أو على المناقشة عن طريق طرف ثالث ؟ . وانا ادرك الصعوبات التى تواجهك لكى تقدم على هذه الخطوة ، وحساباتك لردود فعل الرأى العام .

ولكن (مازال الكلام لجيمى كارتر على لسان الرئيس السادات) اذا تغلبنا على كل العقبات واطمأنت نفسى الى ان اسرائيل مستعدة لأن تستجيب لكل الطلبات التى تراها ضرورية ، فهل انت مستعد فى هذه الحالة لأن تقدم على هذه الخطوة التى لامفر منها ، وان يتم لقاء رسمى وعلنى على مستوى سفراء أو وزراء أو رؤساء وزارة مثلا ، وجها لوجه ؟

واستطرد الرئيس السادات قائلا لى : وقد قلت لجيمى كارتر وقتها : نعم .. وفى هذه الحالة انا مستعد لذلك !!

ملاحظة : (لايجوز استبعاد هذه النقطة من مجموع الملابسات التى ادت الى قرار الرئيس السادات بالسفر الى القدس ومواجهة إسرائيل علنيا على أعلى مستوى) .

وهنا فتح الرئيس السادات الورقة المطوية التى كانت فى يده ، وقال لى : هذا خطاب شخصى جدا لم يطلع عليه مخلوق . بخط جيمى كارتر .. انه يقول لى فيه انه يعتقد ان الجانب الإسرائيلى وصل الى ما نريد ، وانه قد آن الأوان لأن أنفذ وعدى السابق له بأن اقترح طريقة للقاء رسمى مباشر على مستوى عال بين مصر واسرائيل . وهو يستنجزنى تحقيق هذا الوعد بسرعة . وواضح لك طبعا أن هذا يقويه داخليا فى امريكا .

ولم يعطنى الرئيس السادات ، الخطاب لكى اقرأه ، ولكنه اخذ يطويه عدة طيات حتى ابقى منه سطرا واحدا فى آخر الخطاب يمكن قراءته .. وقال لى : اقرأ هذه الجملة ! .. وقرأت سطرا بخط جيمى كارتر هو آخر سطر قبل توقيعه يناشد السادات ان يلبى ماقاله لى مستخدما عبارة :

« I PLEED TO YOU MR· PRESIDENT »

وهى عبارة يمكن ترجمتها حرفيا ب « اننى ارجوك ياسيادة الرئيس » أو « أننى أناشدك » أو « أننى استعطفك » .

وأخذ منى الرئيس السادات الخطاب وطواه وأعاده الى جيبه .. وقال لى :ــ

ــ أرأيت ! الرئيس الامريكى «يناشدنى ويستعطفنى» .. انه يعرف مدى شعبيتى فى امريكا ! ولعلك قرأت فى الصحف الأمريكية اننى لو رشحت نفسى للانتخابات فى امريكا لنجحت فى الانتخابات !!!

متى كان رئيس أمريكا يرجو رئيس مصر أو «يستعطفه» كما قرأها السادات

الواقع أن هذه الواقعة اثارتني جدا .. اثارتني لانني شعرت ان الرئيس الراحل السادات قد اصبح فعلا فوق سحابة عالية من الاحلام لايمكن انزاله منها ، وان الإعلاميين الاسرائيلي والغربي الهائلين قد أثرا فيه بأكثر من كل تصوراتي ، ولاأنسى هنا ان اروى واقعة تكشف لنا عن الطريقة التى كانوا يعزفون بها على الأوتار التى تؤثر فى السادات أن درسوا شخصيته بدقة .

ففى إحدى مراحل هذه الجلسة قلت له فى مجال الاعتراض على تفاؤله الشديد المنطلق ، انني علمت ان المفاوضات التى كانت جارية وقتها فى فندق ميناهاوس بين وفود مصر وامريكا واسرائيل ، لم تسفر عن أى شىء ، وانهم عاجزون عن مجرد الاتفاق على جدول الاعمال . فاين هذا من هذا التفاؤل ؟ وساعتها رد علىَّ السادات قائلا : « ميناهوس هذه تياترو للعالم ! الكلام الجد لن يكون هناك »..

اذكر ذلك لكى اروى الواقعة التالية : فاثناء مباحثات ميناهاوس قال « بن اليسار » رئيس الوفد الاسرائيلى ان الاسرائيليين بحكم دينهم اليهودى لايعملون يوم السبت فهو يطلب توقف المباحثات يوم السبت .. ولم يجد الدكتور عصمت عبد المجيد وقتها بدا من أن يرد عليه قائلا : ونحن اجازتنا يوم الجمعة وبالتالى نطلب توقف المباحثات يوم الجمعة أيضا .. وكان رئيس الوفد الامريكى هو « الفريد اثرتون » سفير امريكا فى مصر بعد ذلك .. فضحك وقال : ونحن اجازتنا يوم الأحد !

واصبحت هناك ثلاثة أيام بلا عمل فى هذه المباحثات التى جاء مئات الصحفيين من انحاء العالم لتغطيتها .

وفى الجلسة التالية ابلغ الدكتور عصمت عبد المجيد ان الحكومة المصرية إزاء اجازة هذه الأيام الثلاثة مستعدة لأن تضع لكل وفد برنامجا سياحيا فى أى مكان يختارونه فى مصر .

وقال أثرتون : لقد شاركت هنرى كيسنجر رحلاته المكوكية بين القدس واسوان حوالى ثلاثين مرة ، ولكننى لم أر اسوان ابدا ، وحبذا لو نظمتم لنا نحن اعضاء الوفد الأمريكى رحلة الى اسوان . وكان الدكتور عصمت عبد المجيد قد قال لهم ان الصحفيين الاسرائيليين طلبوا زيارة الاسكندرية ثانية اكبر مدن القطر .

وهنا قال « بن اليسار » رئيس الوفد الاسرائيلى : نحن لنا طلب آخر ! . اننا نتمنى لو نظمتم لنا رحلة الى قرية ميت ابو الكوم لكى نزور البيت الصغير الذى كان مسقط رأس الرجل العظيم انور السادات ... وروى لى الدكتور عصمت عبد المجيد انه شعر انهم يستخفون بعقولنا . فلم يرد وقرر اهمال طلبهم وليبقوا فى ميناهاوس !؟.

ولكن ضابط الاتصال من رئاسة الجمهورية جاء عصر ذلك اليوم الى ميناهاوس وسمع من الاسرائيليين هذا الطلب ، وأبلغه للرئيس السادات فورا ، فأمره بعمل كل الاستعدادات لترتيب رحلتهم إلى ميت ابو الكوم ، بكل التفاصيل من حشد الجماهير الى الفطير المشلتت .

وكان للقصة جانب مضحك فقد سمع كثير من الصحفيين المصريين والأجانب أن الوفد الاسرائيلى ذاهب الى ميت ابو الكوم ولم يتصوروا السبب واستنتجوا أنهم لابد ذاهبون لمقابلة السادات نفسه هناك .. ولم يخطر لهم ابدا ماحدث .. فعدلوا عن رحلتهم إلى الاسكندرية وهرعوا جميعا إلى ميت أبو الكوم حيث اكتشفوا انه لامقابلة ولاشيء الا الزحام والتراب والغبار ، وعادوا دون أن يفهموا شيئا !

لـمـاذا وبـخ كارتر سفيره ؟ اخرجت على مجرى الجلسة التى اتحدث عنها ورويت هذه الحادثة لكى ادلل بها على المدى الذى ذهب اليه الاسرائيليون باللعب على عواطف الرئيس الراحل انور السادات ... وأخرج عن مجرى الحديث مرة أخرى لاحاول الاجابة عن سؤال لم يطرح نفسه الا بعد ذلك بزمن .. فقد جاء فى مذكرات الكثيرين من الجانب الامريكى مثل الرئيس كارتر ووزير خارجيته فانس ومن المصريين .. الدهشة من ان الرئيس السادات كان احيانا يتساهل اثناء مفاوضات كامب ديفيد فى بعض الامور اكثر مما كان يتساهل الرئيس الامريكى جيمى كارتر ، مما كان يثير دهشة هذا الاخير .

وتردد هذا المعنى فى كتابات عدد من المصريين الأمريكيين الذين كتبوا حول تلك المفاوضات ، كما روى لى السفير الأمريكى فى مصر وقتها (هيرمان إيلتس) انه حدث اكثر من مرة ان كان يوضح بحكم عمله للرئيس كارتر مايمكن ان يقبله السادات وما لا يمكن أن يقبله ، ثم يفاجأ بأن الرئيس كارتر يستدعيه ويوبخه لأن مازعم له ان السادات لن يقبله ، قد علم كارتر من بيجين أن السادات قد قبل به فعلا ! ولى حول هذه النقطة التى ترددت كثيرا تفسير اجتهادى لايستند إلا الى قصة سابقة .

رسالة ديان لعبدالناصر : ففى حياة جمال عبدالناصر بعد الهزيمة ، تلقى رسالتين شفويتين على الاقل من موشى ديان ، وهما الرسالتان اللتان عرفت قصة كل منهما فى حينها من ناقل الرسالة شخصيا : رسالة حملها المرحوم قدرى حافظ طوقان من زعماء الضفة الغربية فى ذلك الوقت ووزير خارجية الأردن سابقا ، ومؤسس كلية النجاح فى نابلس (جامعة نابلس

حاليا) والثانية هي الشاعرة العربية الموهوبة والمعروفة فدوى حافظ طوقان .. ولأن القصتين متشابهتان حرفيا ، فانني اكتفى برواية قصة المرحوم قدري حافظ طوقان ..

كان المرحوم قدري حافظ طوقان عضوا في المجمع اللغوى المصرى بالقاهرة ، وبعد الاحتلال وهزيمة ١٩٦٧ ظل قدرى حافظ طوقان مواظبا على حضور جلسات المجمع اللغوى سنويا في مصر . وكان الى جانب ذلك يجد في هذا حجة وجيهة ليطلب اذنا بالخروج من الأراضي المحتلة والسفر الى القاهرة .. وكان فوق هذا وذاك قد تمكن من جمع تعهدات بأراض واموال من اعيان الضفة الغربية لانشاء جامعة كاملة في الضفة ، نواتها كلية النجاح في نابلس . وكان المرحوم من اكبر واعز اصدقائي ، وكان يقول لي ان كل شيء جاهز ولكنه لن يقدم على انشاء الجامعة تحت الاحتلال الاسرائيلي ، الا اذا اخذ اذنا من واحد من اثنين : اما من جمال عبدالناصر واما من قيادة منظمة التحرير الفلسطينية . وكنت شخصيا أشجعه على ان يبدأ المشروع ، مادامت هذه هي رغبة اهالي الضفة ، كما انها تلبي حاجة ماسة للشباب الفلسطيني تحت الاحتلال تمنعه من النزوح ، ولكن كان الرأى العام فى ذلك الوقت المبكر بعد الاحتلال بسنة او سنتين يتوهم ان الاحتلال سيزول سريعا ، وان اقامة جامعة في الأراضي المحتلة في رأى البعض خطأ ، وفي رأى البعض خيانة .. ولكنه لم يحصل على تصريح معنوى من اى من الجهتين اللتين كان يشترط رضاء احداهما . (وطال الاحتلال واقيمت جامعة نابلس وجامعة بيرزيت بعد وفاة الرجل بسنوات) .

المهم انه لكي يحضر الى القاهرة كان لابد له ان يحصل على اذن خاص من الحاكم العسكرى الاسرائيلي للاراضي المحتلة ، وفي آخر مرة جاء فيها الى القاهرة طلب الاذن كالمعتاد ، واذا بهم يستدعونه لمقابلة الجنرال موشى ديان الحاكم العسكرى الاعلى للمناطق المحتلة بوصفه وزيرا للدفاع .

وما ان جلس .. كما روى لي .. امام موشى ديان ، حتى بادره ديان قائلا : انت طبعا عندما تذهب الى القاهرة ستقابل جمال عبد الناصر !

ورد عليه قائلا : انه ذهب قبل ذلك ولم يقابل جمال عبد الناصر لانه الان يشتغل بالتعليم فقط لا بالسياسة . ورد عليه ديان قائلا : ولكننا نريد منك ان تقابل جمال عبد الناصر ، وانت سياسي مخضرم ولك وزنك ، وتعرفه من قبل ، لاننا نريد منك ان تنقل اليه رسالة هامة .

واعتذر قدري حافظ طوقان بشدة وباصرار عن عدم نقل اى رسالة او القيام بشبهة وساطة من اى نوع كان . وفي النهاية صمم موشى ديان على ان يسمعه الرسالة التي طلب إليه ابلاغها لجمال عبدالناصر . قائلا له إنه بذلك يؤدى خدمة لوطنه وانه يترك امر ايصالها او عدم ايصالها لضميره .

الآن .. وهذا هو المهم .. ماذا كانت الرسالة ؟

كانت فحوى الرسالة بدقة وايجاز قول ديان مامعناه : قل لجمال عبدالناصر اننا نؤكد له ان الروس لن ينفعوه وان الامريكان ايضا لن ينفعوه .. الروس لن يعطوه سلاحا يتفوق على السلاح الامريكي يمكنه من هزيمة اسرائيل . وامريكا لم يعد لديها قوة ضغط على اسرائيل كما يتوهم ، مهما فكر في تنازلات يعطيها لها (اى لأمريكا) . وان اسرائيل تعرف تماما ان القوتين العظميين لا مصلحة لاحداهما في إيجاد حل سلمى ينهى الصراع في الشرق الاوسط . وان امريكا وروسيا على السواء ، تحاول كل منهما استخدام اسرائيل ومصر لتحقيق مصالحهما في اطار صراعهما على المستوى العالمى وفي اكثر المناطق حساسية . وان متاعب اسرائيل وشكوكها في اهداف امريكا لاتقل عن متاعب جمال عبد الناصر وشكوكه في اهداف روسيا .

إذن ؟ بعد هذه المقدمة كان جوهر الرسالة هو : قل لجمال عبد الناصر ان يجربنا مرة واحدة ! نحن نعترف ان لديه ـ ماضيا وحاضرا ـ الف سبب للشك فينا كاسرائيليين .. ولكننا تعلمنا الكثير كما تعلم هو الكثير .. اننا ندعوه بكل قوة وصدق ان يجرب التفاهم مباشرة معنا دون اى وسيط ، سرا او علنا ! على مستوى عسكريين او مدنيين ! .. على مستوى وزراء أو سفراء ! بل على مستوى اصغر موظفين في ابعد سفارتين لنا في العالم ! .. المهم ان يحاول ان يجربنا مباشرة وبجدية .. امريكا وروسيا معا لن تعطياه أي شيء .. لن ترغمانا على أي شيء .. نحن وحدنا الذين يمكن ان نعطيه ما يشاء ! ولاسبيل لذلك الا الاتصال المباشر بدون اى طرف ثالث .

كانت هذه فحوى الرسالة التي اعلم يقينا انها ارسلت هاتين المرتين الى جمال عبدالناصر ، ومعنى ذلك انه لاشك تلقى رسائل واشارات اخرى بهذا المعنى بوسائل شتى لااعرف عنها شيئا .

من هاتين الواقعتين كان لايزال لديَّ استنتاج هام .. هو ان اسرائيل لابد أن تكون قد وصَّلت الرسالة نفسها الى انور السادات مرة ومرات .. وفي تقديرى بناء على هذا الاستنتاج ان الرئيس السادات قد اقتنع بهذا القول .. لعل هذا يبدو في أول مبادرة له بالانسحاب من شاطىء القناة مسافة معينة تسمح باعادة فتحها ومرور السفن فيها . فهو في الواقع كان اقتراحا علنيا سبق ان طرحه موشى ديان ، ولكن اسرائيل رفضت وقتها متوقعة ان تكون وفاة جمال عبد الناصر بداية الانهيار .. وزاد من اقتناع السادات بفحوى الرسالة الاسرائيلية مارآه رغم حرب ١٩٧٣ وفكى الاشتباك الأول والثانى .. من فشل امريكا او عدم رغبتها في القيام بالضغط الكافي لكي تعطيه اسرائيل ماتصور انه سوف يحصل عليه .. وفي تقديري ان هذا الاقتناع الجديد لعب دورا اساسيا في قبول السادات

بالاتصال باسرائيل سرا عن طريق مفاوضات موشى ديان وحسن التهامى .. ثم فى قبوله اللقاء علنا مع اسرائيل عندما طلب إليه كارتر ذلك . ثم فى تحول ذلك الى اللقاء الدرامى الكبير بذهابه الى القدس ، بقصد ان يقترن اللقاء كما قال له كيسنجر ، باكبر درجة من الضغط العالمى والامريكى والاسرائيلى الداخلى على مناحم بيجين ، ولست اشك فى ان السادات قد مات وهو يكره مناحم بيجين اكثر من اى انسان على الأرض ، لانه خدعه واهانه فى كل مناسبة بلا تردد . ولكنه فى مرحلة التمهيد للمباحثات وفى سلوكه التفاوضى داخل كامب ديفيد ، كان حريصا على ان يكسب ثقة اسرائيل نفسها وبشكل مباشر ، مادام لم يوصله كسب امريكا الى زحزحة اسرائيل شبرا واحدا . وانه لذلك يعطى بيجين مباشرة مالا يعطيه لصديقه الحميم جيمى كارتر .

واقول فى ختام هذا الاستنتاج والاستطراد : والله اعلم ! .

واعود الى سياق ذلك اللقاء مع الرئيس السادات فى استراحة الهرم فى ديسمبر ١٩٧٧ .

فى هذا اللقاء الذى نحن بصدده مع السادات باستراحة الهرم خلال شهر ديسمبر (كانون الأول) عام ١٩٧٧ ، طال الاخذ والرد بيننا من الحادية عشرة صباحا حتى الغروب .. وكنت استأذن احيانا فى الانصراف فيستبقينى الرئيس السادات طالبا ان ابقى معه حتى تأتى الطائرة الهليكوبتر التى ستحمله رأسا الى الاسماعيلية .

كانت احاديثنا كلها جادة وفى صميم الموضوع مما جاء ذكره فى الأسبوع الماضى . ولكننى سألته سؤالا غير سياسى عن انطباعاته الشخصية عن اسرائيل كما اتيح له ان يراها ، وعن الشخصيات التى قابلها ، ووجدت ان هذا السؤال فتح الباب لحديث محبب لديه . فقد شرح لى فى اسهاب الاستقبال الشعبى الرائع والحماس الذى قابله به الشعب الاسرائيلى ، الذى اهتزت مشاعره من هول المفاجأة والفرحة .. فقد جاءهم اخيرا قائد اكبر دولة عربية بعد عداء طويل مرير ، وتفتحت امامهم آمال السلام الواسعة . اذكر اننى قلت له ضاحكا : ياريس فى هذه النقطة انت تصرفت كفلاح مصرى صميم ، اذا زار خصما له بينه وبينه دم اعتبر اهل القتيل هذا نهاية للعداوة ، ولكننى اشك كثيرا ان تكون لهم الطباع نفسها التى تسميها أحيانا « عربية » واحيانا « ريفية » ، ولكننى اعتقد ان هذا المعنى المصرى العريق كان فى مكان ما من لا شعوره .

وقال لى الرئيس السادات : ان بيجين رجل صعب وجاف المشاعر ، وان ديان هو اذكى الجميع واصرحهم ، وان اقوى شخصية قابلها كانت جولدا مائير ، وروى لى اجتماعه بحزب العمل وكيف كانت جولدا مائير ترأس الاجتماع ويقف امامها اكبر رجال وجنرالات الحزب من اسحق رابين الى ابا ايبان وغيرهما كما يقف التلاميذ !!

وقال لي انه عاد واقرب شخص الي قلبه هو عازار وايزمان وقال لي : ان وايزمان رغم انه لم يكن في منصب رسمي ، وأن ساقه كانت في الجبس ويسير بصعوبة متوكئا على عصا ، فإنه جاء فورا الى مقر اقامته في فندق الملك داود وحدثه عن تفاؤله الشديد بالسلام المقبل .. وحدثه مطولا عن ذكرياته عندما عاش في القاهرة والاسكندرية سنوات منخرطا في صفوف الجيش الانجليزى خلال الحرب العالمية الثانية .. وأعترف له بأنه كان من « الصقور » ولكن اكبر واعز ابنائه الذى كان من المع طيارى سلاح الجو الاسرائيلي ، اصيب في الحرب برصاصة اخترقت رأسه ، دخلتها من ناحية وخرجت من ناحية اخرى ، فلم يعد له مخ بالمعنى الحقيقي ، وصار بالتعبير الطبي « نباتا » Vegetable اى ينمو ويعيش جسديا دون عقل .
بل ان وايزمان قال له انه كلما كان عائدا الى منزله تمر به لحظة خاطفة يتمنى فيها لو انه وصل الى البيت فوجد ابنه قد مات . فشاب مثله في حوالى الثلاثين من عمره وصحيح البدن الى آخر حد سيعيش ربما عشرات السنين على هذه الحال مسببا اقسى الآلام لكل من حوله ، وتوقف الرئيس السادات عند هذه الفقرة وقال لي : « يا أحمد همه بشر برضه زينا ، وحاجة زى كده تغير تفكير اى راجل » .
ثم مضى مستأنفا الحديث عن وايزمان الذى كان واضحا انه خلب لبه .. فروى لي ان وايزمان قال له ان امنيته الوحيدة في الحياة ان ينجح السلام ، وان يقضي بقية عمره في بيت صغير يشتريه في مدينة الاسكندرية ، التي يعشقها وفيها اجمل ذكريات شبابه ..

ولاشك ان الرئيس لاحظ الدهشة على وجهى فقال لي في فخر وارتياح عظيمين : كان وايزمان يأتي الىّ في الفندق كل يوم ، واحيانا مرتين ، بساقه المثقلة بالجبس .. كان يأتي ليسألني عن أى طلبات او رغبات من غير القنوات الرسمية . وعندما كنت اطلب إليه شيئا .. تعرف كان يقول لي ايه ؟ كان يقولي بالعربية المصرية التي يجيدها « تؤمر ياريس »!

كنت اشعر ساعتها بوضوح شعور الزهو والارتياح لدى السادات .. انه التعبير الذى يقوله المصرى لرئيسه المحبوب ، وهاهو احد اقدر واهم قادة العدو يخاطبه بهذه الكلمة المصرية العريقة (تؤمر ياريس) وان هذه الكلمة كانت تدغدغ مشاعر السادات الى آخر حدود .

وروى لي الرئيس السادات انه اعجب بشخصية رئيس الجمهورية في ذلك الوقت اسحاق نافون ، الذى يتحدث المصرية الشعبية بطلاقة ويحفظ الكثير من النكت المصرية الصميمة ، ويعجب بسماع ام كلثوم بصفة خاصة ، وان نافون وزوجته رحبا به فوق كل تقليد وبروتوكول ، فصممت زوجة نافون على ان تصحب زوجها الى المطار لوداع السادات رغم انف البروتوكول . وعندما كانت تصافحه وهو صاعد الى الطائرة انتابتها نوبة

حماسة ، فنزعت من يده الدبلة التي يلبسها في اصبعه ، وقالت انها ستحتفظ بها تذكارا من اهم شخص قابلته فى حياتها ، وأعطته فى مقابلها الدبلة التى كانت تلبسها فى أصبعها ! .. وضحك السادات وقال لى : اخذت منى دبلة من الذهب واعطتنى دبلة لااعرف اذا كانت من الفضة أم من الصفيح ! .

عندما لاحت طائرة الهليكوبتر اخيرا فى الافق نهض السادات متمشيا معى فى الشرفة ومودعا لى ومتجها الى الهليكوبتر ، وقال لى اهم تصريح بطريقة عفوية وكأنه يتحدث عن بدهية : الاثنين سأقضيه كله فى عزلة وراحة وتأمل .. ليس عندى اى موعد .. وصباح الثلاثاء سيصل الوفد الاسرائيلى الرسمى الى الاسماعيلية ستعقد جلسة فى الصباح وجلسة بعد الغداء (قالها وكأن المباحثات مجرد اجراء شكلى مفروغ من نتيجته مقدما) وفى صباح الاربعاء سنعقد انا وبيجين مؤتمرا صحفيا نعلن فيه مبادىء الاتفاق .

وقبل ان تبدو علىّ مظاهر الدهشة والبلاهة مرة اخرى لهذه السرعة الخاطفة والبساطة المتناهية .. استطرد السادات ونحن نسير جنبا الى جنب قائلا لى : فى الواقع اننى منذ عرفت بالأزمة القلبية التى اصابتك فى الكويت وانا استنكف من استدعائك كالعادة للنقاش أو لكتابة خطبة ، ولكن من حسن الحظ انك هنا ، فبعد المؤتمر الصحفى صباح الاربعاء الذى سيذاع على التليفزيون سيسافر بيجين والوفد الاسرائيلى الى القدس وسأحضر راسا الى القاهرة فى بيت الجيزة انا اريد ان اذهب الى مجلس الشعب صباح السبت لألقى خطابا أشرح فيه مبادىء الاتفاق وقصته الكاملة ، لأقطع كل الألسنة الطويلة بالنتائج التى سأعلنها . واذا لم تكن مضطرا إلى السفر فاننى احب ان تكتب لى هذا الخطاب . انه سيكون اهم خطاب فى حياتى السياسية . وموضوع الصراع العربى ـ الاسرائيلى هو موضوعك فهل انت مضطر للسفر قبل ذلك ؟

قلت له : لست مضطرا وانا باق بالطبع تحت طلبك اى وقت تشاء .. صافحنى وهو يقول : سأطلبك فى بيتك وهو قريب من بيتى بمجرد وصولى نهار الاربعاء .. سيكون لديك بقية يوم الاربعاء ويوم الخميس كله لكتابة الخطاب ، ونراجعه معا يوم الجمعة .

● ● ●

ركبت سيارتى عائدا مع الغروب من سكون صحراء الهرم الى بيتى فى الجيزة والدنيا تدور بى ! .. اننى اشعر ان الرئيس بالتأكيد صادق مع نفسه فى كل كلمة قالها لى ، فهو ليس محتاجا إلى أن يقول لى شيئا آخر ولكننى غير قادر على ان اصدق ان كل مايتوقعه سيتحقق . هل ماقاله لى سيتحقق ولو سبعين فى المائة منه ؟ (فقد تعودت من السادات ميله الى التفاؤل غير المبنى احيانا على اساس وميله لسماع الجانب الوردى من الاخبار والاحداث) .. أم انه ضحية عملية خداع هائلة ، وسيظل هدف

اسرائيل عدم اعطاء اي شيء والمناورة وكسب الوقت كماقلت له ؟ أم انه قد ذهبت به الاحلام بعيدا الى سحابة غير حقيقية تحت تأثير الوهج الشديد الهائل من الدعاية والاعلام والاهتمام العالمي والتمجيد الدولي في العالم الغربي بالذات .. وهو العالم الاكثر قوة وجاذبية ولمعانا وبراعة في التأثير على الرأى العام .. العالم الذى يهمه قبل العوالم الأخرى ؟

وقررت الا اضيع وقتا .. وقضيت بقية اليوم واليوم التالى التقى وازور كل من كانت له صلة بهذه القضايا الى وقت قريب : محمود رياض واسماعيل فهمي والمرحوم الدكتور محمود فوزى وغيرهم .

ولم يكن من حقي ان اروى لأحد مادار بين السادات وبيني بالتفصيل ، ولكنني كنت اقول لهم اننا تحدثنا طويلا وان هناك اتفاقا ما سوف يعلن قطعا صباح الاربعاء ، وقد يعجب الاتفاق البعض وقد لا يعجب آخرين ، ولكن هناك اتفاقا مؤكدا فيه مفاجآت كثيرة . وكان البعض يدهش والبعض يتشكك الا المرحوم الدكتور محمود فوزى الذى رفض حديثي واستنتاجاتي تماما ومن أساسها ..

واذكر ان مصطفى امين كان قد كتب يومها او قبلها بأيام قليلة في بابه في جريدة الاخبار « فكرة» يقول :

جريدة الأخبار في ١٩/١٢ سنة ١٩٧٧ .

(فكرة)

اتصلت بي أمس تليفونيا الاذاعة الاسرائيلية من تل ابيب ، وسألتني هل اقبل دعوة اذاعة اسرائيل للحضور الى إسرائيل ضيفا عليها .. ؟

قلت انني اقبل بعد أن يجلو آخر جندى اسرائيلي من الأراضى التى احتلتها بعد حرب ١٩٦٧ وتعترف بحقوق شعب فلسطين .

قالت اذاعة اسرائيل : ولكن الرئيس السادات زار اسرائيل . قلت : انه زار اسرائيل باسم الشعب المصرى ليقول لكم هذا . وسوف أجيء بعد ان تتحقق مطالب العرب التى اعلنها السادات في الكنيست ..

قالوا : هل هذا وعد ؟

قلت : نعم هذا وعد ..

فبعد ذلك تلقيت تلكس من شركة مانديز للسياحة في تل ابيب تطلب نشر إعلان في أخبار اليوم ترحب فيه بوصول أول طائرة عال اسرائيلية إلى مصر ، وتتمنى ان تصل قريبا الى تل ابيب أول طائرة من شركة مصر !

وأبرقت لهم أقول أننا سننشر هذا الاعلان بعد جلاء آخر جندى اسرائيلي عن الأراضى العربية .

وأمس زارني الصحفى الاسرائيلى : داني روبنشتاين المحرر العمالي

لجريدة دافار الاسرائيلية ، وسألني اذا كانت مصر مستعدة أن تتنزل من جزء قليل جداً من الأراضي من أجل أمن اسرائيل ..

وقلت له : ليس في مصر كلها مصري واحد يقبل أن ينزل عن شبر واحد من الأرض ! ..

قال : انت تعلم أنه مؤلم ان ننزل عن أرض امتلكناها لمدة عشر سنوات ..

قلت : نعم هذا مؤلم جدا ، وأنا اقدر الألم ، ويمكنكم أن تقارنوا بين ألمكم هذا وألمنا نحن الذين كنا نملك هذه الأرض منذ اكثر من سبعة آلاف سنة ! .

وقلت له : أنا اعرف كم يتعذب الاسرائيليون عندما يجدون البلايين تفيض حولهم في الشرق الأوسط ، ولا يستطيعون ان يلمسوها ! وأخشى لو تأخرتم في الموافقة على مطالب العرب ان تصلوا إلينا بعد أن تكون قد انتهت هذه البلايين !

وزارني صديق صحفي عربي وسألني عن رأيي في اتحاد المنظمات الفدائية العربية ؟

وقلت له : انني سعيد جدا باتحاد هذه المنظمات ، وقد وعدت بهذا وطالبت به ، فان الثورة الجزائرية لم تنجح إلا عندما وحدت صفوفها . ولكن المصريين آسفون لأن المنظمات الفلسطينية لم تستطع أن توحد صفوفها لمحاربة اسرائيل واستطاعت أن توحد صفوفها لمحاربة مصر .. !

مصطفى امين

وكنت قد قصصتها وحملتها في جيبي واطلعت عليها الدكتور محمود فوزي وقلت له : لو أنك يادكتور كنت رئيس وزراء اسرائيل وخيرت بين هذه العروض السخية التي تصل إلى البترول العربي وبين سيناء وشرم الشيخ .. ألا تفضل هذه العروض ؟ ! ..

كان الدكتور محمود فوزي قد قال لي في اول حديثي معه وبعد ان قلت له ماأستطيع قوله : انني بعيد عن السلطة تماما منذ عامين ولكنني اقطع لك بأن اسرائيل لن تعيد سيناء قط الى مصر ، كما أؤكد لك ان السادات لن يقبل الشروط التعجيزية التي سيضعونها امامه .

مرة اخرى لم احاول ان ازعزع يقين الدكتور فوزي بروايتي تفاصيل ماسمعت واكتفيت بأن اقول له : يادكتور فوزي ، الرئيس السادات لم يكن يتحدث عن « العروس » وهل نصاهر عائلتها ام لا ، انما كان يتحدث عن تفاصيل اتمام المصاهرة ..

يعني اين يقام الفرح واى نوع من الملبس والشربات نوزعه ..
وقال لي المرحوم الدكتور فوزى وهو ينقل بصره بيني وبين نافذة بيته الريفي المطلة على حديقته وعلى اشجاره : اكرر لك بلا تردد انني اقطع انه لن يحدث اى اتفاق في الاسماعيلية .
وضحكت وقلت له : لقد رفع الرئيس يده وقد قبض كفه وقال لي انه حين يعلن مافي يده سوف يضرب العرب بالجزمة القديمة .

وكانت للدكتور فوزى طريقة خاصة في الفكاهة والدعابة فقال لي : لا ! اسمح لي .. واضح انك لم تسمع كلام الرئيس السادات جيدا .
قلت له : هذا اتهام غريب !
فأجابني وكأنه لايهزل : هل تتصور ان الرئيس السادات عنده جزمة قديمة لكي يحدثك عنها ؟ لو قلت لي انه قال انه سيضربهم بالجزمة « البيير كاردان » لصدقتك !!
وعاد وجه الدكتور فوزى يتخذ شكلا قاطعا وصارما على غير عادته .. وقال لي : لقد عرضت سيناء على مصر وانا في السلطة مرتين ، مرة في عهد عبد الناصر ومرة في عهد السادات ، وقد رفض الرجلان العرض وأنا اشهد امامك بذلك .

وقلت له : لاتؤاخذني يادكتور فوزى مما سأقول .. فأنا لاأصدق ان سيناء قد عرضت علينا ورفضناها .. وعندما خطب جمال عبد الناصر وردد شعار « القدس قبل سيناء » اخذت هذا الشعار على محمل الضغط السياسي والعمل النضالي فحسب .

قال لي الدكتور فوزى : لقد عرضت علينا سيناء مرتين ولكن بشروط لايمكن ان يقبلها اى رئيس دولة مصرى مهما كان اتجاهه .
ماهذه الشروط المستحيلة ؟ حكايات المستوطنات وما الى ذلك ؟
قال : كلا ! .. كانوا مستعدين لإعادة سيناء كاملة بلا زيادة ولانقصان ! .. اما الشرط المستحيل فهو : ان تخرج مصر من العروبة نهائيا وبجميع الاشكال !!
- يعني ايه ؟
- يعني تصبح دولة شرق أوسطية او دولة من دول البحر الابيض المتوسط ، ولكن ألا تعود لها صلة سياسية بأى شكل مع مايسمى بالعالم العربي .. تصبح تركيا او اليونان او ايران ! ان تركيا وايران دولتان مسلمتان ، وفي مجلس الامن مثلا يصوتان دائما ضد اسرائيل ، الى آخره . ولكن الحرب مثلا مع اى دولة عربية او مع العالم العربي كله ، لايعني ان تدخل تركيا أو ايران الحرب . هذا هو الموضوع المطلوب من مصر مقابل

سيناء ... ولاصدق للحظة واحدة ان السادات سيقبل او يستطيع ان يقبل ذلك .

.. الغريب انه بعد سنوات من كلام الدكتور محمود فوزى .. وبعد عقد معاهدة الصلح مع اسرائيل ، وتكوين لجنة سياسية مصرية اسرائيلية تتباحث في القدس ، ولجنة عسكرية تتباحث في مصر ، رئيس الجانب الاسرائيلى فيها هو عازار وايزمان ويرأس الجانب المصرى الفريق الجمسى . انني التقيت بالفريق الجمسى مرة وكان يحدثنى عن تعثر المباحثات العسكرية بسبب تمسك اسرائيل بالمستوطنات السبع التى اقامتها فى سيناء .

وقال لى الفريق الجمسى انه فى اثناء الاستراحة قال له وايزمان : اسمع ياجنرال جمسى ! .. انت رجل عسكرى وانا رجل عسكرى .. وكلانا يعرف ان هذه المستوطنات ليس لها اى قيمة عسكرية على الاطلاق .. ولكن المسألة سياسية تماما . اننا واثقون من نوايا السادات . ولكن السادات لن يعيش الى الابد .. فلنفرض ان خلافا نشب يوما بيننا وبين سورية او الاردن مثلا .. ماذا يكون رد فعل مصر ؟ هل هو رد الفعل التلقائى القديم بأن تكون مع الطرف العربى مخطئا ام مصيبا ؟ وحربا وسلما ؟ أم ستتصرف كدولة على علاقات مع كل الاطراف تميز بين المخطىء والمصيب وتكتفى بادانة من تراه مخطئا ؟ لو اننا نضمن استمرار هذه الروح الجديدة التى لم تمتحن بعد لاخلينا ليس المستوطنات فقط ، ولكن لأخلينا النقب كله !! فلا مصلحة لنا فى وجود جبهة مصرية نواجهها !

عندما سمعت هذه القصة على لسان المشير الجمسى وجدته تفسيرا عمليا لما قاله لى الدكتور محمود فوزى بالضبط قبل سنوات .. وشعرت يومها ان السادات قد سار بمصر فعلا فى طريق مستحيل ، وان المسألة اخطر من مجرد عقد معاهدة صلح مع اسرائيل ووجدت فى « نوعية » حملات السادات والاعلام الموالى له ضد العرب بعد كامب ديفيد ، ان حفر الهوة التى تستحيل بها اقامة اى جسر مع العرب امر مقصود لذاته وجزء غير مكتوب من الثمن .

كان السادات - فى تقديرى - يتمنى بلا شك ان يحصل لمصر وللعرب على اقصى مايستطيع ، ولكنه على ضوء توالى الاحداث ورؤيته للأمور ، واختياره الامريكى النهائى الاستراتيجى ، كان مستعدا لأن يحصل على الحد الادنى وهو استرداد سيناء ، فقد علمته مظاهرات الخبز انه بغير ذلك لا يستطيع ان يستمر فى حكم مصر وكان مستعدا لأن يحصل اذا اقتضى الامر على سيناء من خلال حل منفرد مهما كان الثمن غاليا ، معتمدا على قدرته بعد ذلك فى استغلال الظروف المجهولة المتغيرة .

وقد حدث بعد ذلك ماهو معروف من مباحثات الاسماعيلية .

وفي صباح الاربعاء كنت جالسا بمفردي في بيتي امام شاشة التليفزيون ، انتظر المؤتمر الصحفي الذي ستعلن فيه مبادىء الاتفاق .

وقد ذهل الناس جميعا من هذا المؤتمر وصدموا مما رأوه صدمة قاسية .

ولكنني قد لاابالغ اذا قلت انني كنت من القليلين الذين صدموا اكثر من غيرهم . فقد كنت احد الذين استمعوا الى السادات وهو يرسم الصورة الوردية التى ستتجلى فى هذا المؤتمر ، لقد بدا السادات على شاشة التليفزيون وهو جالس بجوار مناحم بيجين وكأنه جسد محنط عاجز عن الحركة .. كان واضحا لي انه يمر بإحدى أقسى ساعات حياته امام العالم كله . فقد جلس بجواره مناحم بيجين الذى يظهر لأول مرة على شاشة تليفزيون مصر ومتحدثا لأول مرة من ارض مصر .. ولكنه لم يتردد فى اهانة مصر واهانة السادات كلما سنحت له الفرصة . قال ردا على سؤال من الصحفية المصرية هدى توفيق ان الرئيس السادات اعترف له بأن مصر تعتبر هى البادئة بالعدوان في حرب ١٩٦٧ (!!) وهو قول بالغ الخطورة فضلا عن انه غير صحيح بالطبع . وقال ردا على سؤال آخر فى عرض الكلام ان اليهود هم الذين بنوا الاهرامات ! وكان يتحدث بكبرياء وصلف ووقاحة لامثيل لها .. والسادات بجواره عاجز عن الرد او تخفيف الموقف . فهذا رجل مضطر لاحتمال مالا يحتمل لانه حريص على استمرار عملية السلام ، والآخر لايريد السلام أصلا ولايريد اعادة شبر من سيناء ولايهمه اذا وقع اى صدام ينهى المفاوضات .

كانت هذه نقطة التحول الكبرى في الرأى العام المصرى . فالجو الاعلامي الذى اوجده السادات برحلته الى القدس والذى جعل اغلبية الشارع المصرى تؤيد مسيرة السلام تحطم في دقائق بسبب مسلك مناحم بيجين الأول على الأرض المصرية والشاشة المصرية .. فهذه ليست نية سلام ولاغيره .

وايقنت ان ماكان يتحدث عنه السادات لي قبل ايام هو حلم من الاحلام ووهم كبير وخديعة كبرى ساقته اليها ثقته المطلقة بالرئيس كارتر وقدراته ووعوده .. وادركت في الوقت نفسه ان السادات لن يستطيع الخروج من هذا الحلم مهما حدث ، وان التنازلات سوف تتوالى اذا اراد ان يظفر بقطعة صغيرة من هذا الحلم .

واتخذت قرارا غريبا وهو : الا ارى السادات بعد ذلك !!

لقد أصبح فى مكان بعيد جدا لااتوقع ان اجد خيطا يربطني به .. وان الحوار صار مستحيلا ولانتيجة له الا الشجار والتوتر الذى لااريد ان تنتهى به هذه العلاقة

وسهّل ذلك عليّ ان الرئيس السادات بعد هذا المؤتمر الصحفى لم يعد الى القاهرة كما كان المفروض ان يفعل .. فلم يعد هناك مبرر لكتابة خطاب

وللذهاب الى البرلمان والقائه ! ، اذ ليس هناك مايقال على الاطلاق .. بدل ان يأتي السادات الى القاهرة سافر رأسا الى اسوان ..

وهنا سوف اغامر مرة اخرى باستنتاج وان كان يستند عندى الى دلائل وقرائن كثيرة من بينها نغمات مبهمة فى كلام السادات .. هذا الاستنتاج هو : ان السادات ذهب الى اسوان لكي يفكر مليا فيما حدث وماذا يفعل .. ومن بين ماكان يفكر فيه جديا هو الاستقالة ! .

ولعل القراء يذكرون انه خلال اسبوع واحد تقريبا من ذهابه الى اسوان زاره الآتي ذكرهم : جيمي كارتر رئيس الولايات المتحدة الامريكية ، رضا بهلوى شاه ايران وجيمس كالاهان رئيس وزراء انجلترا ، والملك الحسن ملك المغرب . وفى تقديرى ان كارثة الاسماعيلية قد جعلت الذعر يدب فى قلب كارتر وحلفائه ... وان كارتر لم يكن بعيدا عما يدور فى ذهن السادات فاسرعت امريكا تدفع بكل هؤلاء للطيران اليه فى اسوان لتشجيعه ولابداء استنكارهم للمسلك الاسرائيلى المخادع ولتشجيعه على البقاء والاستمرار وعدم اليأس ، وان القصة لم تنته بعد ، وانه لو انهاها عند تلك النقطة فسيكون قد فقد كل آثار حرب اكتوبر وزيارته للقدس معا . ومن يومها لم ار الرئيس السادات ، فقد كان هذا اللقاء الذى استغرق يوما كاملا فى استراحة الهرم هو أخرلقاء .

●●●

المنع الثانى من الكتابة

لم ار الرئيس السادات قط منذ اللقاء الطويل الذى رويت قصته فى الصفحات السابقة .

كنت اتردد كالعادة بين الكويت والقاهرة كثيرا . ومقالى الاسبوعى عن « حديث الاحد » ينشر فى الاهرام بانتظام كالعادة . وفى خلال احدى زياراتى للقاهرة تشكلت اول وزارة برئاسة الدكتور مصطفى خليل ، وقد الغيت فى التشكيل وزارة الثقافة وضمت الى وزارة الاعلام . واسرعت وانا فى القاهرة اكتب مقالا لينشر يوم الاحد بعنوان « خطاب عاجل الى رئيس الوزراء الجديد » ، بقصد ان اعترض على الغاء وزارة الثقافة . ولكننى دون ان ادرى كتبت مقالا عنيفا ظهر كأنه انفجار للكثير المكبوت فى نفسى . بدءا من اتهام العهد - اى عهد السادات - بأنه ضد الثقافة الحقيقية والمثقفين الحقيقيين ، ثم استطردت الى تعقب كل ماكنت ارى انه من مظاهر التفسخ والانحلال فى المجتمع والتسيب الذى يغمر مرافق الدولة ، ومقدمات العواقب الاقتصادية الوخيمة التى كنا نتوقعها للفوضى الاقتصادية التى سميت انفتاحا ، وظهر المقال فى الاهرام وكأنه حملة عنيفة على كل القيم والمنطلقات التى ظهرت بوادرها واخذت تتفاقم يوما بعد يوم .

وعلمت بعد ذلك ان هذا المقال ترك اثرا عنيفا فى نفس السادات .

ولكن « حديث الاحد » الاسبوعى ظل ينشر فى الاهرام كالمعتاد . وقد جرت احداث كامب ديفيد بكل ماصاحبها وانا بعيد عن القاهرة . وتصاعدت الحملات الصحفية بشدة بين الصحافة العربية والصحافة المصرية . وعندما اعلنت نصوص اتفاقيات كامب دافيد كتبت مقالا تحليليا موضوعيا ونقديا للاتفاقية . وارسلته كالمعتاد للاهرام ولكنه لم ينشر وان كان قد نشر بالطبع فى الصحف الاخرى التى تنشر « حديث الاحد » فى نفس اليوم فى عواصم عربية اخرى .

والغريب انني كنت في القاهرة ، وهنأني الدكتور مصطفى خليل على هذا المقال بل وعلى مافيه من نقد ومناقشة لنصوص الاتفاقية وروحها ، عندما كنت ازوره في مكتبه في رئاسة مجلس الوزراء . ودهشت ، وسألته اين قرأ المقال ؟ ، حيث ان المقال منع من النشر في الاهرام ؟ وتبين ان بعض شباب وزارة الخارجية المصرية كانوا قد صوروا المقال من احدى الصحف العربية وتداولوه بينهم ووصلت نسخة منه الى الدكتور مصطفى خليل ، الذى وافقني يومها على ان اسلوب المناقشة والنقد الموضوعى خير من اسلوب التهليل لكل ما احاط بالاتفاقية وما جاء بها وذُهش لمنعه من النشر في مصر !! .

وعدت الى الكويت وانا لااعرف اذا كان المنع منصبا على هذا المقال بالذات ام لا .

●●●

وتوجهت لحضور ندوة في « ابو ظبي » . وهناك وجدت في نفس الفندق : السيد محمود رياض وزير خارجية مصر الاسبق وامين عام الجامعة العربية وقتها ، والسيد عبدالعزيز بو تفليقة وزير خارجية الجزائر في ذلك الوقت . كان ذلك في فترة مرض الرئيس الجزائرى هوارى بومدين خلال الغيبوبة التى استمرت اسابيع طويلة قبل وفاته وكان احد اهم الاسئلة في العالم العربي كله هو محاولة معرفة التيارات والشخصيات المتصارعة في الجزائر ومن الذى سيكتب له ان يكون الرئيس المقبل للجزائر . والصحف العربية والعالمية تتضارب في نشر عشرات الاسماء والتخمينات . وروى لنا السيد عبدالعزيز بوتفليقة احد أقرب الناس إلى المعرفة قصة هذه التيارات كاملة ، بالوقائع والاسماء الدقيقة . وكان من اهم ماقاله انه هو شخصيا ليس واردا على الاطلاق كمرشح للرئاسة ، بعكس ماكانت تتوقعه معظم الدوائر بوصفه اقرب مساعدى بومدين اليه . وكان متأثرا وهو يروى اعتقاده بأن بومدين رغم علاقته الوثيقة جدا به ، كان حريصا على ان يبعده طول الوقت عن مكان المرشح المحتمل لخلافته . واذكر انه قال ان بومدين فعل به مافعله الحبيب بورقيبة في تونس مع اقرب رجاله اليه بعد الاستقلال ، السيد المنجى سليم ، اذ عمد الى ابقائه في الامم المتحدة وغيرها من المحافل الدولية حتى يفقد اى قاعدة داخلية له ! اما الأمر الثانى الجديد الذى قاله لنا فهو انه يرجح ان ينتهى الامر باختيار « الشاذلى بن جديد » رئيسا للجمهورية .

« الشاذلى بن جديد ؟ » هل هو الرجل الاسمر ذو الشعر الابيض والملامح الصارمة الذى كان حاكما لولاية وهران ؟ نعم ! لقد دعاني الرئيس بومدين مرة أنا وزوجتي لزيارة الجزائر وقضيت اسبوعين اتجول في كل مدنها ، وقضيت منها يومين في مدينة وهران في صحبة حاكم

الولاية ، الشاذلي بن جديد ، الذي كان لايركب سيارة ولايتجول في المدينة الا سائرا على قدميه ، مما ارهقني كثيرا ، ولايتكلم الا نادرا .

كانت عندي قصة صحفية مفصلة ليس لها مثيل . وفي الليلة نفسها امسكت بالتليفون واتصلت باصدقاء جزائريين في عواصم اوربا والعالم العربي ومنهم السيد الاخضر الابراهيمي سفير الجزائر وقتها في لندن والذي كنا مترافقين معا في زيارة وهران اذ كان ايامها سفيرا للجزائر في القاهرة ، وذلك كي استكمل المعلومات عن الاسماء والشخصيات وعمدت في الليلة نفسها إلى ارسال القصة التي ستشغل صفحة كاملة من الجريدة الى الاهرام ، وفيها اول صورة مفصلة عما يدور حول فراش بومدين ، واول تأكيد لاسم رئيس الجمهورية القادم .

اسرعت بهذا كله لسببين : السبب الأول . هو الواجب الصحفي نحو الجريدة وقرائها وان كنت خلال تلك الفترة في أجازة بدون مرتب واكتب لها مجانا وهي الجريدة التي لا ينقصها الثراء . والسبب الثاني : انني وجدت ان هذه الرسالة الصحفية لايمكن لجريدة ان تمتنع عن نشرها . وبالتالي فاذا لم تنشر الرسالة فمعنى ذلك ان المنع الخاص بي ليس مقصورا على مقال سابق ولكنه منع مطلق لي من الكتابة ، الأمر الذي كنت ارجحه بيني وبين نفسي لأن السادات كان يقول أنه لاتوجد رقابة على الصحف في عهده إذا رفع (الرقباء) ولكنه أبقى مكتب الرقابة وكان الصحفيون يسمونه تندرا (مكتب حرية الصحافة) لانه هو الذي يصدر التعليمات الشفوية لرؤساء التحرير وكان السادات شخصيا يمنع - دون قرار - ولكن بالتليفون هذا أو ذاك من الكتابة .

وصدرت الاهرام وليس فيها اية كلمة من هذا الذي تصورت انه سبق صحفي عظيم ! وتأكد لي انني ممنوع من الكتابة مرة اخرى . وتوقفت عن ارسال المقال الاسبوعي الى الأهرام .

وبعد اسابيع ، كنت في القاهرة ، وذهبت لزيارة المرحوم الاستاذ على حمدى الجمال في مكتبه . وروى ليّ ماحدث : كان الرئيس السادات مجتمعا مع رؤساء تحرير الصحف والمجلات ، وكان على حمدى الجمال جالسا بجواره ، ومال عليه السادات وسأله هامسا : هوه أحمد بهاء الدين مش لسه في اجازة من الاهرام ؟ ... وقال له على الجمال ايوه ياريس . فرد عليه قائلا : طيب يبقى الاهرام مش ملزم بنشر مقالاته !

وهكذا صدر الأمر الثاني بمنعي من الكتابة . فيكون السادات في خلال ثماني سنوات قد صادقني مرارا ، ونقلني من مكاني كعقاب مرة ، وفصلني من العمل الصحفي مرة ، واوقفني عن الكتابة مرتين ! وكان هذا الصعود والهبوط المتوالي مصدر حيرة للكثير من السياسيين والزملاء الصحفيين والقراء .

اخر الفرص

كنت في القاهرة . وكنت ملازما للفراش مصابا بانفلونزا غير عادية استمرت معى ما يقرب من شهر كامل وكانت المعركة بين السادات والصحف المصرية الخاضعة كلها له من ناحية والصحافة العربية من ناحية اخرى على اشدها . وكانت الاقلام المصرية المعروفة قد بدأت تنشر في الصحافة العربية قبل ذلك بزمن . فمن حقائق التطور العربى ان اصبحت هناك صحف ومطابع متقدمة فى كل قطر عربى . وكان طبيعيا ان يبدأ فى الظهور النظام الشائع في امريكا بالذات حيث توجد صحافة في كل ولاية من ولاياتها وفى البلاد التى فيها صحافة اقليمية قوية كفرنسا والمانيا وهو النظام الذى يتمثل فى ان ينشر المقال الواحد للكاتب المشهور فى عدة صحف في نفس الوقت .

ففى حالتي مثلا كان مقالى الاسبوعى فى الاهرام «حديث الاحد» ينشر منذ اول السبعينيات فى جريدة «الانوار» اللبنانية و «الوطن» الكويتية فى الوقت نفسه ، يرسل اليهما قبل طبع الاهرام بواسطة تيكرز «اى اجهزة ارسال وكالة انباء الشرق الاوسط» ثم بدأت تنشره مزيد من صحف بلاد عربية أخرى . وهو نظام يماشى التطور ولمصر ان تعتز به ولكنه محل هجوم دائم من الذين لا قراء لهم في مصر ولا فى العالم العربى أولئك الذين جعلتهم السلطة ـ لا القراء ـ كتابا ، ومع ذلك لم تطلب جريدة عربية من أحد منهم ان يكتب لها حرفا وامتنع ! !

وسمعت وانا فى الفراش خطابا عنيفا لانور السادات من خطاباته التى تميزت فى تلك الفترة بالاتجال والعنف البالغين .. وخص بهجومه جريدة «الشرق الاوسط» التى تطبع وتوزع فى لندن وفى جدة فى وقت واحد . لم اكن اكتب فيها فى ذلك الوقت ولكنها كانت تنشر بانتظام مقالات وقصص لبعض كبار كتابنا مثل مصطفى امين ونجيب محفوظ واحسان عبد القدوس

وغيرهم . وكما علمت فيما بعد فان بعض المحيطين بانور السادات اقنعوه بأن مقالات وكتابات الكتاب والادباء المصريين هي التي تروج الصحف العربية التي تهاجمه . وانه لو امتنع الكتاب والادباء المصريون عن الكتابة في هذه الصحافة فسوف تغلق ابوابها فورا ! وقالوا له ان جريدة الشرق الاوسط بالذات هي «اكثر جريدة يكتب لها المصريون وانها جريدة الملك فهد شخصيا ! ومن هنا جاءت حملة السادات العنيفة في هذا الخطاب على الصحف العربية عامة وعلى «الشرق الاوسط» خاصة ، ثم انتقل الهجوم على الكتاب المصريين الذين ينشرون في هذه الصحف ، واعتبر عملهم هذا خيانة . وكانت ملابسات تلك السنوات قد ادت الى هجرة عدد من الكتاب المصريين الى الخارج ازاء منعهم من النشر في مصر حيث تفرغوا لمهاجمة سياسة السادات في الانقلاب على ٢٣ يوليو والتشهير بجمال عبد الناصر ومنح الامتيازات المبالغ فيها للمال الاجنبي المستثمر في مصر مالا يظفر المستثمر المصري بمثله . والارتباط الاستراتيجي المطلق مع امريكا ، الى آخره . ولم اكن ممن هاجروا فقد كنت موجودا في الكويت كما ذكرت قبل كل هذه الظروف . ولكنني اعتبرت هذا الخطاب شاملا للجميع . ووجه السادات في نهاية خطابه انذارا عنيفا للكتاب المصريين بأن عليهم ان يختاروا بين الكتابة في الصحف المصرية أو الصحف العربية التي تصدر خارج مصر .

وكان لهذا الخطاب البالغ العنف اثر عميق فتوقف معظم الذين كانوا يكتبون في «الشرق الاوسط» عن الكتابة فيها .

. كتب مصطفى امين مقالا يعلن فيه ذلك بعنوان «اخترت مصر» وكتب آخرون بالمعنى نفسه .

وبعد أيام اتصل بي الاستاذ موسى صبري في البيت تليفونيا عدة مرات وكان الرد هو انني مريض في الفراش والتليفون بعيد عني . ويبدو ان موسى صبري ظن انني اتهرب منه ، وهو امر غير صحيح بالطبع ولكنني كنت راقدا في فراشي بالفعل ذات صباح لم يكن في البيت سوى ابني عندما وجدت موسى صبري واقفا جوار فراشي في غرفة النوم فجأة مع انها كانت المرة الاولى التي يأتي فيها الى بيتي ، واستنتجت فورا ان موسى أراد ان يفاجئني وانا غير مريض . فقد ظهرت الدهشة على وجهه فعلا عندما وجدني راقدا في الفراش متدثرا بالاغطية ، والمرض واضح عليّ . المهم .. جلس موسى صبري وقال لي : ده انت عيان صحيح ! وانا اتفقت مع الرئيس السادات على انني سأذهب اليه بك في اسوان على طائرة صباح الغد !

واخذ يحثني على أن اسافر معه رغم المرض . وقال لي انه تحدث مع الرئيس طويلا وان الرئيس يذكر لي انني لم اهاجمه شخصيا قط وانني فرقت بين انتقاد سياسة مصر وبين مهاجمة مصر وان هذه القطيعة بيننا يجب ان تنتهي ..

وقلت لموسى صبري : اولا انت ترى بنفسك انني فعلا مريض .. ثانيا انك جئت لي مشكورا في اسوأ وقت .

ـ لماذا ؟

ـ خطبة الرئيس السادات الاخيرة يتهم فيها كل من يكتب في صحف غير مصرية بكل انواع الاتهام وهي اتهامات لا اقبلها بأي شكل . ثم ان الرئيس السادات منعني من الكتابة في الاهرام لانني اعارض بعض سياساته ، ولعلمك فانني اعارض اساسا سياساته الداخلية . وبالتالي فانني سأواصل الكتابة في الصحف العربية وفي اي مكان استطيع ان اجد فيه ناشرا لما اكتب حتى في استراليا فهذه مهنتي وواجبي وحقي وليحاسبني من يشاء على ما اكتب وأنا أكتب للقارىء العادي لا أكثر ولا أقل لا للحاكم ولا لمصلحة . ومعنى قبول انذار السادات هو القبول بالكف عن الكتابة والاعتقال المعنوي في مصر ومعناه أنني كنت مخطئا في الكتابة في الصحافة العربية وهو ما لا أوافق عليه .

ثم ان الرئيس السادات ناقض نفسه في هذا الخطاب مناقضة شديدة . فهو يزعم للعالم صباح مساء ان الصحافة المصرية تتمتع بحرية لا مثيل لها وهو كما تعرف عكس الواقع تماما ، ثم يأتي بانذاره العلني هذا للصحفيين المصريين فينقضي هذا الزعم عن حرية الكتابة . انني اعتقد انه لو اتصل تليفونيا بأي كاتب من كبار كتابنا هؤلاء وطلب منهم عدم الكتابة في الخارج لاستجابوا له ولكن هذا الانذار العلني والتهديد على مرأى ومسمع من الناس جميعا مهين لكرامتهم ولكرامة الصحافة . انه يجعل الصحفي المصري كالارنب يؤمر بالدخول في هذا القفص أو في ذاك فيطيع ! فكيف اذهب اليه في هذا الوقت بالذات . انني اقدر حسن نيتك ولكن هذا اللقاء في هذا الوقت لن ينتج عنه الا تفاقم الخلاف .

وقال موسى صبري : ان السادات في هذا الخطاب لم يقصدك انت ومن هم مثلك وبصراحة فقد كان يقصد مصطفى امين بالذات إنت تعرف ان الرئيس لا يحب مصطفى امين ، ومصطفى امين شديد الشك في نوايا السادات نحوه وهو يعتقد ان السادات يريد ان يمنعه من الكتابة في الخارج ، ثم يمنعه بعد ذلك من الكتابة في الداخل فينهي حياته كصحفي . وقد كان مصطفى امين يريد رفض انذار الرئيس ولكننا بذلنا جهودا جبارة

معه لاقناعه بأن هذه الشكوك ليست صحيحة وأنه يجب أن يقبل ويترك العاصفة تمر .

وقلت لموسى صبرى : بالعكس أننى ارى شكوك مصطفى امين صحيحة وبصرف النظر عن عواطف السادات الشخصية نحو مصطفى امين او غيره فما يتخوف منه مصطفى امين يمكن ان يحدث لاى كاتب منا وعلى ذلك فانا لا يمكن ان اعد بقبول ما جاء فى خطاب الرئيس مهما كانت الظروف . وبالتالى فرحلتى الى اسوان محكوم عليها مقدما بالفشل الذريع الذى لا داعى له والذى سوف يحرجك انت اولا .

وسألنى موسى صبرى ماذا أقول للرئيس اذن صباح غد فى اسوان عن سبب عدم حضورك معى ؟ وكان طبيعيا ان ارد عليه ان المرض الذى رآه بعينيه حجة كافية حتى يمر وقت اخر تهدأ فيه النفوس المتوترة ولكننى قلت لموسى صبرى : اريدك ان تقول للرئيس السادات على لسانى اننى اطالب بالمساواة بالمطربة شريفة فاضل .. وبانت الدهشة الضاحكة على وجه موسى صبري وذكرت له ما حدث على صفحات جريدة الاخبار مما ظهر ان موسى لم يطلع عليه .. فقد نشرت جريدة الاخبار في باب اخبار الناس ان المطربة شريفة فاضل صاحبة كباريه «الليل» فى شارع الهرم تغنى اسبوعا فى كازينو الليل واسبوعا فى كازينو فى لندن حيث يكثر السواح العرب .. وانها كانت تغنى ليلة عندما تصايح بعض السكارى بكلمات ضد السادات وكامب ديفيد وان شريفة فاضل سايرتهم بكلام يحمل نفس المعنى . وبعد ايام نشرت جريدة الاخبار في المكان نفسه خطابا من المحامى الاستاذ لبيب معوض يقول فيه على لسان موكلته شريفة فاضل انها تؤدى عملها فى لندن كمطربة فقط ولا علاقة لها بالسياسة وان ما نشرته الجريدة غير صحيح ويطالب بنشر هذا التكذيب فى المكان نفسه والا رفع دعوى قضائية ضد الجريدة .

رويت ذلك لموسى صبرى وقلت له : شريفة فاضل من حقها ان تغنى فى كباريه في مصر وفي كباريه في لندن ومن حقها ان تنفى ما يوجه اليها من تهم غير صحيحة وانا اطالب بهذا الحق وبالمساواة مع شريفة فاضل فى كباريهات الصحافة !!

وضحك موسى صبرى ووافقنى على عدم ملاءمة الرحلة الى اسوان فى ظل هذه الظروف .

● ● ●

اننى اعرف تماما كل ماوجه الى السيدة جيهان السادات من اتهامات سواء كانت اتهامات مالية او اتهامات بالتدخل فى شئون الحكم . استطيع

ان اقول انني شخصيا لست مؤهلا لمعرفة مدى نصيب هذه الاتهامات من الصحة وهذا الكتاب لا اعتمد فيه على اية معلومات أعرفها ولكنني ألتزم فيه برواية احتكاكي الشخصي مع الآخرين بما يحمل الالتزام بالشهادة لا بالتحري والرواية والتحليل وبالتالي ما استطيع ان اتحدث عنه هو الجانب الخاص بمعرفتي الشخصية بها .. وهو ايضا استمرار لمنطق كتابة هذه الصفحات الذي ذكرته في المقدمة وهو الالتزام بأن لا اسجل على احد الا ما رأيته بعيني او سمعته بأذني فقط لاغير . تاركا لغيري مهمة الغوص الى ما وراء ذلك .

وبهذا المعنى ، فانني قد وجدت شخصية السيدة جيهان السادات في الاتصال المباشر بها شخصية غير عادية بكل المعايير .. ولا اعرف رجلا او امرأة من ابسط الناس الى اكبرهم علما او ثقافة او مركزا ، عرفها عن كثب وتعامل معها الا ووقع تحت تأثيرها الطاغي . فهي ليست سيدة جميلة وخارقة الذكاء فحسب وهي ليست ذات قدرة فائقة على ان تضبط أعصابها او فلنقل اكثر من ذلك . ان تضبط اعصابها في كل موقف ومع كل شخص على درجة الحرارة المطلوبة بالضبط . وبشكل تلقائي تماما لا يبدو عليها انها تبذل فيه اي مجهود . ولكنها تتميز ايضا بذلك المزيج من الصفات السابقة وغيرها التي تستطيع ان تكسب به الناس بسهولة فائقة لا تقاوم .

وقد كانت الصداقة في البداية بينها وبين زوجتي . وكانت لاتزال زوجة لرئيس مجلس الشعب او لنائب رئيس الجمهورية . وهي تجمع في تكوينها مزاجين معا .. فهي كما تهوى الابهة والفخامة في أعظم صورها ، فانها تهوى بالدرجة نفسها ما نسميه بالامزجة الشعبية الصميمة .. تهوى اثمن الفراء والمجوهرات كما تهوى الطعمية والفول المدمس . وليس هذا مجازا . فقد كانت قبل رئاسة الجمهورية وكونها السيدة المرموقة زوجة الرجل المرموق ، تمر على زوجتي مثلا كي تأخذها الى محل ساندوتشات الطعمية الجديد الذي سمعت عنه ثم الى محل عصير القصب المفضل لديها في شارع سليمان باشا (طلعت حرب) . وكما كانت تواظب على سماع ام كلثوم ، كانت تصمم على ان تأتي معنا الى السرادق الشعبي المفتوح مجانا للجمهور في ميدان سيدنا الحسين خلال شهر رمضان ، سرادق فنان الشعب الكبير زكريا الحجاوي ، تنحشر بيننا في مقاعد السرادق البائسة وسط الاف فيهم الرجال والنساء العاديون وفيهم السابلة وغوغاء الحواري القريبة .. بكل ما يصدر عنهم في السرادق المجاني ، لتستمع الى «خضرة» وفرق الانشاد الريفية .. وقدرة زكريا الحجاوي الفذة على محاولة ترويض هذه الالاف التي يصعب اقناعها بالتزام الحد الادنى

من آداب السلوك وعدم الضجيج وتجنب الكلام البذيء في سرادق مفتوح الدخول فيه بالمجان . ولكن هذا النوع من العلاقة انقطع بالطبع بعد ان اصبح عليها مواجهة اعتبارات وضعها الجديد كزوجة رئيس الجمهورية . وان كان قد بقى ملازما لها على الدوام هذا الامتزاج الغريب بين الذوق المصرى الصميم والذوق الغربى الصميم . وان كان الاعلام الغربى منذ زيارة السادات للقدس قد سلط عليها اضواء الغرب بشكل شحب معه الجانب الشعبي منها امام الجانب الارستقراطى المستغرب ، وقد كان هذا في حد ذاته من الحواجز الهامة التى قامت بينها وبين الجماهير العادية فى مصر .

وغرامها بالخدمة العامة سابق فى الواقع على تولى زوجها منصب الرئاسة وانني لاذكر بوضوح الايام التالية مباشرة لهزيمة ١٩٦٧ عندما مرت اسابيع والبلد شذر مذر والسلطة العليا مشغولة بأولويات بالغة الخطورة في تلك الايام .. وبدون أية دعاية عن هذا الموضوع الذى اظن انه بقي مجهولا حتى كتابة هذه السطور فاجأت زوجتي بالاتصال بها يوما وقالت انها سمعت كثيرها قصص المدنيين المصريين الهائمين على وجوههم فى سيناء بعد الاحتلال الاسرائيلي والذين يصلون الى حافة القناة يكادون يموتون من الاعياء والعطش او الجراح الخطيرة ، وتعسف الجنود الاسرائيليين على حافة القناة معهم ، وعدم وجود من يستقبلهم على الضفة الغربية للقناة .. وقالت انها جندت عددا قليلا من السيارات واتفقت مع سيدات جمعية الهلال الاحمر الذهاب فجر كل يوم الى القناة لمحاولة تسلم من يمكنهن تسلمه من العائدين ونقلهم فورا الى المستشفيات فى القاهرة مستخدمة فى ذلك نفوذها بالطبع لتسهيل الاجراءات والاسراع بها .

وبالفعل .. ولايام طويلة كانت زوجتي تعود آخر اليوم غاية فى الاعياء والاجهاد ليس من الجهد البدنى غير العادي فحسب ولكن من الارهاق المعنوى والعصبى . كانت تروى لى صورا لا تحتمل عن حالة العائدين سائرين بالجوع والعطش والدماء النازفة فى فيافى سيناء . وكان اكثر ايلاما من ذلك تعنت الجنود الاسرائيليين على الضفة الاخرى من القناة فى السماح لهم بالعبور مع انهم كانوا لايريدونهم ولكن يصيحون عبر القناة انهم ـ في عز الحر ـ لن يسلموهم الا اذا ارسلت اليهم كمية من البطيخ او كذا صندوق من البيرة ! وعشرات من هذه الاستفزازات . وكان على جيهان السادات وسيدات الهلال تحمل هذا كله لتسلم العائدين .

وبعد ذلك نقلت جهودها الى مستشفيات القاهرة التى امتلأت بالجرحى وكانت ايضا تصحب زوجتى وسيدات الهلال الاحمر فى مرورها على عنابر الجرحى واستخدام نفوذها فى تحسين خدمتهم وتجميع شكاواهم

ورسائلهم لأهلهم وتكتب بيدها رسائل من تمنعه جراحه من الكتابة في صبر لا مثيل له . حتى عادت زوجتي يوما وقالت لي انها ابلغت السيدة جيهان انها عاجزة عن مواصلة المجهود معها .. لماذا ؟ قالت لي انها دخلت معها صباح اليوم لاول مرة عنبر الذين ضربهم الاسرائيليون بقنابل النابالم الحارقة ، فلم تر الا اجساما ملفوفة كلها بطبقات من الشاش الابيض ماعدا فتحتين للعينين وفتحتين للانف والفم .. ولم يكن هذا كل مافى الامر بل كانت الرائحة داخل العنبر لاتحتمل : رائحة اللحم البشرى المحترق المحبوس في العنبر المغلق !! ومضت زوجتي معها متنقلة بين اسرة العنبر وبعد نصف ساعة اغمى على زوجتي من هذا كله .. وحملها الاطباء الى خارج العنبر حيث اسعفوها .. وافاقت وقررت الجلوس فى انتظار السيدة جيهان التى لم تخرج إلا بعد ساعات فى غاية القوة والصلابة .

واذكر فى هذا المجال يوم تقرر ان تذاع فى التليفزيون مناقشة رسالة الماجستير التى قدمتها فى كلية الاداب بجامعة القاهرة . وكنت يومها مدعوا إلى العشاء لدى اصدقاء من ابناء الطبقة الارستقراطية الراقية .. وفوجئت بأنه حتى هذه الطبقة التى رحبت أول الامر بما تجلت به جيهان السادات على الناس من جو ارستقراطى شبه ملكى .. قد انقلبت عليها بدورها ، وصممت ربة البيت على ان ادخل بمفردى الى غرفة نوم اصحاب البيت لرؤية المناقشة كاملة .. وقد فعلت ، وبقى أهل البيت وسائر المدعوين فى الخارج رافضين رؤية هذه المناقشة ثائرين على هذا التمييز التليفزيونى لها فمنذ متى يذيع التليفزيون مناقشة رسالة ماجستير ؟ وكان هذا فى الواقع رأى كل الناس من كل الفئات .. ولكنى كنت اعرف أولا من زياراتى لحجرة مكتبها الصغيرة فى بيت الجيزة انها بذلت مجهودا حقيقيا فى الرسالة . وكنت ارى فى طلبها لعدد من اكبر الاساتذة ان يأتوا اليها ويعطوها محاضرات خاصة فى هذا الموضوع .. شيئا لا يقلل من جهدها .. كنت اقول فى مناقشة حامية مع الناس : ان مشهد سيدة تملك كل شىء من مال وجمال وشهرة وسلطة .. تحاول ان تحصل على لقب علمى لن يقدم ولن يؤخر شيئا فى حياتها .. هو اكبر دعاية لان طلب المعرفة والعلم شىء له قيمته ويستحق التعب من اجله فى مرحلة انهارت فيها كل هذه القيم وصارت المادة بأى طريقة هى القيمة الوحيدة التى يعرفها المجتمع الظاهر على السطح .

وكنت اعرف من مظاهر جهدها وحبها الهائل للتفوق والنجاح والبروز انها ما ان اصبحت زوجة لرئيس الجمهورية حتى سألت واستشارت ثم طلبت من اكبر خبرائنا المتخصصين ان يعطوها فى بيتها محاضرات خاصة فى : التاريخ المصرى - التاريخ الاسلامى والعربى - الموسيقى العالمية -

وغيرها .. وسمعت منها مرة تعليقا على هذا الجهد انها ان تتطلع لمقابلة اكبر الشخصيات العالمية ، فقد رأت انها يجب ان تكون مهيأة للحديث في مثل هذه الموضوعات على مستوى لائق من المعرفة .

كانت قصة الماجستير خلال فترة القطيعة التامة بيني وبين الرئيس السادات وقد ادلت بعد ذلك بحديث للصحفي الاستاذ نشأت التغلبي في مجلة الحوادث كان من عناوينه عنوان يقول : ان احمد بهاء الدين الكاتب الذي لاينافق قد ارسل لي رسالة يهنئني فيها على الماجستير ، وذلك ردا على سؤال طرح عليها عن اعتراض الناس على هذه الرسالة وإذاعتها . وكان لهذا الحديث رد فعل طريف في المعسكرين : معسكر خصوم السادات السياسيين اغضبهم مني ان اكتب رسالة لزوجته اهنئها ، ومعسكر رجال السادات سواء منهم الحلفاء او الاذناب ازعجهم ان تسمي السيدة جيهان السادات كاتبا ممنوعا من الكتابة في مصر بأنه «لاينافق» مما يعني بمفهوم المخالفة وصف غير مباشر للذين دبجوا المقالات في مدح الرسالة بأنهم منافقون .

والحقيقة انني ارسلت لها بالفعل رسالة قصيرة مع بضع سطور : هنأتها في اولها على الرسالة وذكرت المعنى السابق الذي اشرت اليه وفي الجزء الثاني من الرسالة حدثتها عن ظلم اكاديمي مجحف وقاس على احد من نوهت هي بهم في مناقشة الرسالة كأهم اساتذتها الاجلاء .. وممن لايعرفون التقرب الى السلطة وبالتالي فهو مغبون في كل عهد وكان ممنوعا مثلي من الكتابة وسألتها ان تحاول ان تفعل شيئا في هذا المجال . ولا احب ان اذكر هنا اسم هذا الاستاذ الكبير لانني لم استشره في ذلك . ولانني عندما رويت له ما فعلت بعد ذلك بسنوات غضب مني غضبا شديدا .

ولكن الناس كانوا يعادون ما يلمحونه فيها - وهو صحيح - من طموح لا يعرف الحدود .. وقد كانت لها احيانا قراراتها الجريئة التي لاترضي السادات .

كنت مرة على موعد معه في استراحة المعمورة ليلا . وفي الحديقة وجدته جالسا وكانت زوجته على غير العادة جالسة معه . ثم ادركت السبب بعد السلام والتحية وما الى ذلك ، وكنت عائدا من الكويت ، عندما فاجأتني امامه بسؤال مباشر : انت قادم من الكويت واريد ان اعرف منك رأي الناس في الخليج عن رحلتي مع الرئيس بصراحة ؟ وقد كانت في الواقع قصة كبيرة في الخليج . كان الناس يرون الرئيس وهو على شاشة التليفزيون وهو يهبط من الطائرة في مطار الرياض في زيارة للسعودية ..

وفوجئوا بالسيدة جيهان تخرج معه وبجواره من باب الطائرة في موقف كله رجال ودون إخطار سابق للدولة في السعودية .. وقد روت لي امام السادات بعد ان وجهت اليّ ذلك السؤال .. انها ضغطت عليه حتى قبل بذهابها معه . وعلى اتفاق بدهي بمراعاة البروتوكول في بلاد الخليج اذ يستقبل رئيس الدولة بمفرده رسميا وامام عدسات التليفزيون والصحافة .. وبعد ان ينصرف موكب الرجال تصعد الي الطائرة السيدات اللاتي ذهبن لاستقبال زوجة رئيس الدولة ويأخذونها بعيدا عن العلانية والاضواء .. ثم استطردت قائلة انه ما ان فتح باب الطائرة وقام الرئيس متجها الي الباب حتى قفز الى ذهنها ان تخلق سابقة جديدة .. فنهضت دون سابق انذار وخرجت من باب الطائرة ليجدها السادات واقفة بجواره .. امام كل العدسات .. وفي مطار كامل من الرجال .

وانتهت القصة بان قالت ان المسئولين السعوديين رغم المفاجأة تصرفوا بغاية اللباقة والترحيب المهذب ولم يشعروها باحساسهم بأي حرج حتى انتهى الموقف المسرحي الغريب .

كانت تروي لي القصة بالتفصيل والرئيس السادات جالس بيننا في ليل المعمورة ينفث دخان غليونه في تجهم متجاهلا تماما الحديث كأنه لايريد ان يسمع . وشعرت ان الواقعة اثارت مشكلة بينهما . وانها تسألني امامه عمدا متوقعة ان تسمع مني رأيا يعزز وجهة نظرها .

وقلت لها وكأنني اسمعه هو طبعا : الناس في بلادنا نوعان وكذلك الامر في عالمنا العربي كله : هناك الذين عرفوا الدنيا وتعلموا في الخارج وهؤلاء لاتزعجهم مثل هذه الواقعة .. بل لعلهم يرحبون بها .

وهناك البسطاء من الناس وهم اغلبية في بلادنا ، قد لا يرضيهم مثل هذا التجديد بلا مقدمات .

كل من رأى وعرف جيهان السادات ـ قبل وبعد الرئاسة ـ لا يمكن ان يخطئه الشعور انها كانت تحب زوجها حبا شديدا غير عادي . وانه كان يبادلها نفس هذا الشعور ، وان كان اكثر تحفظا في اظهاره .. ولا انسى اننا ـ قبل الرئاسة ـ كنا في جلسة اصدقاء صغيرة وكانت هي موجودة بدونه ، واحست بفطرتها الخارقة ان بعض ما قيل فيه نوع من المزاح حول احدى عاداته ، وقالت ببساطة شديدة كلمة لا أنساها : «دائما اقول لنفسي ياريت كل الناس يشوفوه بعيوني !!»

وهي جملة اردها حتى الان على مسامع كثير من الزوجات !

ولاشك ان نفوذها عليه كان قويا . وهو ما لا يقبله الناس في بلادنا من الرجل العام . وفي مناقشة في امريكا قلت لبعض الامريكيين : انتم تنشرون في صحفكم ان كارتر له جلسة اسبوعية مع زوجته روزالين ،

يشرح لها فيها سياساته وتناقشه فيها ويستشيرها فيما سوف يتخذه من قرارات . وهذا يضاف الى رصيد الرئيس امام الناس تحت عنوان «الاسرة الامريكية السعيدة» . ولذلك فان زوجة المرشح للرئاسة تصحبه في كل مكان واجتماع ولها دور كبير في نجاحه او سقوطه . ولكن هذا وضع امريكي محض فهو حتى ليس غربيا .. ففي اوربا يعتبر نفوذ زوجة الرجل العام عليه نقطة ضده وليست له . ونفس الامر في بلادنا بشكل اكثر تشددا .. ولكنكم تضللون الاثنين .. اذ تظنون ان انتماءهم الى تقليد امريكي يرفع اسهمهما في مصر والعكس تماما هو الصحيح .

وقد بقي نفوذها على السادات طاغيا ، حتى انتزع منها عثمان احمد عثمان جزءا كبيرا من هذا النفوذ ، وصار الرئيس يقضي من الاوقات في شتى الاستراحات مع عثمان اكثر مما يقضي في بيته معها . وتضاءلت سمعة نفوذها الى جانب تنامي سمعة نفوذ عثمان احمد عثمان . الامر الذي جعلها ، رغم المصاهرة بينهما تكرهه الى حد كبير .

وقد بلغ من تصاعد عداء الرأي العام المصري لها بسبب ماشاع بينه من نفوذ سياسي لها ، ومن تبني "عادات أمريكية" ، انني اذكر انني كنت في لندن ثاني يوم اغتيال السادات .. وكنا نتابع على التليفزيون كل ما تلا ذلك من احداث ومن بينها ظهورها اثناء دفنه صامدة متماسكة الى آخر حدود ، ثم الزيارة الشهيرة التي قام بها الرؤساء الامريكيون الثلاثة : نيكسون وفورد وكارتر لها . وشاهدنا المقابلة على التليفزيون وقد بدت في قمة ثباتها وحسن هندامها بل واناقتها .

وصاح الجالسون والجالسات معنا وكلهم من المصريين المتفرنجين الذين يعيشون في لندن : انظروا ! حتى الحزن لايبدو عليها ، وهندامها كامل .. وشعرها كانه خارج لتوه من بين يدي الكوافير ! وزوجها مقتول منذ يومين فقط .

وقلت لهم : هل اذا ظهرت جاكلين كيندي بعد مقتل زوجها في هذا الثبات والهندام انطلقنا نشيد بهؤلاء الامريكان ، فاذا فعلت سيدة مصرية ذلك اخذناه عليها ؟ انني بالعكس ، أحييها على هذا الثبات .



وعندما انقطعت صلتي تماما بالرئيس السادات ثم تطورت الامور الى منحى من الكتابة لم اعد ارى السيدة جيهان بالطبع .. حتى كنت يوما في القاهرة في رحلاتي المستمرة بين الكويت ومصر واتصلت بي السيدة امال طليمات ودعتني الى حفل عشاء كانت تقيمه للسيدة جيهان .. وقلت لها ان

وجودي قد يحرجها .. فقالت لي : بالعكس انها هي التي طلبت ذلك .

ولم استغرب ذلك . فقد كانت السيدة جيهان تعمل دائما على محاولة تقريب الناس من السادات ورأب الصدوع التي كانت تحدث بينه وبين الاخرين .

وبالفعل . رحبت السيدة جيهان ترحيبا ادهش الحاضرين ، وفي خلال الحفل المزدحم تمكنت بلباقتها من التخلص ممن يتزاحمون للالتصاق بها وانفردت بي لحظات وهمست في أذني تسألني عن احوال الصراع العنيف بين الرئيس والعالم العربي ، وافهمتني انها ليست موافقة على خطابات الرئيس المتطرفة في عنفها ضد العرب ، ووصفه لهم بالاقزام والمتخلفين وما الى ذلك من الفاظ تجرح وتسيل الدم ، وقالت لي انها كلما كان ذاهبا لالقاء خطبة تلح عليه ان يلتزم بالنص المكتوب وان لايترك نفسه للارتجال .. وبالتالي قول ما لا يريد في الواقع ان يقوله .. وقالت لي : والله العظيم كل ما يكون رايح يخطب اوصله لباب البيت ، وفي يدي "قرص فاليوم" وكوب ماء واستحلفه ان يلتزم الاعتدال .

وبعد حديث قصير سألتني : الا تريد ان ترى الرئيس قبل سفرك الى الكويت ؟

واجبتها : لا احد يتردد في مقابلة رئيس دولته ولكن عندي سببين للاعتذار عن المقابلة . الاول . ان الرئيس غاضب مني .

- وهل تصدق كلام الصحفيين ؟

- لم يقل لي احد ذلك .. ولكنه امر بدهي .. فالرئيس يخوض معركة حياته السياسية وانا لست في معسكره وقد رفض مني حتى موقف المعارضة المتعقلة .. فمنعني من الكتابة .

وقالت : لا غضب ولا كلام فارغ .. انت تعرف شعوره الخاص نحوك .. وقد كنت اسمعكما تتشاجران ثم يطلبك بعد ايام .. ان بينكما عشرة طويلة .

قلت لها : وهنا يأتي السبب الثاني : انني بصراحة اسمع ان الرئيس في حالة عصبية شديدة التوتر .. وانه لم يعد يطيق المناقشة .. وانه لا يتردد في اهانة من يناقشه .. ويصب جام غضبه على الصحفيين .. انني لاجل هذه العشرة الطويلة لا اريد ان اقابله في هذه الظروف .. فقد يحدث بيننا ما يكسر الجرة نهائيا .. انني افضل ان لانتقابل حتى تمر حدة الأزمة بشكل او بآخر فيكون في اللقاء فائدة ..

ولاحظت ان السيدة جيهان لم تعلق على هذا السبب الثاني بالنفي مما اكد لي ما كنت اسمعه في هذا المجال ممن يقابلونه .

وقالت لي السيدة جيهان : طيب انا أطلب منك وعدا .. وهو ان تواظب

على مقابلتى طوال هذه القطيعة ، ان تتصل بى حين تأتى من الكويت كل بضعة اسابيع كعادتك واحدد لك موعدا .. وبالفعل صرت كلما جئت الى القاهرة تركت خبرا لدى سكرتاريتها .. فتحدد لى موعدا واذهب لزيارتها فى حجرة مكتبها الخاصة الصغيرة وتناقشنى فى كل الامور السياسية بدقة .. واتحدث معها بكل صراحة .. معتبرا انها ستختار اذا ارادت ان تنقل الى الرئيس ما تراه من اراء او تقديرات .

معركة رئاسة مؤسسة الاهرام : سمعت بالوفاة المفاجئة للمرحوم على حمدى الجمال رئيس مجلس ادارة ورئيس تحرير الاهرام .. فطرت الى القاهرة لألحق بسرادق العزاء .. وبعد ايام فوجئت بمكتبها يستدعينى لمقابلتها فورا .. وذهبت اليها فى الموعد المحدد ..

وكان المرحوم على حمدى الجمال قد تعرض لاهانة شديدة فى غضبة من غضبات السادات المتزايدة امام زملائه من رؤساء التحرير والمسئولين عن اجهزة الاعلام ، وقالت لى السيدة جيهان : ان انور حزين جدا لوفاة على الجمال حتى يكاد لا ياكل ، انت طبعا تعرف ماجرى بينهما .. صدقنى ان الشعور الذى يؤرقه هو ان يكون ما فعله به قد ساهم فى وفاته المفاجئة .

وكنت اعرف القصة المؤلمة .. فقلت لها : على اية حال الاعمار بيد الله ..

وفاجأتنى بقولها ان السادات فوضها فى ان تعرض علىّ منصب رئيس مجلس ادارة ورئيس تحرير الاهرام .. وانها قالت له انها تعتقد انها قادرة على اقناعى بذلك .

اعتذرت لها طبعا على الفور .. وقلت لها : انت تعرفين ان اسرتى عادت الى مصر وان عقدى ينتهى مع الكويت واننى عائد فى القريب العاجل .. ولكن الرئيس السادات نفسه يعرف اننى آليت على نفسى الا اتولى اى منصب صحفى وان لدى اسبابا صحية قوية لذلك . وقلت لها ان تذكّر الرئيس السادات اننى قلت له يوما اننى افضل ان اعيش مع أولادى يوما زيادة على ان اتولى اى منصب عشر سنوات كاملة .. الخ .

ثم تعرضت طبعا للجانب السياسى فى الموضوع . فما توقعته وتركت رئاسة التحرير من اجله قد زاد وتفاقم وثبتت مع الاسف تنبؤاتى .. وانه لوضع مستحيل ان ينتقل شخص من موقف الممنوع من الكتابة فى الصحافة المصرية الى اكبر منصب صحفى فى مصر ، دوره الاول ان يدافع عن سياسات الدولة . وقلت لها كيف يمكن أن اتولى مسئولية التعبير عن سياسات لا أومن بها .

وكان لديها رد على كل كلمة بذكائها المعهود .. وشعرت بحرج شديد ازاء ضغطها غير المألوف عليّ .. ثم قالت لى فجأة : الاهرام مش صعبان عليك ؟ يعنى يخلصك ان عثمان (المهندس عثمان احمد عثمان) يأخذ الاهرام كمان ؟ بواسطة فلان وفلان (وذكرت الاسماء) من جماعته ؟

وشعرت بأن هذا فى حد ذاته ، كان سببا آخر لضغطها وإلحاحها غير المألوف ، واحرجت حرجا شديدا لشعورى بأننى اخذلها .. ولكنى تجاهلت ماقالته تماما عن عثمان أحمد عثمان ، كأننى لم أسمعه ، ومضيت أطرح عليها أفكارى واقتراحاتى فى احسن أسلوب للتصرف ازاء خلو المنصب .

والواقع ان ماقالته السيدة جيهان لى عما أسمته « استيلاء عثمان على « الاهرام » كان له لديها ـ فيما يبدو ـ مايبرره .

فقبل هذا الحديث معها بيوم أو يومين ، كنت جالسا فى سرادق العزاء فى المرحوم على حمدى الجمال ، آخر الليل ، وقد خلا السرادق تقريبا ، ولم يعد بجوارى احد .

وفجأة وجدت الزميل زكريا نيل المحرر بالأهرام والزميل عبد الله عبد البارى المدير العام الادارى للأهرام وقتها ، يجلسان فى وقت واحد ، أحدهما على يمينى والآخر على يسارى . وسألانى فى وقت واحد : ما رأيك ؟ من تقترح لكى يكون رئيس مجلس إدارة الأهرام ؟

وابديت دهشتى لتعجلهما ، فقالا لى أن معلوماتهما أن السادات لو ترك لنفسه فسوف يختار انيس منصور لهذا المنصب . وهو ما يجب الحيلولة دونه بأى ثمن . ووافقتهما على هذا الاستنتاج ـ أو المعلومات ـ لأننى كنت أعلم ما يعلمانه من أن انيس منصور وقتها كان أقرب صحفى للرئيس السادات وسألتهما بدورى : أنا لم أفكر قط فما هو اقتراحكما ؟

وقالا لى : إنهما يرشحان واحدا من اثنين اما المهندس سيد مرعى رئيس مجلس الشعب ، وأما السيد منصور حسن وزير الاعلام فى ذلك الوقت .

وأبديت دهشتى لهذين الاقتراحين . ولكننى فهمت منهما أن المطلوب أن يتولى منصب رئاسة مجلس الادارة شخص لا يطمع فى المنصب ولا يريده . وبالتالى يكون وجوده كرئيس مجلس الادارة رمزيا ، كما كانت الحال أيام تولى الدكتور عبد القادر حاتم لهذا المنصب ، وبالتالى لا يطرأ أى تغيير على أصحاب السلطة الحقيقية داخل المؤسسة حتى ينجلى الموقف على الأقل ، وينتفى احتمال تعيين أنيس منصور .

ومرة أخرى قلت لهما أن هذه افكار غير واردة فى تقديرى وكان ذلك يوم الخميس . واستمهلتهما حتى ألاقيهما فى « الاهرام » صباح السبت ونعيد

الحديث والتفكير في الموضوع . ولكنهما قالا لي : كلا .. نريد أن نسمع منك اقتراحا الآن . فغدا يوم الجمعة ، والرئيس السادات ذاهب كالعادة إلى عزبة عثمان أحمد عثمان في الحرانية لقضاء اليوم والصلاة وتناول الغداء هناك ، ونحن لدينا موعد مع عثمان أحمد عثمان الساعة الثامنة صباح غد . ونريد أن نبلغه اقتراحا محددا بحيث ينقله إلى السادات .

وقلت لهما : إذا أراد السادات أن يقرر بسرعة تعيين أحد لهذا المنصب فسوف يعين انيس منصور . وكل مايمكنكما عمله هو أن تقنعا عثمان أحمد عثمان بأن يقنع السادات بأن مثل هذا القرار ليس مستعجلا ، ويمكن تأجيله شهرا أو شهرين .. في هذه الحالة قد يكون امامكما مجال تأمل الموقف بصورة أشمل .

وهذا حدث . وعندما حدثتني السيدة جيهان السادات بالحديث السابق عما اسمته « استيلاء عثمان على الأهرام » ذكرت لي هذين الاسمين بالتحديد : عبد الله عبد الباري وزكريا نيل ، وقالت انهما سيكونان المندوبين الساميين « لعثمان أحمد عثمان في الأهرام بصرف النظر عن شخص رئيس مجلس الادارة ورئيس التحرير إلا إذا عين للمنصب شخص قوي مستقل » .

ووقتها ، تجاهلت كلام السيدة جيهان عن الأشخاص ، كما ذكرت ، وقلت لها أن تذكر الرئيس السادات باقتراحي القديم له بالفصل بين منصب رئيس مجلس الادارة ورئيس التحرير ، وأن تذكره ايضا وتكرر له رأيي الدائم بأن أي مرشحين للمناصب الصحفية يحسن أن يكونوا من نفس المؤسسات الصحفية ، لأن تعيين عناصر من خارج الصحافة في هذه المناصب يحدث احباطا شديدا لكل الصحفيين ويجعلهم يشعرون بأن غيرهم يسلب حقهم في التقدم .

وقلت لها : إن أكبر منصب اداري في الأهرام حاليا يشغله الاستاذ عبد الله عبد الباري ، وأن اكبر مسئوليتين في التحرير يتحملهما الاستاذ ابراهيم نافع والاستاذ مكرم محمد احمد .

ولفت نظري أن السيدة جيهان السادات لم تعلق على اسمي مكرم محمد احمد أو ابراهيم نافع . ولكنها قالت : عبد الله عبد الباري رئيس مجلس إدارة لا .. الرئيس مستحيل يوافق !

وقد ادهشني هذا التعليق ، وكأنها تقول أمرا مفروغا منه .

وبعد حديث السرادق ، وحديث السيدة جيهان ، وشعوري بناء عليهما بأن ثمة معركة اخرى بين السيدة جيهان والمهندس عثمان احمد عثمان ، ذهبت إلى الأهرام ، وزرت فيمن زرت الاستاذ عبد الله عبد الباري .

دخلت مكتبه وجلست ، وقلت له : صحيح أنا من المغضوب عليهم في

هذا العهد ! ولكنك تعرف أنني لا آتي بمعلوماتي من الشارع ! ومعلوماتي ان لديك فرصة أن تكون رئيسا لمجلس إدارة الأهرام ، ويكون غيرك من المؤسسة رئيسا للتحرير .

ونظر إليّ عبد الله عبد الباري نظرة دهشة وقال لي : ولكنني أعرف جيدا أن هذا مستحيل ! وهو أمر لم اتصور ولا اتصور حدوثه مطلقا ! ولذلك كان اقتراحي أن يتولى رئاسة مجلس الادارة اسم كبير ، ويترك عجلة الأهرام تدور كما تدور حاليا .

وقلت له : إن ما اقوله لك صحيح ، خصوصا بحكم علاقتك بعثمان أحمد عثمان . ولكنني شعرت ـ ولا تسألني كيف ـ ولا من أين ـ أن ثمة مشكلة خاصة بين السادات وبينك بالذات . واذا كان شعوري صحيحا فإنني أعتقد أن عثمان احمد عثمان يستطيع حل مثل هذه المشكلة .

وفاجأني عبد الله عبد الباري بقصة لم اسمعها قط وربما لا يعرفها حتى الآن إلا القليلون جدا ، اذ قال لي : ولا عثمان يحلها ! اتعرف ماهي المشكلة ؟ إن لي اخا ، كان قد تزوج كاميليا ابنة الرئيس السادات من زوجته الأولى ! وأنت تعرف ماجرى من خلافات عنيفة واتهامات متبادلة ، بين بنات السادات من زوجته الأولى وبين جيهان . وكانت كاميليا هي أفصح البنات وأكثرهن جرأة على أبيها وعلى جيهان . وقد حُسِبنا بحكم هذا الزواج على أننا في صف كاميليا ، ضد ابيها وزوجة ابيها وإننا نحرضها عليهما . ثم طلق اخي كاميليا . وهذا زاد المرارة الشخصية تفاقما ! تلك هي القصة ! وانت تعرف ان كل مرة قُدِّم فيها اسمي للسادات لتغيير لقبي من « مدير عام » إلى « عضو منتدب » ، كان السادات يشطب بيده هذا السطر ، من اى قرار خاص بالأهرام .

الواقع انني ذهلت من هذه القصة التي لم اسمع بها قط في عالم الصحافة الذي لا تخفى فيه مثل هذه الحكاية . ولكنني قلت لعبد الله عبد الباري : هذا كله جديد عليّ تماما ، ولكن ، اسمع : ان السادات كما اعرفه لا ينسى خصوماته بسرعة ، ومع ذلك فمن بين متناقضات شخصيته أنه يمكنه في لحظة واحدة ان ينسى كل شيء ، وتقديري أن تأثير عثمان أحمد عثمان عليه كفيل بأن يصارحه بهذه القصة ، وأن يطلب منه نسيانها ، وتقديري ايضا أن عثمان يستطيع أن يرتب لك مقابلة مع السادات .

ـ مستحيل !!

ـ لا ، ممكن جدا ، وأنا أعرف شطارتك ، وانك تستطيع ـ إذا سنحت لك فرصة الحديث مع أحد أن « تأكله » و « تمصمصه » حتى ولو كان أنور السادات .

وضحكت . وضحك عبد الله عبد الباري ضحكة حزينة قائلا وهو يودعني أنت متفائل !

ولكن هذا هو ما حدث بالفعل !

وانتهى الأمر بتولي الأستاذ عبد الله عبد الباري رئاسة مجلس الادارة ، وتولي أحد اللذين اقترحتهما لرئاسة التحرير وهو الاستاذ ابراهيم نافع (كان الذي اقترح اسم الاستاذ ابراهيم نافع على الرئيس السادات مباشرة هو الدكتور مصطفى خليل) وقد تم بالطريقة التي طرحتها عليها بالضبط : ما اقترحته على السيدة جيهان السادات : أن يكون الأمر انتدابا بضعة اسابيع أو أشهر دون رفع اسم المرحوم علي الجمال فاذا نجحت التجربة ، صدر قرار بتعيينهما .

وكانت هذه آخر فرصة عرض عليّ فيها العودة إلى اللقاء مع الرئيس السادات ، اللقاء الذي لم يتم .

وبعد اغتيال السادات باسبوعين جئت من لندن إلى القاهرة وعلمت ، من صديقات السيدة جيهان المقربات أن الصورة القوية المتماسكة التي يراها الناس هي نصف الحقيقة .. اما نصفها الآخر فهو انها في حالة انهيار وحزن هائل اغلب الوقت .. واقرب صديقاتها اليها لا يرينها ويكتفين بترك سؤالهن عنها لدى سكرتيرها احمد فوزي في ذلك الوقت .

وكل فترة من الزمن ، عندما تضطر لمقابلة وفد اجنبي من اعضاء الكونجرس الامريكي مثلا أو من وزراء اجانب زائرين .. تستجمع اطراف ارادتها وتظهر في احسن مظهر لها وتستقبل الزوار الرسميين وتستكمل اليوم باستدعاء بعض صديقاتها فقط لاغير .

واتصلت بسكرتيرها احمد فوزي وتركت له خبرا انني اود زيارتها بضع دقائق لتقديم واجب العزاء .. قاصدا بذلك في الواقع مجرد تسجيل واجب العزاء .

ولكن لم يمض يومان ، حتى اتصل بي سكرتيرها احمد فوزي وحدد لي موعدا لزيارتها .. وبيت السادات في الجيزة صغير من الداخل بعكس ما يبدو من الخارج وكانت حجراته بالفعل ممتلئة .. كل حجرة منها فيها وفد من دولة ما ، ولابد ان طلبي صادف يوما من ايام تهيئتها لمواجهة هذه الواجبات .

وحين ادخلتني السيدة قدرية صادق الى الصالون الذي كانت جالسة فيه .. كانت هي جيهان السادات كما عهدتها دائما في قوة حضورها وحتى الابتسامة .. الشاحبة هذه المرة .. باستثناء الفستان الاسود والنظارة السوداء الكبيرة التي تغطي عينيها تماما ، وجاءت بعدي السيدة صفية المهندس ، وجلست فترة ثم انصرفت .

ولم اذكر كلمة عزاء واحدة لانني اجده عادة في هذه المناسبات المرة

سخيفا ومفروغا منه .. بل فتحت على الفور موضوعات عدة للكلام العادى بدلا من الحديث عن الاحزان المرفرفة فى فضاء الحجرة . ولامجال هنا للاطالة عن هذه الاحاديث التى استطالت فعلا وسكرتيرتها السيدة قدرية تأتى من حين لاخر تذكرها بمواعيدها الاخرى .. فقد جرّنا الحديث الى ما سوف يواجهها فى الايام المقبلة .. وقد روت لى بالتفصيل قصة يوم الاغتيال المشهود .. من المنصة الى المستشفى الى قول الاطباء لها : الله يرحمه ..

ولكننى قد احب ان اسجل واقعة ترسم صورة لهذه السيدة التى كانت ومازالت محل فضول وحب استطلاع الناس اعداء واصدقاء ..

دق التليفون اثناء وجودى ، وحمله اليها احد الموظفين كان واضحا من ردودها انها تتحدث الى شخص من اقارب العائلة الحميمين .. وفى احد ردودها على محدثها اعترفت بأنها طبعا تقاوم الامها بصعوبة خصوصا فى تهدئة خواطر بناتها .. ولكنها تتصور انها حين تعود الى التدريس بعد اجازة الاسبوعين التى طلبتها من الجامعة سوف يشغلها التدريس والذهاب الى الجامعة ولو جزئيا عن همومها .

وبعد ان وضعت سماعة التليفون قلت لها : نحن جميعا نعرف قوة ارادتك غير العادية .. ونعرف بصراحة ميلك الطبيعى الى التحدى .. ولكنى اعتقد ان ذهابك للتدريس فى الجامعة بعد اسبوعين من اغتيال الرئيس الراحل مبالغة شديدة منك .. اننى اسألك ماذا تريدين ان تثبتى لنفسك او للناس بالضبط ؟

وقالت لى : لا اريد ان اثبت شيئا .. وانا فقط اقصد ما اقول من ان انشغالى بشىء هو مهربى الوحيد لانك تعرف اننى لااستطيع البقاء فى البيت هكذا دون شىء يشغلنى وسألتها : الا تخافين من الذهاب الى الجامعة فى هذه الظروف ..

قالت : لا اعتقد ان هناك خطرا على حياتى داخل الجامعة .. ثم اننى لااريد ان يقال اننى كنت ادرس واكتب الماجستير ثم الدكتوراه مادمت كنت زوجة لرئيس الجمهورية فلما تغير الوضع قررت انهاء التمثيلية .

وقلت لها : اولا ان أى زوج مصرى يقتل لاتذهب زوجته الى العمل بعد اسبوعين ! هذا غير مقبول لدى مجموع شعبنا .. وقد كانت كثير من مشاكلك مع الراى العام سببها تصرفات تعجب الناس فى امريكا ولكنها لا تعجبنا فى مصر .. ثم اننى اعرف ان حياتك غير مهددة .. ولكن جو الجامعة شديد العداء فى الوقت الحاضر للرئيس الراحل ، وذهابك قد يعرضك ولو لسماع كلمة من طالب لاداعى لسماعها ..

ـ لماذا تقول ان جو الجامعة معاد لهذه الدرجة ؟

ـ انسيت ان من اخر قرارات الرئيس فصل عدد كبير من اساتذة جامعة القاهرة ؟ خصوصا فصل الاساتذة الاربعة زملائك في قسم اللغة العربية بالذات ؟ ورغم انني واثق من ان ما يقال غير صحيح .. فان كلية الاداب تريد ان مناقشاتك معهم وترتيبك لمقابلة بينهم وبين الرئيس الراحل وكلامهم الصريح الذى لم يعجبه كان السبب فى وضعهم فى قوائم المفصولين .. رغم انك تعرفينهم جيدا وتعرفين انهم مصريون وطنيون وليس لهم اى انتماءات او نشاطات سياسية .

وردت جيهان السادات بسرعة : انت تعرف قصة هؤلاء الأربعة معى والله العظيم واقسم بحياة بناتي وابنى ، ان المرة الوحيدة التى بكيت فيها فى حياتى أمام انور السادات وانا اطلب منه شيئا ، كانت يوم عرفت ان هؤلاء الاربعة فى كشف الذين سوف يفصلون .. ويومها ثار انور ضدى ثورة لم اعهدها من قبل . وقال لى المرة دى مفيش خواطر .. ولو توسط العالم فلن اشطب اسما واحدا من الاسماء التى جاءت فى كشوف وزارة الداخلية .

وقلت لها : على الاقل لن يكون مقبولا ان تذهبى الى قسم اللغة العربية وهؤلاء الاربعة مازالوا مفصولين من عملهم .. والحد الادنى المعقول ان يعودوا قبل عودتك .

واحسست ان هذه الحجة قد غيرت من عنادها ورغبة التحدى الطبيعية فيها وقلت لها : لن يكون غير طبيعى ولن يحسب عليك انه خوف او تراجع اذا طلبت اجازة لمدة سنة من الجامعة .

وشكرتنى على هذا التنبيه وقالت : انها ستفعل ذلك وودعتنى بودها المعهود وخرجت من بيت انور السادات لآخر مرة ..

انتهت المحاورات

●●●

الفهرس

صفحة

رقم الايداع ١٨١٦ / ٨٧

الترقيم الدولى X ـ ٢٧٩ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISBN



محاوراتي مع السادات

●● توفرت للكاتب الكبير الأستاذ أحمد بهاء الدين ظروف جعلته قريبا من صانع القرار، بحكم موقعه كصاحب قلم شارك بالرأى، وتولى مناصب مختلفة فى بلاط صاحبة الجلالة الصحافة..

وعرف القارئ أحمد بهاء الدين كاتبا موضوعيا يحمل باصرار مشعل الاستنارة والتقدم، فمنذ ان ظهر اسمه ككاتب سياسى فى اوائل الخمسينيات فى مجلة روزاليوسف، وتأسيسه مجلة صباح الخير، ورئاسته لتحرير أخبار اليوم ومجلات دار الهلال والأهرام ومجلة العربى، وحتى تفرغه للكتابة فى جريدة الأهرام، كانت كتاباته تعبيرا صادقا عن توق حار للعدل والتطور.

وهذا الكتاب محاورات مباشرة مع الرئيس السادات، تلقى الضوء على الكثير من الأحداث التاريخية الكبرى، والكاتب هنا يتجه مباشرة الى زاوية انتقاها بدقة ليوضح طريقة تفكير السادات الخاصة ودوافعه ونظرته للأحداث والأشخاص، منذ اللقاء الأول وحتى اتخاذ كل منهما [illegible] واتجاها.

الثمن ٤ جنيهات